البحث اللغوي عند العرب

مع دراسة لقضية التأثير والتأثر

تأليف

الدكتور أحمد مختار عمر

أستاذ علم اللغة — كلية دار العلوم

جامعة القاهرة

الطبعة السادسة

١٩٨٨

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت — القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٧١

الطبعة الثانية ١٩٧٦

الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ، ١٩٨٠

الطبعة الرابعة ١٩٨٢

الطبعة الخامسة ١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

	الصفحة
المقدمة	١١
الباب الأول — دراسات تمهيدية	١٥ — ٧٥
الفصل الأول : مصادر اللغويين العرب	١٧
القرآن الكريم ١٧ — القراءات القرآنية ١٩ — الحديث النبوى ٣٤ — الشعر ٤٢ — الشواهد النثرية ٥٠ — مآخذ ٥٤ .	
الفصل الثانى — الدراسات اللغوية عند غير العرب	٥٧
تمهيد ٥٧ — الهنود ٥٧ — اليونانيون ٦١ — المصريون القدماء ٦٣ — السريان ٦٥ — العبرانيون ٦٧ — الصينيون ٧٤ .	
الباب الثانى — الدراسات اللغوية عند العرب	٧٦ — ٣٣٧
الفصل الأول : مرحلة النشأة	٧٩
تأخر البحث اللغوى ٧٩ — غريب ابن عباس ٧٩ — محاولة أبى الأسود لضبط المصحف ٧٩ — علامة التشديد عند أهل المدينة ٨٠ — البدء بجمع المادة ٨٠ — تأخر البحث النحوى عن جمع المادة اللغوية ٨١ — النحو كفن نشأ قبله كعلم ٨٢ — أول من ألفوا فى النحو ٨٣ — سبب وضع النحو ٨٦ — أمثلة لأوليات اللحن ٨٦ — الاقواء ٨٨ — عيسى بن عمر ٨٩ — ابو عمرو بن العلاء ٩٠ — عبد الله بن أبى اسحاق ٩٠ .	
الفصل الثانى : الأصوات	٩٣
عرض تاريخى ٩٣ — جهود النحاة ٩٣ — جهود المعجميين ٩٣ — علماء التجويد ٩٥ — المؤلفون فى اعجاز القرآن وعلوم البلاغة ٩٦ — أصحاب	

الصـــــفحة

الموسوعات الأدبيـــة ٩٨ — ابن جنى ١٠٠ — ابن سينا ١٠١ — بعض النتائج الصوتية التى توصل اليها العرب ١١٤ — تعقيب ١١٩ .

الفصل الثالث : النحو والصرف ١٢٣

عرض تاريخى ١٢٢ — سيبويه ١٢٣ — الرد على سيبويه للمبرد ١٢٤ — الانتصار لسيبويه من المبرد لابن ولاد ١٢٥ — ابو جعفر الرؤاسى ومعاذ الهراء ١٢٦ — التنافس بين البصريين والكوفيين ١٢٦ — هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ١٢٨ — اهم الفروق بين مدرستى البصرة والكـــوفة ١٣٦ — ملاحظات ١٣٨ — دعوات التجديد والاصلاح للنحو العربى ١٤٦ — أسباب الشكوى من النحو ١٤٦ — الشعوبيون والهجوم على النحـــو ١٥٢ — الكتب الميسرة ١٥٤ — مقترحات اصلاح النحو : ابن ولاد ١٥٦ — أبو العلاء المعرى ١٥٧ — ابن حزم ١٥٨ — ابن مضاء ١٥٩ — قيمة الدراسات النحوية عنـــد العرب ١٥٩ .

الفصل الرابع : المعجم ١٦١

١ — مقدمات للموضوع ١٦١

صعوبة العمل المعجمى ١٦١ — تعريف المعجم ١٦٢ — المعجم اللغوى والموسوعة ١٦٢ — أنواع المعاجم ١٦٣ — معنى كلمة معجم واشتقاقها ١٦٣ — جمعها ١٦٤ — شروط المعجم ١٦٥ — وظيفة المعجم ١٦٥ — الخطوات الاجرائية لاعداد المعجم ١٦٧ — اول من استخدم لفظ معجم ١٧٣ — معجم وقاموس ١٧٣ .

الصــــــفحة

٢ — الترتيب المعجمى عند العرب ١٧٥

القسم الأول : معاجم الألفــاظ : مدرســة الترتيب المخرجى : العين للخليل ١٧٨ — الاحصاء الرياضى ١٧٩ — الشكوك حول العين ١٨٣ — ترتيب العين ١٨٩ تهذيب اللغة للأزهرى ١٩٣ — البارع للقالى ١٩٦ — مختصر العــين للزبيدى ١٩٨ — المحيط للصاحب بن عباد ١٩٩ — المحكم لابن سيده ٢٠٠ — مثالان تطبيقيان على معاجم الترتيب الصوتى ٢٠١ — مدرسة الترتيب الألفبائى : وضع الكلمة تحت أسبق حروفها : الجمهرة لابن دريد ٢٠٣ — مثالان تطبيقيان على معجم الجمهرة ٢٠٨ — وضع الكلمة تحت حرفها الأول بعد تجريدها : الجيم لأبى عمرو الشيبانى ٢٠٩ — المقاييس لابن فارس ٢١٢ — مجمل اللغة لابن فارس — مثالان تطبيقيان على معجمى المقاييس والمجمل ٢١٥ — أساس البلاغة للزمخشرى ٢١٧ — المصباح المنير للفيومى ٢١٩ — وضع الكلمة تحت حرفها الأول دون تجريد : المقصور والممدود لابن ولاد ٢٢٠ — غريب القرآن للسجستانى ٢٢٠ — غريب القرآن وغريب الحديث ٢٢٠ — المعــرب للجواليقى ٢٢١ — السر فى عدم شيوع هذا النظام بين المعجميين ٢٢١ — وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد : التقفية فى اللغة للبندنيجى ٢٢١ — وضع الكلمة تحت حرفها الأصلى الأخير : لمن الريادة ؟ ٢٢٣ — الصحاح للجوهرى ٢٢٤ — بين الصحاح وديوان الأدب ٢٢٥ — الأعمال التى دارت حــول الصحاح : التنبيه والايضاح ٢٤١ — نفوذ السهم ٢٥١ — الوشاح ٢٥١ — التكملة والذيل والصلة للصغانى ٢٥٢ — المختصرات ٢٥٢ — العبــاب

الصفحة

للصغانى ٢٥٣ — لسان العرب لابن منظور ٢٥٥ — القاموس المحيط للفيروز ابادى ٢٥٧ — نظامه ٢٥٧ — بين الفيروز ابادى والجوهرى ٢٥٩ — اضاءة الراموس لابن الطيب الفاسى ٢٦٤ — تاج العروس للزبيدى ٢٦٦ — التكملة للزبيدى ٢٦٨ — مدرسة الترتيب بحسب الأبنية : مدخل ٢٦٩ — مرحلة التمهيد ٢٧٠ — مرحلة المعجم الكامل : ديوان الأدب للفارابى ٢٧٣ — المقدمة ٢٧٤ — المادة اللغوية ٢٧٥ — التذييلات ٢٧٨ — فائدة هذا النوع من المعاجم ٢٧٩ — تقدير القدماء لديوان الأدب ٢٨٠ — عيوبه ٢٨١ — شمس العلوم لنشوان ٢٨٢ — نظامه ٢٨٣ — بين ديوان الأدب وشمس العلوم ٢٨٤ — مقدمة الأدب للزمخشرى ٢٨٦ .

القسم الثانى : معاجم المعانى : الكتيبات والرسائل اللغوية ٢٨٨ — كتب الصفات والغريب المصنف ٢٨٨ — المخصص لابن سيده ٢٨٩ — كفاية المتحفظ لابن الأجدابى ٢٩١ — المؤلفات على كفاية المتحفظ ٢٩٣ .

٣ — المآخذ على المعاجم العربية ٢٩٥

اهمال الترتيب الداخلى ٢٩٥ — الخروج على المنهج المرسوم ٢٩٦ — اخطاء الشرح ٢٩٦ — الشرح المعيب ٢٩٨ — اهمال ضبط الكلمة ٢٩٨ — التقليد الأعمى ٢٩٨ — تقييد فترة التسجيل ٣٠٠ — تجاوز وظيفة المعجم ٣٠٠ — جمود المعجم العربى فى العصر الحديث ٣٠١ .

الصـــــفحة

٤ ـــ اهم المحاولات لوضع معجم حديث ٣٠٤
محاولات الأفراد : وضع منهجية جديدة وجهود أحمد فارس الشدياق ٣٠٤ ـــ تاليف المعاجم الميسرة : محيط المحيط ٣١٠ ـــ قطر المحيط ٣١٠ ـــ أقرب الموارد ٣١٠ ـــ المنجد ٣١٠ ـــ البستان وفاكهة البستان ٣١١ ـــ متن اللغة ٣١١ ـــ الرائد ٣١١ ـــ المساعد ٣١١ ـــ اعادة ترتيب المعاجم القديمة : ترتيب القاموس المحيط ٣١٣ ـــ مختار القاموس ٣١٣ ـــ المختار من صحاح اللغة ٣١٤ ـــ الافصاح فى فقه اللغة ٣١٤ ـــ معاجم المستشرقين : محاولة فيشر ٣١٦ ـــ معجم لين ٣١٩ ـــ معجم دوزى ٣٢١ .
محاولات المجامع اللغوية : مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ٣٢٢ ـــ المعجم الوسيط ٣٢٣ ـــ المعجم الكبير ٣٢٤ ـــ معجم الفاظ القرآن الكريم ٣٢٥ ـــ مصطلحات العلوم والفنون ٣٢٥ ـــ المعجم الوجيز ٣٢٥ ـــ المكتب الدائم لتنسيق التعريب ٣٢٦ ـــ المجمع العلمى العربى بدمشق ٣٢٨ .

٥ ـــ قائمة بكلمات يصعب معرفة اصلها ٣٢٩

الفصل الخامس : الدراسة المقارنة ٣٣٣
الزعم أن الدراسة المقارنة لم توجد الا فى العصر الحديث ٣٣٣ ـــ قدم الدراسة المقارنة عند العرب ٣٣٣ ـــ ابن بارون ٣٣٣ ـــ جودة بن قريش ٣٣٦ .

الباب الثالث ـــ قضية التاثير والتاثر .. .. ٣٣٩ ـــ ٣٦٥

تمهيـــد ٣٤١

الصـــــفحة

الفصل الأول : احتمالات التأثير الأجنبى ٣٤٣
الهنود ٣٤٣ — اليونان ٣٥٠ — السريان ٣٥٢ — العبرانيون ٣٥٥ .

الفصل الثانى : احتمالات التأثير العربى ٣٥٧
النحو السريانى ٣٥٧ — النحـو القبطى ٣٥٨ — النحو العبرى ٣٥٨ — المعجم : الهنود ٣٥٩ — الترك ٣٥٩ — ديوان لغـات الترك للكاشغرى ٣٦٠ — قاموس الأروام لملا صالح ٣٦٣ — الفرس ٣٦٣ — استعارة الحروف العربية ٣٦٤ — العروض العربى ٣٦٤ .

مراجع الكتاب : .. .. ٣٦٧ — ٣٨٢
١ — المراجع العربية ٣٦٩
٢ — المراجع الأجنبية ٣٨١

كتب أخرى للمؤلفة ٣٨٣

المقدمـــة

يتناول هذا الكتاب بالتأريخ الدراسات اللغوية عند العرب ، منذ نشأتها المبكرة الى أن وصلت الى مرحلة النضج والكمال ، ولا يتجاوز ذلك القرن الخامس الهجرى بأى حال من الأحوال • ففى هذا القرن اكتملت الاتجاهات المعجمية ، وفى القرن الذى قبله وصل الدرس النحوى والصرفى والأصواتى الى قمته • ولم يعد ما تلا ذلك من الدراسات أن يكون ترديدا أو شرحا أو تلخيصا أو نظما لأعمال سابقة •

ولم أتجاوز القرن الخامس الا فى حالة واحدة ، هى أن أبدأ بالحديث عن اتجاه ما ، ثم لا أجده ينتهى بانتهاء هذا القرن ، فلم يكن هناك بد من السير بالاتجاه الى نهايته • وقد حدث هذا — مثلا — حين تتبعى المدارس المعجمية ، وحدث كذلك حين الكلام عن دعوات التجديد والاصـــلاح للنحـــو العربى •

ولما كان الحكم على العقلية العربية ، وتقييم ما قدمته فى ميدان الدراسات اللغوية من أبحاث ونظريات لا يكتمل الا بمعرفة جهـــود السابقين والمعاصرين فى نفس الميدان ، رأيت أن أخصص فصلا فى الباب الأول لعلاج هذا الموضوع واخترت له عنوان « الدراسات اللغوية عند غير العرب » • وتسلم هذه الدراسة للأعمال اللغوية الأجنبية — الى جانب الأعمال اللغوية العربية — الى تساؤل يتعلق بمدى الصلة بين الجهدين ، ومقدار ما قدمه كل طرف للآخر أو أخذه عنه • وقد أفردت لعلاج هذا الموضوع بابا خاصا هو الباب الثالث الذى عالج قضية التأثير من جانبيها ولكن فى ايجاز وتركيز •

ولست أزعم أن كل ما جاء فى هذا الكتاب جديد ، فبعضه — وهو قليل — لا جديد فيه على الاطلاق ، وبعضه قديم وضع فى ثوب جديد ، وبعضه — وهو كثير — جديد بالنسبة للقارىء العربى •

To: www.al-mostafa.com

وأرجو أن يغنى هذا الكتاب طلاب الدراسات العليا فى جامعاتنا العربية عن الرجوع الى المظان المختلفة وبعضها نادر الوجود وبعضها الآخر مصور أو مخطوط • كما أرجو أن يكون نافذة تفتح عيونهم على كثير من القضايا التى مازالت معلقة حتى الآن ، أو مازالت فى حاجة الى تحليل وتمحيص •

وأحمد الله أن لاقى هذا الكتاب رواجا كبيرا لم أكن أتوقعه حتى صدرت له خمس طبعات فى خمس عشرة سنة • وقد اقتضانى هذا اعادة النظر فيه عند كل مرة أدفعه الى المطبعة • وكنت فى كل مرة أتجنب ما قد أجده من هفوات أو مواطن نقص وأزيد ما بدا لى ضروريا •

وتختلف هذه الطبعة عن الطبعات السابقة اختلافا ملموسا وتتميز بما يأتى :

١ — تحرير القول فى موقف اللغويين والنحاة من القراءات القرآنية •

٢ — تدقيق النظر فى موقف اللغويين من الحديث النبوى الشريف •

٣ — إعطاء آراء ابن سينا الصوتية اهتماما خاصا بعد أن نشر كتابه « أسباب حدوث الحروف » نشرة علمية محققة •

٤ — توسيع الفصل الخاص بالمعاجم ليلبى حاجات الطلاب والدارسين ، وبخاصة بعد أن أصبح علم المعاجم مقررا مستقلا فى كثير من الجامعات العربية ، وبعد أن تطورت صناعة المعجم على المستوى العالمى •

وقد أضفت فى هذا الفصل عناوين كثيرة مثل :

المعجم اللغوى والموسوعة — الخطوات الاجرائية لاعداد المعجم — مجمل اللغة لابن فارس — دراسة تحليلية لكتاب ابن برى « التنبيه والايضاح » — التكملة والذيل والصلة للزبيدى — حاضر المعجم العربى —

وضع منهجية جديدة للمعجم العربى وجهود أحمد فارس الشدياق — معجم المساعد للكرملى .

كما أضفت بعض الأمثلة التطبيقية على معاجم الترتيب الصوتى والجمهرة والمقاييس نظرا لصعوبة الكشف فيها ، وحاجة مستعملها الى تدريب خاص .

وهناك اضافات أخرى وتعديلات موزعة فى ثنايا الكتاب يصعب حصرها .

والله الموفق .

سبتمبر ١٩٨٧ | المؤلف

الباب الأول

دراسات تمهيدية

الفصل الأول

مصادر اللغويين العرب

من الممكن حصر المصادر التى استقى منها اللغويون العرب مادتهم فيما يأتى :

١ ــ القرآن الكريم •
٢ ــ القراءات القرآنية •
٣ ــ الحديث النبوى •
٤ ــ الشعر •
٥ ــ الشواهد النثرية •

وان وجد بينهم خلاف حول بعضها • واليكم بيان ذلك :

١ ــ القرآن الكريم

وقد اعتبروه فى أعلى درجات الفصاحة وخير ممثل للغة الأدبية المشتركة ، ولذا وقفوا منه موقفا موحدا فاستشهدوا به ، وقبلوا كل ما جاء فيه • ولا يعرف أحد من اللغويين قد تعرض لشىء مما أثبت فى المصحف بالنقد والتخطئة [1] • ويقول الراغب الأصفهانى فى كتابه المفردات مبينا قيمة اللفظ القرآنى : « ألفاظ القرآن الكريم هى لب كلام العرب

---

(١) بل كانوا يدافعون عن النص القرآنى ضد ما يوجه اليه من شبهات كما فعل ابن هشام فى شذور الذهب حين نقل ما يروى عن عثمان أنه قال : « ان فى المصحف لحناً وستقيمه العرب بالسنتها » • وما يروى عن عائشة انها قالت : « هــذا خطأ من الكاتب » (فى قوله تعــالى : « والمقيمين » و « الصابئون » و « ان هذان ») فقد ذكر أن الخبر باطل لوجوه منها :

أ ــ ان الصحابة كانوا يتسارعون الى انكار أدنى المنكرات فكيف يقرون اللحن فى القرآن ؟

ب ــ أن العرب كانت تستقبح اللحن فكيف لا تستقبحه فى القرآن ؟

ج ــ أن المصحف يطلع عليه العربى وغيره •

وزبدته ، وواسطته ، وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء .. واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء .. وما عداها .. كالقشور والنوى بالاضافة الى أطايب الثمرة » .

والمراد بالقرآن النص القرآنى المدون فى المصحف ، وهو غير القراءات . يقول الزركشى فى البرهان : « القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان . فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد ﷺ للبيان والاعجاز . والقراءات هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما .. » (١) . ويقول الآمدى فى الاحكام : « أما حقيقة الكتاب فقد قيل فيه هو ما نقل الينا بين دفتى المصحف بالأحرف السبعة المشهورة نقلا متواترا » (٢) .

ومن الحقائق المسلمة أن القرآن نزل أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغتهم . ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته الى لغة أخرى للمشقة (٣) ، وكانت الاباحة بعد أن كثر دخول العرب فى الاسلام وذلك بعد الهجرة (٤) . فلما جاء عثمان وأراد جمع القرآن فى المصاحف ونسخها « اقتصر من سائر اللغات على لغة قريش » (٥) ، ولذلك « جعل مع زيد النفر القرشيين لئلا يكون شىء من القرآن مرسوما على غير لغتهم » (٦) ، وقال عثمان للقرشيين :

=

د — ان زيد بن ثابت أراد أن يكتب « التابوه » بالهاء فأمره عثمان أن يكتبها بالتاء على لغة قريش .

هـ — أن عمر بلغه قراءة ابن مسعود « عتى » فأمره أن يدعها ويقرىء الناس بلغة قريش فان الله انما أنزله بلغتهم (شرح شذور الذهب بحاشية الأمير ، ص ١٨) .

(١) البرهان ٣١٨/١ .

(٢) الاحكام ٢٢٨/١ .

(٣) القراءات واللهجات ، ص ٨ .

(٤) النووى على مسلم ١٠٣/٦ .

(٥) الاتقان ٦٣/١ .

(٦) المقنع ص ١٠٩

« إن اختلفتم فى شىء أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه على لسان قريش فانما نزل بلسان قريش » [١] .

٢ — القراءات القرآنية

وهى الوجوه المختلفة التى سمح النبى بقراءة نص المصحف بها قصدا للتيسير ، والتى جاءت وفقا للهجة من اللهجات العربية . يقول ابن الجزرى فى كتابه النشر [٢] :

« فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها .. حيث أتاه جبريل فقال له : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال صلى الله عليه وسلم أسأل الله معافاته ومعونته إن أمتى لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف » .

ويقول : « إن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها عربيها وعجميها ، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته الى غيرها أو من حرف الى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة ، ومن لم يقـرأ كتابا .. فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلف وتأبى الطباع » .

ثم ينقل ابن الجزرى عن ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » قــوله :

« فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرىء كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم : فالهذلى يقرأ (عتى حين

---

(١) المرجع ص ٥ .
(٢) النشر ١/٢٢ .

يريد (حتى) .. والقرشى لا يهمز ، والآخر يقرأ (قيل لهم وغيض الماء) بالاشمام .. وهذا يقرأ (عليهم ومنهم) .. والآخر يقرأ (عليهمو ومنهمو) بالصلة .. الى غير ذلك . ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا لاشتد ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه » .

شروط قبول اللغويين للقراءة :

يحتاج موقف اللغويين من القراءات القرآنية وشروط قبولهم لها الى توضيح ، لأن هناك خلطا كثيرا وقع فى هذه القضية . وأحب بادىء ذى بدء أن أميز بين منهجين مختلفين وموقفين متباينين من القراءات القرآنيـة :

أولهما : موقف القراء وعلماء الأصول .

والآخر : موقف اللغويين والنحاة .

الفريق الأول حكمته النظرة الى القراءة باعتبارها وسيلة تعبد وتقرب الى الله ، وشرطا لصحة الصلاة ، ومصدرا للتشريع .

أما الفريق الثانى فقد حكمته النظرة الى القراءة باعتبارها أحـد المصادر اللغوية المعتمدة ، وشاهدا لا يصح النظر إليه بمعزل عن سائر الشواهد اللغوية .

الفريق الأول — حين غلب المقياس الدينى — وضع لقبول القراءة شروطا ثلاثة هى :

١ — موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا .

٢ — موافقة العربية ولو بوجه .

٣ — صحة سندها واتصال روايتها [1] .

---

(١) النشر لابن الجزرى ص ١ — ٩ .

أما الفريق الثانى — وهو الذى يهمنا — فقد وضع لصحة القراءة شرطا واحدا هو صحة الرواية عن القارىء العدل حتى لو كان فردا ، وسواء رويت القراءة بطريق التواتر أو الآحاد ، وسواء كانت سبعية أو عشرية أو شاذة • بل ان ابن جنى فى كتابه « المحتسب » كان حريصا على وضع القراءة الشاذة على قدم المساواة مع القراءة السبعية ، وذلك فى قوله : « إنه نازع بالثقة الى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه ووراثه • ولعله أو كثيرا منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه » • واذا كان اللغويون لم يشترطوا النقل المتواتر فى أى نص لغوى فلماذا يشترطونه فى القراءة القرآنية • واذا كانوا قد صرحوا بقبول نقل الواحد اذا كان الناقل عدلا رجلا كان أو امرأة ، حرا كان أو عبدا [١] فلماذا يوضع قيد على قبول القراءة دون غيرها ؟ بل أكثر من هذا يصرح السيوطى بأن العدالة وان كانت شرطا فى الراوى فهى ليست شرطا فى العربى الذى يحتج بقوله •

والى جانب عدم اشتراط اللغوى للتواتر لم يشترط اتصال السند ورفعه الى الرسول صلى الله عليه وسلم • واللغويون بهذا يتعاملون مع القراءة على أنها نص عربى رواه أو قرأ به من يوثق فى عربيته على فرض التشكك فى نسبة القراءة الى الرسول • وبهذا يدخل فى باب الاحتجاج اللغوى كثير مما عده القراء من باب التفسير أو الشرح اللغوى •

أما شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية فلا يتقيد به اللغوى كذلك • بل هو يرى فى هذا الشرط حدا من فائدة تعدد القراءات واضاعة للحكمة من تشريعه ، وهى التخفيف على هذه الأمة وارادة اليسر بها كما سبق أن ذكرنا •

ان العادات النطقية والقدرة على التلفظ ببعض الأصوات دون بعض إنما ترتبط بالجانب الصوتى لا الكتابى • وإلا فأى صعوبة نطقية تتحقق

---

(١) الاقتراح للسيوطى ص ٨٦ •

فى أن يقرأ القارىء الكلمة كما قرئت : « فتبينوا » أو « فتثبتوا » ؟ وأى صعوبة فى أن ينطق كلمة « عباد » فى قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » كما قرأها ابن كثير وابن عامر ونافع وغيرهم : « عِنْد الرحمن » ، أو كما قرأها أبىّ وسعيد بن جبير : « عَبْد الرحمن » ، (بفتح العين وسكون الباء) أو كما قرأها ابن عباس : « عُبَّاد الرحمن » (بضم العين وتشديد الباء) ؟ وهل تظهر الحكمة من تعدد القراءات فى مثل قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » ، حينما قرئت « منه » تارة : « مِنَّةً » (بكسر الميم وتشديد النون والنصب) وتارة : « مَنُّه » (بفتح الميم وضم النون المشددة والاضافه) ، وتارة : « مِنَّة » (بكسر الميم وتشديد النون والرفع) » ؟.

فاذا كان مثل هذه القراءات يدخل فى باب المقبول مع غياب حكمة التخفيف فيها ، فلماذا نستبعد قراءات أخرى تبدو حكمة التخفيف واضحة منها لمجرد مخالفتها لرسم المصحف ؟ والأمثلة كثيرة على القراءات التى تدخل فى باب العادة الكلامية أو الخاصة اللهجية — مما يقبله اللغوى دون تردد — ويستبعده القارىء لمخالفته رسم المصحف ، مثل :

١ — (وما هو على الغيب « بضنين ») ، التى قرئت : « بظنين ». وكلنا يلاحظ التداخل بين صوتى الضاد والظاء حتى فى لغة المعاصرين . ورسم المصحف لا يسمح بالتبادل بين الضاد والظاء .

٢ — قوله تعالى : (وإذا السماء « كشطت ») ، وقوله (فأما اليتيم فلا « تقهر ») فقد قرأهما ابن مسعود على خلاف سائر القراء حين أبدل الكاف قافا فى الأولى فصارت : « قشطت » ، وأبدل القاف كافا فى الثانية فصارت « تكهر » . والصلة الصوتية بين القاف والكاف أوضح من أن تحتاج الى تعليق ، ورسم المصحف لا يسمح بالتبادل بين القاف والكاف .

٣ — قراءة ابن مسعود : « عتى حين » فى : « حتى حين » ، وهى خاصة لهجية معروفة منقولة عن هذيل •

٤ — ومثل هذا يقال عن قراءة : « إنا أنطيناك الكوثر » بدلا من : « أعطيناك الكوثر » ، وقد قرأ بها كل من الحسن وطلحة وابن محيصن وأم سلمة •

بل إننى أرى أن شرط موافقة القراءة لأحد المصاحف العثمانية قد فتح بابا دخل منه بعض القراء واللغويين الذين غلبوا جانب الرسم على جانب الرواية ، فسمحوا بالقراءة بما يوافق الرسم دون التحقق من صحة الرواية • وهذا باب خطير دخل منه كثير من الطاعنين فى القراءات حين ردوا كثيرا مما روى منها الى الاجتهاد فى النطق بما هو مرسوم • ولهذا كان حمزة بن حسن الأصفهانى فى كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » حريصا على أن يوضح ان احتمال الهجاء لا يكفى بل لابد أن يقرأ بهما لتصيرا قراءتين • أما اذا احتمل الهجاء لفظين ولم يقرأ بهما فلا تصيران قراءتين • وضرب الأصفهانى أمثلة لقراءات وافقت رسم المصحف ولم تصح الرواية فيها فعدت من التصحيف ، منها القراءات المنسوبة الى حماد الراوية ، قال الأصفهانى : « وكان حماد الراوية يقرأ القرآن دون رواية فكان يقع فى التصحيف » ، ومما صحفه ، « بل الذين كفروا فى غرة (بكسر الغين) وشقاق » ، بدلا من « فى عزة وشقاق » : وكذلك : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يعنيه » ، بدلا من « شأن يغنيه » •• وغير ذلك •

أما شرط « موافقة العربية ولو بوجه » فلا يرى اللغوى ضرورة له ، لأنه أمر متحقق لا محالة حين يتحقق شرط الرواية ، ولهذا يقول ابن الجزرى : « وقولنا فى الضابط : (ولو بوجه) نريد به وجها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا ، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله اذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة

بالاسناد الصحيح ... » . وحين أراد ابن الجزرى أن يمثل لما نقله الثقة ولا وجه له فى العربية لم يجد ما يمثل به الا ما كان من قبيل السهو والخطأ ، ومع ذلك عقب بقوله : وهو قليل جدا بل لا يكاد يوجد » (١) .

ومن الغريب أن نجد من بين المشتغلين بالقراءات من المعاصرين من يحاول اسقاط ماعدا القراءات السبع من الكتب ، ويرفض اثباتها أو الاشارة اليها لأى غرض من الأغراض . فأقصى ما يمكن أن يقوله قائل : انه لا تصح الصلاة بغير المتواتر ، لأنه ليس بقرآن . ولكن اذا لم يكن قرآنا ، أليس من وجهة النظر اللغوية البحتة كلاما عربيا فصيحا ؟ واذا كان يحظر التعبد به أو قراءته فى الصلاة ، أليس هناك مجالات أخرى لروايته والاستشهاد به ؟ يقول القسطلانى (٢) : « ان من قرأ بالشواذ غير معتقد أنها قرآن ولا يوهم أحدا ذلك ، بل لما فيها من الأحكام الشرعية عند من يحتج بها ، أو الأحكام الأدبية **فلا كلام فى جواز قراءتها** » . وبهذا ينبغى أن تدخل القراءات بجميع درجاتها ومستوياتها فى الدرس الأدبى واللغوى دون حرج .

نظرة اللغويين الى القراءة :

تختلف نظرة اللغويين الى القراءة باختلاف الغاية من الاستشهاد بها . فان كانت الغاية اثبات وجود اللفظ فى اللغة ، أو ضبط نطقه ، أو ذكر معناه ، أو غير ذلك من النتائج الجزئية التى لا تعمم حكما ، ولا تبنى قاعدة — اذا كانت الغاية كذلك فلا يهم كثرة النماذج اللغوية الموافقة لهذه القراءة أو قلتها ، كما لا يهم أن تكون القراءة هى النموذج الوحيد المنقول الينا . وقد قبل اللغويون روايات الآحاد بالنسبة لجميع الشواهد اللغوية فى مثل هذه الحالة .

---

(١) النشر ١/١٠ ، ١٦ .
(٢) لطائف الاشارات ص ٧٣ .

أما اذا كانت الغاية من الاستشهاد وضـــع قاعدة ، أى استنباط حكم أن تقنين نمط فإن اللغوى حينئذ يضـــع القراءة الى جانب غيرها من النصوص ، ويوازن بينها ، ويبنى القاعدة على الكثير الشائع ، سواء كان مقروءا به ، أو غير مقروء ، وسواء كانت القراءة متواترة أو غير متواترة • والقراءة حينئذ لا تتميز بوضع خاص ، ولا تنفرد بنظرة معينة بالنسبة لسائر المصادر اللغوية • وكيف تتميز والنص القرآنى نفسه لم يعط أى ميزة فى مجال التقعيد على غيره من النصوص ؟

ألم يتوقف اللغويون عند بعض الآيات القرآنيـــة فحفظوها ولم يقيسوا عليها لأنها لم تأت طبقا للنموذج الشائع فى لغة العرب ؟

أينا يسمح بأن يقيس المتعلم على الآية القرآنية « إنّ (بنون مشددة) هذان لساحران » فيرفع الطرفين بعد « إن » ؟ (الآية ٦٣ طه) وهى قراءة نافع وابن عامر وحمزة وعاصم والكسائى من القراء السبعة • ومثل هذا يقال عن قراءة معظم السبعة « بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » (النساء ١٦٢) •

فالقراءة اذن فى مجال التقنين والتقعيد لا تعزل عن بقية المصـــادر اللغوية وهى القـــرآن الكريم والحـــديث النبوى الشريف والشـــعر الجاهلى والاسلامى ومأثور النثر من حكم وأمثال وخطب ••• وهى توضع مع غيرها فى سلة واحـــدة ويصـــنف الجميع ويحلل ثم توضـــع القاعدة على ما تثبت كثرته ويتضح شيوعه واطراده ، لأنه هو الذى يمثل اللغة المشتركة أو القاعدة التى يجب محاكاتها والالتزام بها •

ومعنى هذا أن معيار اللغوى ومنهجه يختلف عن معيار القارىء ومنهجه ، وأن أى محاولة لفرض منهج القراءة على اللغويين سيعنى فرض منهج علم على علم آخر ، كما سيظهر اللغوى بمظهر المضطرب أو المتناقض فى أقواله وأفعاله •

وعلى هذا فحين يقول اللغويون عن القراءات :

١ — « والقراء لم يطالبوا بأن يحملوا القراءة على ما يجوز فى كلام العرب بل ان قراءتهم مردودة الى الرواية » (رسالة الملائكة للمعرى) .

٢ — « الرواية تصلها الى رسول الله ، والله تعالى يقول : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) وهذا حكم عام فى المعانى والألفاظ » (المحتسب لابن جنى) .

٣ — « والسلامة عند أهل الدين اذا صحت القراءتان عن الجماعة ألا يقال احداهما أجود من الأخرى لأنهما جميعا عن النبى ﷺ فيأثم من قال ذلك » (إعراب القرآن للنحاس) .

فليس معنى هذا أنهم لابد أن يقعدوا عليها بصورة مطلقة ، وأن يخالفوا أمثلتهم الكثيرة ليبنوا على ما كان منها قليلا . كما أنه ليس معنى رفضهم التقعيد على بعض القراءات أنهم يرفضون قبول القراءات ككل .

وبهذا يمكننا أن نفهم وجهة نظر اللغويين القدماء الذين استبعدوا من مجال الاستشهاد قراءات سبعية مثل :

١ — قراءة ابن عامر : وكذلك زين (بضم الزاى) لكثير من المشركين قتل (بضم اللام) أولادهم (بفتح الدال) شركائهم » بالفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول .

٢ — قراءة حمزة : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بالجر على عطف الظاهر على الضمير المتصل دون اعادة حرف الجر . وقد وضح أبو على الفارسى ذلك قائلا : « وهذا ضعيف فى القياس وقليل فى الاستعمال ، وما كان كذلك فترك الأخذ به أحسن » .

٣ — قراءة نافع : « وجعلنا لكم فيها معائش » بابدال ياء مفعلة همزة فى الجمع وهى ليست زائدة • وقد قال المازنى تعليقا على هذه القراءة : « أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدرى ما العربية » ، وقال الزجاج : « ولا أعلم لها وجها الا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغى التعويل على هذه القراءة » •

وفى نفس الوقت قبلوا فى الاستشهاد قراءات غير سبعية مثل :

(أ) قراءة الحسن : اهبطوا مصر (بمنع مصر من الصرف) •

(ب) قراءة الحسن : ولا خوف (بفتحة واحدة) عليهم ولا هم يحزنون •

(حـ) قراءة الأعمش : وإن منها لما يهبط (بضم الباء) من خشية الله •

فالنوع الأول وان حقق شروط القراء لم يحقق شروط اللغويين ، والنوع الثانى وان لم يحقق شروط القراء فقد حقق شروط اللغويين •

مناقشة اللغويين المعاصرين :

أدى عدم تفرقة كثير من اللغويين المعاصرين بين الاستشهاد بالقراءة فى مجال اللغة والاستشهاد بها فى مجال النحو ، وعدم التزام كثير من النحاة بالاستشهاد بالقراءة فى مجال النحو رغم تصريحاتهم الكثيرة بأن القراءة سنة ، وأن الرواية تصلها الى الرسول — أدى هذا وذاك الى التلبيس على كثير من الباحثين وايقاعهم فى الحيرة والاضطراب حين أرادوا التوفيق بين تصريحات اللغويين ومواقف النحاة :

(أ) فالدكتور عبد الفتاح شلبى [1] يرى أن موقف قدامى النحاة من القراءات كان موقف مهادنة لأن مدرسة الإقراء ومدرسة النحو

---

(١) رسالته للدكتوراه المعنونة « أبو على الفارسى » — غير مرقمة الصفحات •

نشأتا متصلتين ، ثم حينما أخذتا فى الانفصال تميزتا حتى بلغ من انفراج الشـقة بينهما أن عرض النحاة المتأخرون بمشايخ القراء وضعفهم فى العربية .

ونحن لا نستطيع أن نسلم بهذا الرأى بعد أن وجدنا من النحـاة الأول من كان يلحن القراء ويتعرض لهم بالنقد والتخطئة .

١ — فقد حكى البغدادى فى خزانته أن النحاة فى عصر أبى عمرو ابن العلاء أنكروا على القراء قراءتهم « وما أنتم بمصرخى » بكسر الياء ، ففزع أحـدهم الى أبى عمرو بن العلاء قائلا له : ان أصحاب النحـو يلحنوننا فيها ، فقال له : هى جائزة أيضا لا تبال [1] .

وممن طعن فى هذه القراءة من قدامى النحاة الفراء الذى وصفها بأنهـا من وهم القراء اذ ظنوا أن الباء فى « بمصرخى » خافضة للفظ كله ، مع أن الياء للمتكلم [2] . كذلك طعن فيها أبو عبيدة وقال : « نراهم قد غلطوا ظنا أن الباء تكسر لمـا بعدها » . وطعن فيها أيضا أبو حاتم والأخفش والزجاج وغيرهم [3] .

٢ — قرأ نافع وابن عامر : « أتحاجونى » بنون خفيفة ، كما قرأ نافع : « فبم تبشرون » . وقد خطأ أبو عمرو بن العلاء القراءتين محتجا بأنه لا يقال : « أنتم تقوموا » بحذف نون الاعراب [4] كمـا خطأها

---

(١) خزانة الأدب ٢٥٩/٢ .

(٢) معانى القرآن للفراء ، ورقة ٨٩ ، والبحر المحيط ٤١٩/٥ .

(٣) البحر المحيط ٤١٩/٥ .

(٤) اعراب القرآن للنحاس ، ورقة ٦٠ ، ٩٧ . وجمهور النحاة على جواز الجمع بين النونين بدون ادغام وبادغام وجواز الاكتفاء بنون واحدة . وقد اختلف النحاة فى المحذوف منهما .

(انظر اعراب القرآن للنحاس ورقة ٩٧ ، واوضح المسالك ٧٩/١ الهامش رقم ١) .

أبو حاتم وقال : « هذا يكون فى الشعر اضطرارا » (١) .

٣ — قرأ الحسن وزيد بن على وعيسى بن عمر وسعيد بن جبير ومحمد بن مروان السدى : « هؤلاء بناتى هن أطهرَ لكم » (٢) بنصب أطهر . وقد قال أبو عمرو بن العلاء فى شأن هذه القراءة : « من قرأ : هن أطهر لكم فقد تربع فى لحنه » (٣) . وقال الخليل : هذا لا يجوز . وقال سيبويه : احتبى ابن جؤية فى اللحن فى قوله : « هن أطهر لكم » (٤) .

٤ — قرأ حمزة : « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا » ، وقد قال النحاس عن هذه القراءة : وما علمت أحدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يمنع أن تقرأ هذه القراءة (٥) .

٥ — قرأ الحسن وأبو جعفر : « أن نُتخذ من دونك من أولياء » بضم نون نتخذ ، وقد قال عن هذه القراءة أبو عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر : لا يجوز نتخذ ، اذ لو كانت كذلك لحذفت « من » الثانية فقلت : أن نتخذ من دونك أولياء (٦) .

٦ — قرأ بعضهم : وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم » ففصل بالمفعول بين المضاف والمضاف اليه . وقد قال أبو حيان عن هذه القراءة : « جمهور البصريين يمنعونها متقدموهم ومتأخروهم » (٧) .

---

(١) البحر المحيط ٤٥٨/٥ . (٢) البحر المحيط ٢٤٧/٥ .

(٣) البديع لابن خالويه ص ٦٠ ، ومجالس ثعلب ٢٤٧/٢ ، والبحر المحيط ٢٤٧/٥ .

(٤) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٨٧ ، ومجالس ثعلب ٤٢٧/٢ . ووجهة نظر المنكرين ان « هن » فى الآية لا تصلح أن تكون ضمير فصل لأن ما بعدها فضلة .

(٥) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٢ ، ومعانى القرآن للفراء ورقة ١٢٩ .

(٦) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٣ .

(٧) البحر المحيط ٢٢٩/٤ .

(ب) والدكتور مهدى المخزومى يقسم النحاة الى فريقين : فالبصريون يلجئون الى التأويل عند مواجهتهم قراءة من القراءات السبع لا سبيل الى انكارها ، ويغلطون ما عداها • أما الكوفيون فلهم موقف آخر يغاير البصريين كل المغايرة • فقد قبلوا القراءات واحتجوا بها وعقدوا على ما جاء فيها كثيرا من أصولهم وأحكامهم • وهم اذا رجحوا القراءات التى يجتمع القراء عليها فلا يرفضون غيرها ، ولا يغلطونها ، لأنها صواب عندهم أيضا • كذلك يعد الدكتور المخزومى القراءات المختلفة — حتى الشاذ منها — من مصادر دراسات الفراء ، ويقول انه لاينى يستشهد بها ويصوبها ويحتج بها (١) •

(جـ) والأستاذ ابراهيم مصطفى يقول : « كان فى حلب ••• مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (سنة ٣٧٠) وأبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ • ولهذه المدرسة أسلوب فى البحث يتميز بعنايتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ما سمى منها شاذا » (٢) وقريب منه ما يقوله الدكتور عبد الفتاح شلبى عن ابن جنى من « أنه كان أسلم موقفا من شيخه الفارسى ومن المبرد بتأليفه كتاب المحتسب » (٣) •

ولا يسعنا كذلك أن نسلم بأى من هذه الآراء ، فقد اتضح لنا بعد طول البحث والاستقصاء أن موقف النحويين من القراءات موقف موحد لا يختلف فيه كوفى عن بصرى ، ولا يشذ فيه ابن خالويه أو ابن جنى أو غيرهما عنهم • فهم جميعا كانوا ينقدون القراءة ويقيسونها بمقاييسهم النحوية وهم جميعا كانوا لا يتورعون عن تخطئة القراءة سواء كانت سبعية أو عشرية أو شاذة أو غيرها ، وهم جميعا كانوا لا يقبلون القراءة الا اذا وجدوا لها من كلام العرب نظيرا ، وهم جميعا كانوا

(١) مدرسة الكوفة صفحات ١٦٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ •
(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ •
(٣) أبو على الفارسى •

لا يتحرجون عن تخطئة القراءة أو تلحينها اذا عجزوا عن فهمها أو توجيهها ، لا فرق فى ذلك بين من اشتغل بالقراءة الى جانب النحو أو تخصص للدرس النحوى .

ونعرض من بين القراءات التى خطأها ابن خالويه وابن جنى الأمثلة الآتية :

١ — قرأ بعضهم : « ولكل جعلنا موال » وقد قال ابن خالويه عن هذه القراءة : وانما يجوز مثل هذا فى الشعر كقول الشاعر :

فلو أن واش باليمامة (١) .

٢ — ويقول ابن خالويه فى قراءة : « ساحران تظاهرا » بالتشديد : تشديده لحن لأنه فعل ماض وانما تشدد فى المضارع (٢) .

٣ — ويقول كذلك ابن خالويه فى قراءة : « وله أخ » بالتشديد : قال ابن دريد : التشديد لغة وقال ابن خالويه : وأهل العربية يرونه لحنا .

وغير ذلك (٣) .

٤ — قرأ الحسن : « وما تنزلت به الشياطون » ، وقد قال عنها ابن جنى « الشياطون غلط » (٤) ، على الرغم مما هو ثابت أنها قد سمعت من بعض العرب فقد حكى أبو العلاء المعرى فى كتابه (عبث الوليد) عن بعض العلماء أنه سمع أعرابيا يقول : « هذه بساتون بنى فلان » (٥) .

---

(١) البديع ص ٢٥ .
(٢) المرجع ص ١١٣ .
(٣) المرجع ص ٢٥ وانظر كذلك الحجة لابن خالويه ورقة ٤٦ والبديع له ص ٣٥ .
(٤) المحتسب ورقة ١١٨ .
(٥) عبث الوليد ص ٢٢٦ .

٥ — قرأ يحيى بن عامر : « وان أدرىَ لعـله » ، « وان أدرىَ أقريب » ، وقد قال ابن جنى : « أنكر ابن مجاهد تحريك هاتين الياءين ، وظاهر الأمر لعمرى كذلك » (١) .

٦ — قرأ ابن محيصن : « ثم اطّره » وقد قال ابن جنى : « هـذه لغـة مرذولة » (٢) .

أما القراءات التى خطأها الكوفيون فقد سبقت نماذج منها ونضيف ما يأتى الى ما سبق :

١ — قرأ بعضهم : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ » وقد قال عنها الفراء : « وفيه قبح » (٣) .

٢ — قال الفراء فى قراءة الحسن : « وما تنزلت به الشياطون » : « غلط الشيخ » (٤) .

٣ — استقبح الكسائى قراءة : « بيت طائفة » بادغام التـاء فى الطاء ، مع أنها قراءة أبى عمرو والكوفيين (٥) .

نعم ان الكوفيين كانوا أقل تخطئة للقراءات ، وأكثر قبولا لها من البصريين ، ولكن ذلك لا يرجـع — فى نظرنا — الى احترامهم للقراءات وحسن تقبلهم لها ، وانما يرجع الى ما عرفوا به من توسع فى أصول اللغة ، وقياس على القليل ، واعتداد بالمثال الواحد (٦) ، فأمكنهم بذلك توجيه كثير من القراءات وتخريجها على مقتضى أصولهم . ومن هنا قلت تخطئتهم لهـا . واذا كان الدكتور مهدى المخزومى قد ساق أمثلة قبل فيها الكوفيون

---

(١) المحتسب ورقة ١٠٣ .
(٢) المرجع ورقة ٢٢ .
(٣) معانى القرآن للفراء ورقة ٣٦ .
(٤) البحر المحيط ٤٦/٧ .
(٥) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٤٣ . وانظر امثلة اخرى فى معانى القرآن للفراء ورقة ١١٠ ، ١٧٧ ، ومعانى القرآن للنحاس ورقة ١٧٨ .
(٦) انظر : من اسرار اللغة ص ١١ .

بعض القراءات وصححوها [١] ، فإن هذا لا يكفى لاثبات دعواه • وقد ذكرنا أمثلة مضادة تكفى لهدم تلك الفكرة ، ولا نزعم أنها كل ما أنكره الكوفيون من قراءات •

واذا كان الكوفيون — كما يقول الدكتور مهدى المخزومى — يستشهدون بالقراءات فلماذا يحاولون الاستدلال على صحتها بالتماس وجه لها فى العربية تخرج عليه ؟ ولماذا يخطئون ما يعجزون عن تخريجه ؟ وأنت ترى ذلك واضحا فى قول امام من أئمتهم وهو الفراء : « وقرأ الحسن : (إلا من هو صال الجحيم) فإن كان أراد واحدا فليس بجائز ، لأنك لا تقول هذا قاض" ولا رام" (بالضم) ، وان يكن عرف فيها لغة مقلوبة مثل عاث وعثا فهو صواب » [٢] فعلام هذا الترديد ؟ ولماذا يتوقف تصحيح القراءة على سماع نظير لها من لغة العرب ؟ لقد اشتهر الكوفيون بأنهم يقيسون على المثال الواحد ، فلماذا لا يقيسون على القراءة ولو لم يكن لها نظير فيما نقلوه من لغة العرب ، ويعتبرونها هى المثال الواحد ؟ ان ترك هذا يعنى — فى نظرنا — أن القراءة عندهم لا ترقى الى مرتبة الشاهد فى الاستدلال ، ويعنى كذلك أن القراءة لا يوثق فيها بمفردها ، ولا يصح الاستشهاد بها الا مع سند من كلام العرب وهذا ينفى فكرة استشهادهم بالقراءات واحترامهم لها • وليس معنى هذا أنهم كانوا يرفضون كل لفظ يرد فى القراءات وانما معناه أنهم كانوا لا يكتفون بالقراءات حين يرد فيها لفظ من الألفاظ بل يدعمونها بنص آخر شعرى أو نثرى حتى يمكن أن يؤخذ بها •

ونحن لا نعيب على النحاة عدم استشهادهم المطلق بالقراءات ورفضهم بناء اللغة الأدبية المشتركة عليها الا ما وافق منها الأصول العامة وجرى على النمط العربى الفصيح ، فذلك عين الصواب كما سبق

---

(١) مدرسة الكوفة ص ٢٨٤ — ٣٩٥ •
(٢) معانى القرآن للفراء ورقة ١٦٠ •

أن بينا ، وانما نعيب عليهم وصفهم بعض القراءات بأنه قبيح أو ردىء أو وهم أو غلط [١] . وقد كان فى امكانهم أن يصفوها بأنها جاءت على لهجة محلية أو أقل فصاحة فلا تبنى عليها قاعدة ، دون أن يطعنوا على القارىء أو يشككوا فى صحة القراءة . ونحن لا ندعى — ولا غيرنا — أن القراءات كلها على مستوى واحد من الفصاحة [٢] ، فما هى فى معظم حالاتها إلا تمثيل للهجات ، واللهجات تتفاوت فيما بينها فى درجات الفصاحة . ولهـذا يقول أبو نصر القشيرى : « فإننا لا ندعى أن كل القراءات على أرفع الدرجات فى الفصاحة » [٣] .

وقـد كان الطبرى أكثر توفيقا فى تعليقه على بعض القراءات حين كان يقول : « وأعجب القراءتين الىّ كذا » ، وكذلك كان الفـراء فى تعليقات له مثل : « وانه لأحب الوجهين الىّ » ، ومثل : « ولست أشتهى ذلك » .

٣ — الحـديث النبـوى

المشهور بين الباحثين أن قدامى اللغويين والنحاة كانوا يرفضون الاستشهاد بالحديث فى اللغة ، فلا يستندون اليه فى إثبات ألفاظها أو

---

(١) من سوء تعبيرهم قول المبرد عن قراءة لأبى عمرو : « هى لحن لا يجوز فى كلام ولا شعر » ، وقوله عن قراءة اخرى : « لو صليت خلف امام يقرأ بها لاخذت نعلى ومضيت » ، وقول الزمخشرى عن قراءة لابن عامر انها « شىء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا فكيف به فى الكلام المنثور فكيف به فى القرآن » .

(٢) لم اجد احدا من الباحثين قد وضع القرآن وقراءاته فى مستوى واحد من الفصاحة الا الأستاذ عباس حسن الذى قال : « بعض القراء قرا ما ودعك ، أفيكون هذا شذوذا فى الاستعمال مع قراءة القرآن به ، وكيف يتفق القول ان يكون القرآن اسمى لغة عربية بيانية مع اشتماله على الشاذ » ؟ (مجلة رسالة الاسلام العدد ٣ السنة ١٠ ص ٢٨٤) . وهو هنا يخلط بين حقيقتين متغايرتين ويثبت لاحداهما ما هو للأخرى .

(٣) القراءات واللهجات ص ١٣١ .

وضع قواعدها ، يقول الشيخ أحمد الاسكندرى ، « مضت ثمانية قرون والعلماء من أول أبى الأسود الدؤلى الى ابن مالك لا يحتجون بلفظ الحديث فى اللغة الا الأحاديث المتواترة » [(١)] . ويقول أبو حيان معترضا على ابن مالك لاستشهاده بالحديث : « على أن الواضعين الأولين لعلم النحو والمستقرئين للأحكام من لسان العرب ، والمستنبطين المقاييس كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، وكمعاذ والكسائى والفراء وعلى بن المبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك » [(٢)] .

وقد حاول المتأخرون أن يعللوا هذا الرفض المزعوم وانتهوا الى أنه يرجع لسببين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى والثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع [(٣)] .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أن هؤلاء القدماء الذين نسب إليهم رفضهم الاستشهاد بالحديث لم يثيروا هذه المسألة ، ولم يناقشوا مبدأ الاحتجاج بالحديث ، وبالتالى لم يصرحوا برفض الاستشهاد به . وإنما هو استنتاج من المتأخرين الذين لاحظوا — خطأ — أن القدامى لم يستشهدوا بالحديث ، فبنوا عليه أنهم يرفضون الاستشهاد به ، ثم حاولوا تعليل ذلك .

وهناك أسباب كثيرة تحمل على الشك فى صحة ما نسب الى الأقدمين من رفضهم الاستشهاد بالحديث ، بل هناك من الدلائل ما يكاد يقطع — إن لم يكن يقطع فعلا — أنهم كانوا يستشهدون به ويبنون عليه قواعدهم ، سواء منهم من اشتغل باللغة أو النحو أو بهما معا .

---

(١) مجلة المجمع ١/٢٩٩ .
(٢) التذييل والتكميل ٥/١٦٨ .
(٣) خزانة الأدب ١/٥ ، ٦ ، والتذييل والتكميل ٥/١٦٨ ، ١٦٩ .

ولهذا لا يسع الباحث المدقق أن يسلم بما ادعاه المتأخرون وسنده فى ذلك ما يأتى :

١ — أن الأحاديث أصح سندا من كثير مما ينقل من أشعار العرب • ولهذا قال صاحب المصباح المنير بعد أن استشهد بحديث « فأثنوا عليه شرا » — على صحة اطلاق الثناء على الذكر بشر — قال : « قد نقل هذا العدل الضابط عن العدل الضابط عن العرب الفصحاء عن أفصح العرب ، فكان أوثق من نقل أهل اللغة ، فإنهم يكتفون بالنقل عن واحد ولا يعرف حاله » (١) •

٢ — أن من المحدثين من ذهب الى « أنه لا تجوز الرواية بالمعنى إلا لمن أحاط بجميع دقائق اللغة ، وكانت جميع المحسنات الفائقة بأقسامها على ذكر منه فيراعيها فى نظم كلامه • وإلا فلا يجوز له روايته بالمعنى » (٢) • على أن المجوزين للرواية بالمعنى معترفون بأن الرواية باللفظ هى الأولى ، ولم يجيزوا النقل بالمعنى إلا فيما لم يدون فى الكتب ، وفى حالة الضرورة فقط (٣) • وقد ثبت أن كثيرا من الرواة فى الصدر الأول كانت لهم كتب يرجعون إليها عند الرواية • ولا شك أن كتابة الحديث تساعد على روايته بلفظه وحفظه عن ظهر قلب مما يبعده عن أن يدخله غلط أو تصحيف (٤) •

٣ — أن كثيرا من الأحاديث دون فى الصدر الأول قبل فساد اللغة على أيدى رجال يحتج بأقوالهم فى العربية • فالتبديل على فرض ثبوته إنما كان ممن يسوغ الاحتجاج بكلامه • فغايته تبديل لفظ يصح الاحتجاج به بلفظ كذلك (٥) •

---

(١) المصباح المنير مادة « ثنى » • وانظر مجلة المجمع ٣/٢٠١ •
(٢) ابن علان فى « شرح الاقتراح » ص ٩٤ •
(٣) مجلة المجمع اللغوى ٣/٢٠٤ •
(٤) تعليق الفرائد للدمامينى — باب الفاعل (غير مرقم الصفحات) •
(٥) ابن علان ص ٩٤ ، تعليق الفرائد — باب الفاعل •

٤ — أن هناك أحاديث عرف اعتناء ناقلها بلفظها لمقصود خاص ، كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحته ﷺ ككتابه لهمدان ، وكتابه لوائل ابن حجر ، والأمثال النبوية (١) .

٥ — واذا كان قد وقع فى رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف فإن هذا لا يقتضى ترك الاحتجاج به جملة ، وإنما غايته ترك الاحتجاج بهذه الأحاديث فقط ، وحمله على قلة ضبط أحد الرواة فى هذه الألفاظ خاصة (٢) ، وقد وقع فى الأشعار غلط وتصحيف ، ومع ذلك فهى حجة من غير خلاف . واذا كان العسكرى قد ألف كتابا فى تصحيف رواة الحديث ، فقد ألف كتاباً فيما وقع من أصحاب اللغة والشعر من التصحيف (٣) .

٦ — لو صح أن القدماء لم يستشهدوا بالحديث فليس معناه أنهم كانوا لا يجيزون الاستشهاد به ، اذ لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به » (٤) ، فقد تكون العلة لتركه « عدم تعاطيهم إياه » . وقد ثبت فعلا أن أوائل النحاة من شيوخ سيبويه حتى زمن تدوين صحيح البخارى لم يكثروا من الاستشهاد بالحديث لأنه لم يكن مدونا فى زمانهم (٥) .

٧ — على أنى وجدت من قدامى اللغويين من استشهد بالحديث فى مسائل اللغة كأبى عمرو بن العلاء (٦) والخليل (٧) والكسائى (٨)

---

(١) خزانة الأدب ٦/١ عن الشاطبى .
(٢) مجلة المجمع اللغوى ٢٠٧/٣ .
(٣) المرجع والصفحة .
(٤) خزانة الأدب ٥/١ .
(٥) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٦ ، وانظر خديجة الحديثى ص ٤١٢ .
(٦) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٣٨ .
(٧) العين ٧٠/١ — ٧٢ . وغير ذلك كثير .
(٨) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٧٢ .

والفراء [١] والأصمعى [٢] وأبى عبيـد [٣] وابن الأعرابـى [٤] وابن السكيت [٥] وأبى حاتم [٦] وابن قتيبة [٧] والمبرد [٨] وابن دريد [٩] وأبى جعفر النحاس [١٠] وابن خالويه [١١] والأزهرى [١٢] والفارابى [١٣] والصاحب بن عباد [١٤] وابن فارس [١٥] والجوهرى [١٦] وابن سيده [١٧] وابن منظور والفيروز آبادى وغيرهم . ولا يختلف موقف النحاة عن هذا ، إذ لا يعقل أن يستشهد الخليل مثلا بالحديث فى اللغة ، ثم لا يستشهد به

---

(١) معانى القرآن للفراء ورقة ٤٠ ، ٨٥ .

(٢) الأضداد للأصمعى ص ١٢ ، ٢٣ ، ٢٧ .

(٣) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٧٣ ، والغريب المصـنف لأبى عبيد ص ١١٨ ، ٤٧٨ .

(٤) اعراب القرآن للنحاس ورقة ١٦٧ .

(٥) الأضداد لابن السكيت ص ١٦٧ ، ١٧٢ ، والقلب والابدال له ٣١ .

(٦) الأضداد لأبى حاتم ص ٣٦ ، ١٣٥ ، والمخصص لابن سيده ص ٤٠ .

(٧) المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص ٨ .

(٨) اعراب القرآن للنحاس ورقة ٢٠٠ .

(٩) الجمهرة ١٦/١ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ... الخ الخ .

(١٠) شرح المعلقات للنحاس ورقة ٧٢ ، ومعانى القرآن له ورقة ٤٤ .

(١١) كتاب ليس لابن خالويه ص ٥ ، ٦ ، ١١ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ... الخ الخ .

(١٢) ٣٠/١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٣ ... الخ الخ .

(١٣) انظر ديوان الأدب ٧٣/١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ٢٠١ ، ٢١١ .

(١٤) المحيط للصاحب بن عباد ٩/٣ ، ١٧ ، ٢١ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٥١ ، ١٧٨ ... الخ الخ .

(١٥) مقاييس اللغة ١٤/١ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ... الخ الخ .

(١٦) الصحاح ٣٥/١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٦٦ الخ الخ .

(١٧) المخصص ١٨/١ ، ٢٢ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ١٠٨ ، ١٦٠ ... الخ الخ .

فى النحو ، وهما صنوان يخرجان من أصل واحد ، وممن استشهد بالحديث من النحـــاة : أبو عمرو بن العـــلاء والخليل وسيبويه (١) والفراء (٢) والكوفيون (٣) والمبرد (٤) والزجاجى والزمخشرى (٥) وابن خروف (٦) وابن الخبـــاز (٧) وابن مالك (٨) وابن عقيل (٩) وابن الدمامينى (١٠) والأشمونى (١١) والسيوطى وغيرهم وغيرهم (١٢) • وفاقهم فى ذلك كل ابن مالك وبلغ الذروة فى كتابه « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » حيث عقده للأحاديث التى يشكل إعرابها ، وذكر لها وجوها يستبين بها أنها من قبيل العربى الصحيح • بل ان ابن الضائع (١٣) وأبا حيان (١٤) وهما على رأس من رفض الاستشهاد بالحديث لم تخل كتبهما من

---

(١) وقد استشهد بثلاثة عشر حديثا فى الكتاب (انظرها فى موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث لخديجة الحديثى ص ٥٣ وما بعدها وص ٦٧) . وانظر خديجة الحديثى ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٠٣/٤ ، والانصاف ٣٠٠/٢ .

(٣) الانصاف ٣٠٠/٢ ، ٣٠٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤) احتج المبرد فى المقتضب بالحديث فى ثلاثة عشر موضعا (انظـــر خديجة الحديثى ص ٩٧) .

(٥) شرح الجمل لابن عصفور ورقة ٦٥ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٣١/٣ ، ٣١ ، ٦/٤ ، ١٥٣ ، وخديجة الحديثى ص ١١١ .

(٦) تنقيح الألباب فى شرح غوامض الكتاب لابن خروف ص ٣٨ .

(٧) شرح الفية ابن معطى لابن الخباز ورقة ٣٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ١٠٠ .

(٨) انظر كتابه شواهد التوضيح ، فى أماكن كثيرة .

(٩) شرحه على الألفية ٥٨/١ ، ٢٩٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ .

(١٠) حاشية على المغنى ورقة ٢٢ ، ٢٣ .

(١١) شرح الأشمونى ٨٢/١ ، ٨٥ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٤٠٠ .

(١٢) همع الهوامع ٤٠/١ ، ١٧١ ، ٢٢٣ ، ٢٥/٢ . وانظر استشهادات الزجاج وابن السراج وابن الأنبارى وابن النحاس وابن درستويه وابن خالويه وابى على الفارسى والرمانى وابن جنى ... فى خديجة الحديثى ص ٩٨ وما بعدها .

(١٣) شرح الجمل لابن الضائع (غير مرقم الصفحات) باب الاستثناء ، باب الاختصاص ، باب لولا .

(١٤) التذييل والتكميل فى شرح التسهيل لأبى حيان ٤/١ ، ١٣٩ .

بعض الحديث . وقد فطن الى هذا ابن الطيب الفاسى فقال : « بل رأيت الاستشهاد بالحديث فى كلام أبى حيان نفسه مرات ولا سيما فى مسائل الصرف » (١) • ولكن إحقاقا للحق أقول إن شواهد النحاة من الحديث ليست فى غزارة شواهد اللغويين وكثرتها • فهى قليلة بالنسبة إليها وبخاصة عند قدامى النحاة • وقد رأينا كيف أن سيبويه لم يستشهد إلا بثلاثة عشر حديثا فقط •

٨ — وقد وجدت فى المزهر للسيوطى نصا يؤيد ما ذهبت إليه ، فهو يقول : « قال أبو الحسن الشارى : ومذهبى ومذهب شيخى أبى ذر الخشنى وأبى الحسن بن خروف أن الزبيدى أخل بكتاب العين كثيرا لحذفه شواهد القرآن والحديث وصحيح أشعار العرب منه ••• ولما علم بذلك الامام ابن التيانى عمل كتابه (فتح العين) وأتى فيه بما فى العين من صحيح اللغة ••• دون اخلال بشىء من شواهد القرآن والحديث •• » (٢) •

فهذا صريح فى أن الخليل كان يستشهد بالحديث فى كتابه « العين » • ولم يكن الخليل بدعا من اللغويين ، فما صنعه الخليل صنعه غيره من أئمة اللغة •

٩ — وقد انتهى ابن الطيب الفاسى الى نفس النتيجة التى انتهيت إليها إذ قال : « ذهب الى الاحتجاج بالحديث الشريف جمع من أئمة اللغة منهم ابن مالك وابن هشام والجوهرى وصاحب البديع والحريرى وابن سيده وابن فارس وابن خروف وابن جنى وابن برى والسهيلى •••

---

(١) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٦ •• وقد حصرت الدكتورة خديجة الحديثى لأبى حيان فى كتابيه ارتشاف الضرب ، ومنهج السالك ثمانية وعشرين حديثا انفرد فى الاحتجاج بها ، وبنى عليها حكما جديدا أو معنى جديدا أو استعمالا جديدا (ص ٣٣٩ ، ٣٦٣) •

(٢) المزهر ١/٨٨ •

وغيرهم ممن يطول ذكره . وهو الذى ينبغى التعويل عليه والمصير إليه . على أنا لا نعلم أحدا من علماء العربية خالف فى هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان فى شرح التسهيل ، وأبو الحسن بن الضائع فى شرح الجمل وتابعهما ... السيوطى » [1] .

١٠ — كذلك انتهت الدكتورة خديجة الحديثى الى ما انتهيت إليه وأرخت بداية الاحتجاج بالحديث النبوى بأبى عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه [2] .

وإذن فقد كان المتأخرون مخطئين فيما ادعوه من رفض القدماء الاستشهاد بالحديث ، وكانوا واهمين حينما ظنوا أنهم هم أيضا برفضهم الاستشهاد بالحديث إنما يتأثرون خطاهم وينهجون نهجهم . ونحن نحمل ابن الضائع وأبا حيان تبعة شيوع هذه القضية الخاطئة ، فهما أول من روج لها ونادى بها [3] ، وعنهما أخذها العلماء دون تمحيص أو تحقيق ، ثقة فى حكمهما أو تخففا من البحث وركونا الى الراحة والتماسا لأيسر السبل .

ولعل منشأ تلك الفكرة الخاطئة ما يأتى :

١ — أن القدماء لم ينصوا على الاستشهاد بالحديث واكتفوا بدخوله تحت المعنى العام لكلمة « النصوص الأدبية القديمة » ، ثم حين جاء من تلوهم ودونوا هذه الفكرة كانوا يفهمون ذلك فلم يخصوا الحديث بنص مستقل . فلما جاء ابن الضائع وأبو حيان وغيرهما ، ولم يجدوا نصا مستقلا يعد الحديث من مصادر اللغة ظنوا أن القدماء لم يكونوا

---

(١) شرح كفاية المتحفظ ورقة ١٥ .

(٢) موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ص ٧٨ . وقد جمعت المؤلفة لمن يسمون بنحاة ما قبل الاحتجاج سبعة وثمانين حديثا نبويا ، وتسعة وعشرين حديثا مرويا عن آل البيت والصحابة (ص ١٨٩) .

(٣) المرجع والصفحة ، والتذييل والتكميل ٥/١٦٨ ، ١٦٩ ، وخزانة الأدب ١/٥ .

يستشهدون به وسجلوا هذا الظن على أنه حقيقة واقعة . وجاء من بعدهم فنقلوا عنهم دون تمحيص وتابعوهم من غير بحث .

ويؤيد هذا الافتراض أن السيوطي [١] استنبط من قول بعضهم : « النحو علم يستنبط بالقياس والاستقراء من كتاب الله تعالى وكلام فصحاء العرب » أن اللغويين لم يكونوا يستشهدون بالحديث ، فعقب على ذلك بقوله : « فقصره عليهما ولم يذكر الحديث » .

٢ — أن سيبويه في احتجاجه بالحديث لم يكن يقدم له بما يوضح أنه من الحديث ، فالتبس الحديث بغيره على الباحثين حتى نسب إليه أبو حيان وغيره عدم الاحتجاج بالحديث . وربما كان السبب في إغفال سيبويه للنسبة أنه كان يحتج بالحديث كما يحتج بأي عبارة منثورة من كلام العرب الفصحاء .. ولم يكن إغفاله النسبة الى النبي خارجا عما فعله مع معظم الشواهد الشعرية والنثرية التي لم يهتم بنسبتها الى شخص معين [٢] .

٤ — الشعر

لاقى الشعر اهتماما كبيرا من اللغويين واعتبروه الدعامة الأولى لهم حتى لقد تخصصت كلمة الشاهد فيما بعد وأصبحت مقصورة على الشعر فقط . ولذلك نجد كتب الشواهد لا تحوي غير الشعر ولا تهتم بما عداه .

وقد كان اللغويون يستشهدون بالشعر المجهول قائله إن صدر عن ثقة يعتمد عليه . ولذا اعتبروا الأبيات التي وردت في كتاب سيبويه أصح شواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أن فيها أبياتا عديدة جهل

---

(١) الاقتراح ص ١٨ .
(٢) خديجة الحديثي ص ٧٨ ، ٤١٢ .

قائلوها (١) • وقد كان سيبويه يحرص على إطلاق البيت من النسبة فكان اذا استشهد ببيت لم يذكر ناظمه • وإنما امتنع سيبويه عن تسمية الشعراء « لأنه كره أن يذكر الشـاعر وبعض الشعر يروى لشاعرين ، وبعضه مجهول لا يعرف قائله لأنه قدم العهد به » • وأما الأبيـات المنسوبة فى الكتاب الى قائليها « فالنسبة حادثة بعده ، اعتنى بنسبتها الجرمى • قال الجرمى : نظرت فى كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا • فأما الألف فعرفت أسماء قائليها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائليها » (٢) •

بل إن اللغويين والنحاة قد صرحوا بأن تعدد الروايات فى البيت الواحد لا يسقط حجيتها ، وأن كل رواية — مادامت قد نقلت عن ثقة — يصح الاستشهاد بها . يقول ابن ولاد : « الرواة عن الفرزدق وغيره من الشعراء قد تغير البيت على لغتها وترويه على مذاهبها مما يوافق لغة الشـاعر ويخالفها • ولذلك كثرت الروايات فى البيت الواحد ••• ولغة الرواة من العرب شاهد ، كما أن قول الشاعر شاهد » ، ويقول : « مجىء الروايات فى البيت الواحد يجعل كل رواية حجة اذا رواهـا فصيح ، لأنه يغير البيت الى مافى لغته ، فيجعل ذلك أهل العربيـة حجة » (٣) •

وحديثنا عن الشاهد الشعرى يجرنا الى الحديث عن قضية « الضرورة الشعرية » أو ما يسمى « بضرورة الشعر » حينما يحاول اللغوى أو النحوى أن يستبعد البيت من مجال الاستشهاد • فما حد هذه الضرورة ؟ ومتى يكون الشاعر مضطرا اضطرارا يسقط حجية الاستشهاد ببيته ؟ لقد اختلف النحاة فى ذلك الى فريقين : ففريق يرى — وهو جمهورهم —

---

(١) خزانة الأدب ١/٨ ، ١٧٨ •
(٢) خزانة الأدب ١/٨ ، ٧٨ • وانظر مقال الدكتور رمضان عبد التواب : « أسطورة الأبيات الخمسين » •
(٣) الانتصار لابن ولاد ص ١٩ ، ١٩٣ •

أن الضرورة هى « ما وقع فى الشعر مما لم يقع فى النثر سواء أكان للشاعر عنه مندوحة أم لا » (١) .

ومذهب ابن مالك — وهو الصحيح عن سيبويه — أنها « ما ليس للشاعر مندوحة عنه » (٢) . ويبين أثر هذا الخلاف فيما جاء فى الشعر ووجدت فيه المندوحة ، فالجمهور يقصره على السماع ، وابن مالك يقيس عليه . « ولذلك أجاز وصل ال بالمضارع قلبلا ، ولم يجعله ضرورة استدلالا بقوله :

* ما أنت بالحكم الترضى حكومته *

لتمكنه من أن يقول : « المرضى حكومته » (٣) . وحيث لم يقل ذلك مع الاستطاعة ، ففى ذلك ، اشعار بالاختيار وعدم الاضطرار » (٤) .

وكأنى بأصحاب المذهب الأول قد وسعوا فى مدلول الضرورة ، وأطلقوها دون قيد لتكون سيفا مصلتا ، وسلاحا يشهرونه فى وجه كل بيت يخالف قواعدهم ويعجزون عن تخريجه فيجدون المخلص فى هذا الوصف السهل يلقونه دون نظر أو تفكير . وكأن ذلك لم يكفهم فرموا بعض الأبيات بالضرورة ، لا فرارا من الاخلال بالوزن أو القافية ، بل فرارا من الزحاف ، وهو ما تأباه النظرة الفاحصة المتأنية .

ولهذا نجد أبا العلاء المعرى فى كثير من كتبه — وقد كان ذا نظرة تحررية — يهاجم رأى الجمهور وينصر مذهب الأقلية ، ولا يترك فرصة للذود عنه والانتصار له إلا انتهزها فهو يرى أن الزحاف لا يحمل الشاعر على ارتكاب ضرورة ، فهو كثير فى الشعر ، وبخاصة فى بعض الأوزان .

---

(١) موطئة الفصيح لابن الطيب الفاسى ، ورقة ١٩ ، ٢٠ ، والضرائر للالوسى ص ٦ .

(٢) موطئة الفصيح ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) موطئة الفصيح ورقة ٢٠ .

(٤) خزانة الأدب ١/١٥ .

وهو يرى أن من الأبيات الشعرية ما يختل وزنها ان غيرت ، فهذه هى محل الضرورة ، ومنها مالا يكون تغييرها مخلا بالنظم ، فهى كالنثر لا يصح أن يقال عنها انها ضرورة ولهذا فهو يقول فى رسالة الملائكة : « ينشد قول أبى ذؤيب الهذلى :

تركوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

ولو أنشد هواى لم يكن بالوزن بأس . والاستشهاد بالشعر على نوعين : أحدهما لا مزية فيه للمنظوم على المنثور ، والآخر يكون حكم الموزون فيه غير حكم النثر . فالضرب الأول كبيت أبى ذؤيب الذى مر ، وكقول الآخر .

أنا ابن التارك البكرى بشر عليه الطير ترقبه وقوعا

فخفض « بشر » ونصبه لا فضيلة فيه للوزن ، وكذلك خفض « البكرى » ونصبه ، لأنه قويم فى الحالين . والضرب الآخر هو الذى يكون الوزن إن غير عما استشهد به عليه لحقه إخلال كقوله :

ألا من مبلغ الحرين عنى مغلغلة وخص بها أبيا
يطوّف بى عكب فى معد ويطعن بالصملة فى قفيا

فهذا لا يمكن إلا على لغة من قال قفى » (١) .

ويقول فى موضوع آخر : « وأنشد الفراء قول زهير » :

عليهن فرسان كرام لباسهم سوابيغ زغف لاتخرقها نبلُ

فهذه زيادة بغير ضرورة ، لأنه لو حذف لم يضر بالبيت » (٢) .
ويقول فى بيت الهذلى :

أبيت على معارى فاخرات بهن ملوب كدم العباط

الذى يدعى النحاة أنه ضرورة — يقول أبو العلاء : « ولو قال معار

(١) رسالة الملائكة ص ١٨١ — ١٨٣ .
(٢) رسالة الملائكة ص ٢٠٥ ، ٢١٠ .

فاخرات لم يخل بالبيت » (١) فلن يكون فيه سوى تسكين لام « مفاعلتن » فأين هى الضرورة ؟ وكأنما شعر النحاة بانهيار دعواهم أمام تلك الحجة القوية ، فحاولوا أن يلتمسوا مخلصا لهم ، فادعوا أن الشاعر ارتكب هذه الضرورة كراهة الزحاف ، فقال أبو العــلاء مفندا تلك الحجة : « وهذا قول ينتقض ، لأن فى هذه الطائية أبياتا كثيرة لا تخلو من زحاف . وكل قصيدة للعرب وغيرها على هذا القرى كقوله :

عرفت بأجدث فنعاف عرق علامات كتحبير النمــاط

فيه زحافان من هذا الجنس ، ثم يجىء فى كل الأبيات إلا أن يندر شىء » (٢) .

وكأنما حاول بعضهم أن يتعلل بأن هذا الزحاف — مع كثرته فى شعرهم — قد يخل بموسيقى البيت ، فرد عليه أبو العلاء بأن حركة الزحاف هذه لا تنفر منها الأذن « ولا يشعر بها فى الغريزة » (٣) .

وأيا ما كان الأمر فقد قسم اللغويون الشعراء الى طبقات أربع هى :

١ — الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الاسلام .

٢ — الشعراء المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام .

٣ — الشعراء الاسلاميون ، وهم الذين كانوا فى صدر الاسلام كجرير والفرزدق ، وآخرهم ابن هرمة . قال : الأصمعى : « ختم الشعر بابن هرمة » (٤) ، وقال أبو عبيدة : « افتتح الشعر بامرىء القيس ، وختم بابن هرمة » (٥) .

---

(١) رسالة الملائكة ص ٢٠٥ ، ٢١٠ .
(٢) رسالة الغفران ص ٢٩٢ .
(٣) رسالة الملائكة ص ٢١٠ .
(٤) الاقتراح ص ٢٦ .
(٥) العمدة ص ٥٦ .

٤ — المولدون ، وهم من بعدهم الى زماننا هـذا كبشار وأبى نواس [١] .

فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما اجماعا ، وان كان من بينهم بعض شعراء طعن فيهم ، كعدى بن زيد ، وأبى دؤاد الايادى . قال الأصمعى : « عدى بن زيد وأبو دؤاد الايادى لا تروى العرب أشعارهما لأن ألفاظهما ليست نجدية » [٢] . وقال المرزبانى : « كان عدى بن زيد يسكن الحيرة ، ويراكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه » [٣] .

أما الطبقة الثالثة فالصحيح جواز الاستشهاد بشعرها . وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى اسحق والحسن البصرى وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم .. وكانوا يعدونهم من المولدين [٣] . وقد كان الأصمعى ينكر أبرق الرجل وأرعد ، فلما احتج عليه ببيت الكميت :

أبرق وأرعـد يايزيـــ ـــد فما وعيدك لى بضـائر

لمـا احتج عليه ببيت الكميت هذا قال : ليس بيت الكميت بحجة ، انما هو مولد [٤] .

وقال الأصمعى : « جلست الى أبى عمرو بن العلاء ثمانى حجج ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامى » [٥] .

ومع تحرى العلماء جانب الصواب ، ووضعهم شروطا فى الرواة على نمط شروط المحدثين فى رواة الحديث فقد دست عليهم بعض الأشعار ،

---

(١) الخزانة ١/٣ .
(٢) الموشح ص ٧٣ .
(٣) الخزانة ١/٣ .
(٤) ديوان الأدب ٢/٣١٦ .
(٥) العمـدة ص ٥٧ .

فجاء فى شواهدهم أبيات لم تسلم من الظنة • ومن ذلك استشهاد سيبويه بقول الشـــاعر :

حذر أمورا لاتخاف وآمن ما ليس منجيه من الأقدار

فهذا البيت مصنوع ومـــع ذلك رواه سيبويه فى الكتاب ، « ذكر أبو يحيى اللاحقى أن سيبويه سأله : هل تعدى العرب فعلا ؟ قال : فوضعت له هذا البيت » • وممن قال بوضعه كذلك الصفدى فى نفوذ السهم (١) •

ومن ذلك استشهاد الفارابى اللغوى بقول امرىء القيس :

وعمرو بن درماء الهمام اذا غدا بذى شطب عضب كمشية قسورا

على أنه أراد قسورة فحذف التاء (٢) •

وقد أنكر أبو العلاء المعرى هذا البيت ورأى أنه مصنوع وعبر عن ذلك بطريقته الخاصة التى عرف بها فى رسالة الغفران فأجرى حوارا بين صاحبه ابن القارح وامرىء القيس جاء فيه : « وإنا لنروى لك بيتا ما هو فى كل الروايات ، وأظنه مصنوعا لأن فيه ما لم تجر عادتك بمثله وهو قولك •• قسورا ، فيقول (امرؤ القيس) أبعد الله الآخر ؛ لقد اخترص فما اترص وان نسبة هذا الى لأعده احدى الوصمات » (٣) •

وأما الطبقة الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا ، ومنهم من أباح الاستشهاد بكلام من يوثق به منهم ، ومن هؤلاء الزمخشرى اللغوى والنحوى المشهور الذى كان يرى الاحتجاج بشعر أبى تمام (٤)

(١) سيبويه امام النحاة ص ١٤٦ • ونفوذ السهم مادة فزع ، وأسطورة الأبيات الخمسين ص ١٧ •
(٢) ديوان الأدب ورقة ٢٩٨ •
(٣) رسالة الغفران ص ٢٣٥ •
(٤) راجع الكشاف • آية : (واذا أظلم عليهم قاموا) [سورة البقرة آية ٢٠] •

وغيره من أئمة اللغة ورواتها ، ويقول ردا على من سأله كيف يستشهد فى الكشاف بشعر لأبى تمام : « أجعل ما ينظمه بمنزلة ما يرويه » . يشير الى مجموع أبى تمام المعروف باسم « ديوان الحماسة » والذى تلقاه العلماء بالقبول والثقة . واذا كان الزمخشرى يصرح بثقته فى شعر أبى تمام وأضرابه ولذا فهو يستشهد به ، فهناك من اللغويين من استشهد فى استخفاء بشعراء من هذه الطبقة . ومن هؤلاء الخليل بن أحمد الذى استشهد فى « العين » بحفص الأموى وبشار بن برد (١) . ونسب الى سيبويه أنه استشهد فى كتابه ببيت لبشار بعد أن توعده بالهجاء : « وأصحاب بشار يروون له هذا البيت :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه   وما كل مؤت نصحه بلبيب

وفى كتاب سيبويه نصف هذا البيت الآخر ، وهو فى باب الادغام لم يسم قائله » (٢) .

وفى العصر الحديث ارتفعت أصوات تنادى بإباحة الاستشهاد بالأدباء والشعراء المشهورين حتى وقتنا الحاضر ، بشرط موت الشاعر ، لأن المعاصرة حجاب كما يقولون ، وبشرط أن يكون الشاعر ممن شهد لهم بالفصاحة والبيان . ونسى هؤلاء أن الشاعر أو الأديب لا يعد من زعماء البيان الا اذا صحت لغته واستقام لسانه ، ولن يتم له ذلك الا اذا جرى على النمط العربى السليم ، ومتى فعل ذلك فقد صار عربيا بلغته ، وتماثلت اللغتان بل تطابقتا وبهذا فهو لم يخلق شيئا لم يعرفه العرب ولم يأت بجديد . بالاضافة الى أن مؤهلات الزعامة لا ضابط لها ، وقد تفتح بابا لدخول كل طامع . ولكننا نجد من أصحاب هذا الرأى من يقولون لقد ورد فى شعر بعض المعاصرين ما لم يرد فى شعر القدماء مثل شوقى الذى يقول :

---

(١) المعجم العربى ٢٤١/١ .

(٢) رسالة الغفران ص ٣٦٥ . وانظر الاقتراح ص ٢٦ . وذكر الدكتور رمضان أن البيت لأبى الأسود الدؤلى ، أو لمودود العنبرى (اسطورة : ص ٩) .

ولى بين الضلوع دم ولحم   هما الواهى الذى ثكل الشبابا

حيث أخبر عن المثنى بالمفرد ، ومثل قوله أيضا :

ان عزا لم يظلل فى غـــد   بجناحيك ذليــل مستباح

حيث نفى بلم المستقبل بدليل قوله « فى غد » و « لم » لنفى الماضى [١]

٥ — الشـــواهد النثرية

تشمل الشواهد النثرية نوعين من المـــادة اللغوية :

أحدهما : ما جاء فى شكل خطبة أو وصية أو مثل أو حكمة أو نادرة . وهذا يعد من آداب العرب الهامة ويأخذ فى الاستشهاد به مكانة الشعر وشروطه .

وآخرهما : مـــا نقل عن بعض الأعراب ومن يستشهد بكلامهم فى حديثهم العادى ، دون أن يتحقق له من التأنق والذيوع مثل ما تحقق للأول .

وقد وضع اللغويون شروطا تشمل الزمان والمكان بالنسبة لهذا النوع من المـــادة .

أما من ناحية الزمان ، فقد حددوا نهاية الفترة التى يستشهد بها بآخر القرن الثانى الهجرى بالنسبة لعرب الأمصار ، وآخر القرن الرابع بالنسبة لعرب البادية [٢] . وأما المكان فقـــد ربطوه بفكرة البداوة والحضارة ، فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب الى حياة البداوة كانت لغتها أفصح ، والثقة فيها أكثر ، وكلما كانت متحضرة ، أو أقرب الى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة ، ولذلك تجنبوا الأخذ

---

(١) اللغة والنحو ص ٢٤ وما بعدها ، وصفحة ١٢٩ . ومحاضرات الدكتور انيس لطلبة الليسانس بكلية دار العلوم عام ١٩٦٤ .

(٢) انظر : اللغة والنحو للأستاذ عباس حسن ص ٢٤ .

عنها • وفكرتهم فى ذلك أن الانعزال فى كبد الصحراء ، وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها ويصونها عن أى مؤثر خارجى ، وأن الاختلاط يفسد اللغة وينحرف بالألسنة • وأول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التى يستشهد بها والتى لا يستشهد بها الفارابى فى كتابه الألفاظ والحروف • وتعد هذه القائمة وثيقة هامة تناقلتها كتب اللغة المتأخرة مثل « شرح التسهيل » لأبى حيان « والمزهر » و « الاقتراح » للسيوطى • وهذا هو نص الوثيقة :

« كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما فى النفس • والذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد • فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب وفى التصريف • ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين • ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم • وبالجملة فلم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط • ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر [١] ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان • ولا من بكر لمجاورتهم للنبط [٢] والفرس • ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس • ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة • ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة

---

(١) فى المزهر : واليمن . والتصحيح من الاقتراح ، مخطوطة دار الكتب المصرية ١.١٦ مجاميع •

(٢) فى المزهر : للقبط ، والتصحيح من الاقتراح •

صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم . والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب » [١] .

وجاء ابن خلدون فأيد فى مقدمته رأى الفارابى ، وأوضح هـذه الفكرة ، وارتكز على نفس الأساس السابق ، وان كنا نجد بعض فروق طفيفة فى تحديد أسماء القبائل . يقول ابن خلدون : « الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم ، وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال .. فلا ينزع إليهم أحـد من الأمم .. فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم .. واعتبر ذلك فى مضر من قريش ، وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب .. وأما العرب الذين كانوا بالتلول ، وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيىء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم [٢] .

ويظهر أن هذه القائمة لم تكن محل اتفاق بين جميع اللغويين ، ويظهر كذلك أن البصريين كانوا أكثر تمسكا بها من الكوفيين ، ولهذا كانوا يفتخرون بقولهم : نحن نأخذ اللغة عن حرشـة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء (يعنون الكوفيين) أخذوا اللغة عن أهل السـواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز [٣] . كما كانوا يتهمونهم بأنهم يأخذون اللغة عن غير الفصحاء ، يقول أبو جعفر النحاس : « واحد الآناء إنْىٌ لا يعرف البصريون غيره . وحكى الفراء واحـد الآناء إنًى ..

---

(١) المزهر ١/٢١١ ، ٢١٢ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٣) أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٦٨ .

وللفراء فى هذا الباب فى كتاب المقصور والممدود أشياء قد جاء بها .. قد أنكرت عليه ، ورواها الأصمعى ، وابن السكيت ، والمتقنون من أهل اللغة على خلاف ما روى . والذى يقال فى هذا انه مأمون على مارواه ، غير أن سماع الكوفيين أكثره عن غير الفصحاء » (١) .

وممن لم يلتزمها من المتأخرين ابن مالك فى مؤلفاته . قال السيوطى بعد أن نقل هذه القائمة : « ونقل ذلك أبو حيان فى شرح التسهيل معترضا به على ابن مالك حيث عنى فى كتبه بنقل لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم ، وقال : ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن » (٢) .

كذلك كانت هذه القائمة محل نقد من بعض المعاصرين ، كما فعل الدكتور مهدى المخزومى الذى يرى أن التفرقة بين القبائل خطأ منهجى ، ويشرح ذلك بقوله : « ولا نرى هذا الا لغو الكلام . انهم يجهلون أن اللغة سليقة وطبيعة ، ويجهلون أن صاحب اللغة لا يغلط فى لغته ، لأنها جزء من حياته التى فطر عليها وعادة من عاداته التى نشأ عليها . واذا كان الجاهليون يغلطون ، والمخضرمون يغلطون ، والاسلاميون يغلطون ، فعلى من بعد هؤلاء يعتمد النحاة ؟ بماذا يحتجون ؟ ومن أين جاءوا بهذه الأصول التى وضعوها ، وهذه القواعد التى استنبطوها » . ثم يناقش فكرتها فى وجود الفصاحة فى كبد الصحراء فقط بعيدة عن ملابسات الحضارة فيقول : « ولو كان مقياس الفصاحة هو الانعزال فى كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجانب لكانت لغة قريش أبعد اللغات عن الفصاحة ، ولا قائل بهذا » (٣) والدكتور المخزومى على حق فى هذا ، فقريش كانت تسكن مكة وما حولها ، وهم أهل تجارة ، والتجارة تؤدى الى الاختلاط ، والاختلاط يفسد اللغة على حد زعمهم . فعلام التفريق اذن بين قريش

---

(١) اعراب القرآن للنحاس ٣٦٢/٢ .
(٢) الاقتراح ورقة ١٠٦ ، مخطوطة دار الكتب رقم ١١٦ مجاميع .
(٣) مدرسة الكوفة ص ٧٣ ، ٧٧ .

وتلك القبائل التى اتهمت فى فصاحتها ؟ ولم أخذوا عن قريش ورفضوا الأخذ عن غيرها ممن وجد فى حالة مشابهة لحالتها (١) ؟

ويلاحظ أن علماء اللغة جميعا فى حال الرواية لم يجيزوا الاعتماد على النص المكتوب ، وانما استندوا أساسا على المشافهة والتلقى ، وحذروا العالم من الاعتماد على النص المدون ، وحذروا المتعلم من تلقى العلم على من يفعل ذلك • ومن أقوالهم المشهورة : « لا تأخذوا العلم عن صحفى ، ولا القرآن عن مصحفى » • وهم بذلك لا يختلفون كثيرا عن المنهج الحديث الذى يعتمد على الراوى اللغوى ، ويعتمد على الكلام المنطوق دون المكتوب •

ولكننا نأخذ عليهم بعض مآخذ مثل :

١ — عدم استمرار المشافهة طوال فترة الدراسة ، ولجوء بعضهم الى مشافهات الآخرين يعتمدون عليها •

٢ — تكميل الثغرات بالمنطق والقياس لا بمعاودة المشافهة •

٣ — اعتقادهم أن اللغة شىء وراثى يتناقله الأبناء عن الآباء وترضعه الأمهات للأطفال • ولهذا سيطرت عليهم فكرة ارتباط الفصاحة بالجنس ارتباطا وثيقا ، وأنكروا على الفارسى أو اليونانى امكان اتقان اللغة العربية كما يتقنها أهلوها من العرب مهما بذلوا فى تعلمها ، وثابروا فى المران عليها ، وتلقوها منذ الصغر ، ومهما كان حضورهم مبكرا الى الجزيرة العربية ، ولو أجنة فى بطون أمهاتهم ، ومهما كان حظهم من الثقافة العربية • ولهذا كان اللغويون العرب يرفضون الأخذ عن ابن المقفع لأصله الفارسى ، برغم فصاحته وتلقيه اللغة منذ نعومة أظفاره ،

---

(١) انظر تعليق الدكتور عبده الراجحى على تفضيل قريش : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ٤١ وما بعدها •

فى حين كانوا لا يتورعون عن الاستشهاد بكلام الأطفال والمجانين • قال السيوطى : « قال ابن دريد فى أماليه : أخبرنا عبد الرحمن عن عمه الأصمعى قال : سمعت صبية بحمى ضرية (بين البصرة والكوفة) يتراجزون فوقفت وصدونى عن حاجتى ، وأقبلت أكتب ما أسمع اذ أقبل شيخ فقال لى : أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع » ، وقال : « وكذلك لم أرهم توقوا أشعار المجانين من العرب بل رووها واحتجوا بها » [1] •

٤ — خلطهم الشواهد الشعرية بالشواهد النثرية ، ومحاولة استخلاص قواعد عامة تجمعها مع أنه من المعروف أن للشعر قواعده ونظمه الخاصة التى ينفرد بها •

٥ — أنهم لم يكثروا من الاستشهاد بالحديث مع أنه أهم من الشعر فى ميدان البحث اللغوى ، لأنه من النثر الذى لا تحكمه ضرورة من وزن أو قافية ، ولأنه يعطى الباحث اللغوى صورة صحيحة لروح عصره بخلاف الشعر الذى يحتوى على كثير من الصيغ الفنية والعبارات المتكلفة التى تبعده عن تمثيل الحياة العادية وتنئيه عن الروح السائدة فى عصره •

٦ — أنهم خلطوا مستويين من اللغة لا يصح الخلط بينهما ، وهما مستوى اللغة الأدبية النموذجية الممثلة فى القرآن والحديث والشعر والخطب والأمثال ، ومستوى اللهجات العامية المتمثلة فى القراءات القرآنية ولغة الخطاب •

٧ — أنهم لم يكونوا على حق فى ربطهم الفصاحة بالبداوة ، لأن اللغة بنت الحاجة والاستعمال ، واللغة لا تنشأ فى فراغ ، وانما لتعبر عن

---

(١) المزهر ص ١٤٠ •
وفى تهذيب اللغة : سمعت صبيا من بنى عقيل يقول لصبى آخر : وجهى زين ووجهك شين . والتقدير : وجهى ذو زين ووجهك ذو شين ، فنعتهما بالمصدر • (٢٥٥/١٣) •

تجارب واحتياجات وثقافات معينة • ولا شك أن تجارب البدوى واحتياجاته تختلف عن تجارب الحضرى واحتياجاته ، ولذلك ليس من المعقول أن تغنى احدى اللغتين عن الأخرى ، وليس من الحق أن نعد لغة البدوى أرقى من لغة الحضرى برغم أنها لا تفى باحتياجاته •

٨ — أن عنايتهم باللهجات العربية كانت ضئيلة ، فهم أولاً قد أبعدوا جزءا منها من مجال التسجيل اللغوى ، وهم ثانيا لم يكونوا حريصين على تسمية اللهجة ، مما تركنا فى ظلام دامس حين نريد تتبع الظواهر اللهجية الحديثة ونردها الى أصلها القديم • وفرق بين أن نسجل اللهجة وننسبها ، وبين أن نقيم عليها قاعدة تكون نموذجا لمن يريد أن يحتذى الصواب •

٩ — أن جميع علماء اللغة لم يكونوا يعرفون شيئا عن اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة ، فنشأ عن ذلك أنهم لم يوفقوا فى بيان المعانى الدقيقة التى يؤديها كثير من الكلمات العربية فى أصل وضعها ونشأ عن ذلك أيضا وقوعهم فى أغلاط فيما يتعلق بالاشتقاق • كما أن معرفتهم المحدودة باللغات الأجنبية جعلتهم غير موفقين فى رد كثير من الكلمات المعربة الى أصولها الأجنبية •

الفصل الثانى

الدراسات اللغوية عند غير العرب

تمهيـــد :

ليس من همنا فى هذا الفصل أن نعرض بالتفصيل للجهود اللغوية التى قام بها غير العرب من اللغويين ، وانما همنا أن نعرض صورة موجزة لأهم هذه الجهود • كذلك ليس من همنا أن نعرض لكل الجهود اللغوية الأجنبية ، وانما همنا أن نعرض للجهود التى سبقت أو عاصرت الدراسات اللغوية عند العرب • وليس هذا البحث مقصودا لذاته ، وانما هدفه الأساسى خدمة بحث تال يتناول قضية التأثير والتأثر ، ويناقش احتمالات التأثير الأجنبى على الدراسات اللغوية العربية والعكس •

وسوف نحصر أنفسنا فى الدراسات اللغوية عند الشعوب التاليـــة وحـــدها :

١ ــ الهنـــود •
٢ ــ اليونانيون •
٣ ــ المصريون القدماء •
٤ ــ السريان •
٥ ــ العبرانيون •
٦ ــ الصينيون •

١ ــ الهنـــود

ظهرت فى الهند القديمة دراسات للغة السنسكريتية (لغة الهنـــد الكلاسيكية) على مستوى عال من التنظيم والدقة • ولربما كان الهنود

أسبق — حتى من اليونانيين — فى هذا الميدان ، سواء من ناحية الزمن أو ناحية القيمة • وقد أثرت عن الهنود دراسات ، فى فروع علم اللغة المختلفة تتناول الأصوات والاشتقاق والنحو والمعاجم ، كما تتناول كثيرا من مشكلات فقه اللغة ، ويرجع أقدم هذه الدراسات الى فترة مجهولة لنا ، أما أقدم ما وصلنا منها فيرجع الى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد •

ويحتاج عرض الدراسات اللغوية عند الهنود الى حيز كبير لا يسمح به المقام ، ولذا سنكتفى بإشارات سريعة ، تاركين التفصيلات الى بحث آخر [١] •

أما الدراسة الصوتية عندهم فكانت متنوعة وشاملة لمعظم جوانب هذا العلم • فدرسوا الصوت المفرد وقسموه الى علل وأنصاف علل وسواكن وقسموا العلل الى بسيطة ومركبة ، كما قسموا السواكن بحسب مخارجها • وتوصل الهنود الى أثر القفل فى انتاج الأصوات الانفجارية ، والفتح فى انتاج أصوات العلة والتضييق فى انتاج الأصوات الاحتكاكية • وتحدث الهنود عن كيفية تسرب الهواء من التجويف الحنجرى ، وذكروا أنه اذا فتح ما بين الوترين الصوتيين ينتج النفس واذا ضيق ما بينهما ينتج الصوت ، وصرحوا بأن النفس يحدث فى حالة الأصوات الساكنة المهموسة والصوت فى حالة السواكن المجهورة أو العلل •

ولم يكتف الهنود بالحديث عن الصوت المفرد فتحدثوا عن المقطع ، وكان حديثهم مفصلا بشكل مثير للدهشة • كذلك وضع الهنود قواعد دقيقة للنبر فى لغتهم القديمة ، واعتبروه من خصائص العلل لا السواكن ، وقسموه الى درجات ثلاث •

---

(١) انظر كتابنا المطبوع بعنوان « البحث اللغوى عند الهنود » وما ذكرناه هنا ملخص عن هذا الكتاب .

ويكفى الهنود فخرا أن تكون جهودهم الصوتية هى الأساس الذى بنى عليه علماء الأصوات المحدثون • يقول بروفسر ألن : « إن الاتصال بين الهنود القدماء والمدارس الغربية الحديثة فى دراسة اللغة أشد وأوثق فى مجال الأصوات عنه فى مجال النحو » • ويعترف العلامة فرث الانجليزى أن المدرسة الأصواتية الانجليزية لم تنشأ فى القرن التاسع عشر إلا على أكتاف المعلومات التى قدمها وليم جونز عن النحاة والأصواتيين الهنود •

وأما فى مجال النحو ، فإنه من غير المبالغ فيه أن نقول إن هذا العلم لم يلق من العناية فى أى بلد من بلاد العالم مثل ما لقيه من الهنود • وقد كان فى الهند القديمة ما يقرب من اثنتى عشرة مدرسة نحوية مختلفة ، وأكثر من ثلثمائة مؤلف فى النحو ، ووصلتنا فعلا دراسات تزيد على الألف عدا بعضها أصلى وبعضها شارح •

ويمثل بانينى [1] فترة النضج فى الدراسات النحوية عند الهنود ، ولذا نال كتابه المسمى « الأقسام الثمانية » شهرة غطت على أى مؤلف آخر سبقه أو لحقه • وقد كتب بانينى تأليفه فى شكل قواعد مختصرة ، وبذل فيه جهدا ضخما للتوفيق بين الآراء والاتجاهات المتعارضة التى كانت موجودة حينئذ •

وأهم ما يميز النحو الهندى :

---

(١) اختلف بدرجة كبيرة فى تحديد زمنه . واشهر الآراء انه كان موجودا بين عامى ٧٠٠ و ٦٠٠ ق.م ، وقد وصلنا فعلا كتاب بانينى المسمى «Ashtadhyayi» (الاقسام الثمانية) واحتفل به العلماء وترجموه الى لغات عدة . وقد نال عمل بانينى شهادات التقدير من القدماء والمحدثين على السواء ، فقد قال عنه باتنجالى (١٥٠ ق.م) : « انه محيط واسع من العلم » . وقال عنه ماكس مولر : « لا يوجد نحو فى اى لغة يمكن أن يعادل نحوه » . وقال بلومفيلد : « ان نحو بانينى يعد واحدا من اعظم الشواهد القديمة على تقدم العقل البشرى » . وقال روبنس : « بين كل النحاة الهنود يقف اسم بانينى متميزا عن غيره » .

١ ــ أنه بدأ بجمع المادة اللغوية وتصنيفها ثم انتقل الى استخلاص الحقائق منها • فنقطة البداية فى النحو الهندى مختلفة عنها فى اليونانى ، الذى بدأ من الفلسفة وحاول أن يطبق القواعد الفلسفية على حقائق اللغة •

٢ ــ أنه سبق النحو اليونانى فى تحديد أقسام الكلام (اسم ــ فعل ــ حروف الضافة ــ أدوات) •

٣ ــ أنه حلل هذه الأقسام الى عواملها الأولية فميز بين الجذر أو الأصل ، وبين الزيادة أو الحروف التشكيلية •

٤ ــ عرف النحو الهندى الأعداد الثلاثة : المفرد والمثنى والجمع منذ عصر مبكر •

٥ ــ قسم النحو الهندى الفعل السنسكريتى الى ثلاثة أقسام بحسب الزمن وهى : ماض وحاضر ومستقبل •

وأما الأعمال المعجمية عند الهنود فقد بدأت فى شكل قوائم تضم الألفاظ الصعبة الموجودة فى نصوصهم المقدسة ، ثم تطور هذا النظام فألحق بكل لفظ فى القائمة شرح لمعناه ، ويمكن أن يعتبر هذا العمل من نوع « معاجم الموضوعات » أو « معاجم المعانى » • وبعد ذلك ظهرت كتب لا تقصر نفسها على ألفاظ النصوص المقدسة ، وأقدم ما وصلنا من هذه الكتب معجم ظهر فى القرن السادس الميلادى أو قبله ، لمؤلف بوذى اسمه آمارا سنها Amara Sinha وقد ضم هذا المعجم (واسمه Amara Kosa) جزءا ضم كلمات المترادفات ، وجزءا فى كلمات المشترك اللفظى ، وجزءا عن الكلمات غير المتصرفة والكلمات المذكرة أو المؤنثة أو المحايدة • ويعيب هذا الكتاب وأمثاله أنه كتب فى شكل منظوم ليسهل حفظه وأنه لم يتبع أى ترتيب ييسر اللجوء اليه والعثور على المراد بسرعة ، فيما عدا المشترك اللفظى الذى رتب بحسب الحروف الساكنة فى أواخر كلماته • ولا نجد عملا آخر

يستحق الاشارة اليه بعد ذلك سوى معجم كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو معجم ضخم رتبت الكلمات فيه أولا بحسب عدد مقاطعها ثم بحسب الجنس (مذكر ومؤنث) ثم بحسب الحرف الأول •

٢ — اليونانيـون

أول عمل لغـوى فى اليونان — وقـد تم بالطبع قبل وصـول أى تسجيلات — كان تطوير نظام هجائى للكتابة فى أوائل الألف قبل الميلاد • وفى هذا النظام الهجائى مثل اليونانيون كل الأصوات سواء السواكن منها والعلل ، وفيما بعـد مثلوا كذلك النبر برموز خاصـة به [١] •

أما التفكير اللغوى فقد بدأ مرتبطا بالفلسفة philosophia وهى علم كان يغطى مجالا أوسع عند اليونانيين القدماء من المصطلح philosophy اليوم • ولذلك فإن أسماء اللغويين اليونانيين الأولين هى أسماء فلاسفتهم الأولين • وربما كان أقدم ما وصلنا من أبحاث اليونانيين يرجع الى حوالى القرن السادس قبل الميلاد على أيدى السوفسطائيين• وبعد ذلك نجد سقراط يدلى برأيه فى بعض مشكلات اللغة ويليه أفلاطون (٤٢٨ق‌م الى ٣٤٨ق‌م) وأرسطو (٣٨٤ ق‌م الى ٣٢٢ ق‌م) [٢] • وربما كان من أهم المشـاكل التى لفتت أنظار اليونانيين موضوع اللغـة نفسها وهل هى أمر طبيعى أو عرف ناتج عن اتفاق البشر • وقد خصص أفلاطون جزءا من محاوراته لمعالجة هذه القضية وعرض وجهتى النظر المختلفتين • كما عالج أصل الكلمات أو موضوع العلاقة بين الاسم والمسمى [٣] • وتطور النقاش بعد ذلك ليصل الى أيدى القياسيين Analogists والشذوذيين Anomalists ، فقال الأولون إن اللغة فطرية وقياسية ومنطقية ، وقال الآخرون إن عـدم

---

(١) انظر : روبنس «A Short History» ص ١٢ — ١٣ •

(٢) راجع روبنس المرجع السابق ص ١٤ و «On Language» ص ٣ •

(٣) انظر : «On Language» ص ٣ •

اطراد اللغة خير دليل على بطـلان الرأى الأول [١] • وعلى الرغم من أن أفلاطون لم يسق آراءه اللغوية بشكل مترابط ، ولم يجمعها فى مكان واحد — فقد عده الباحثون رائد الدراسات النحوية اليونانية « وأول فاحص للمشكلات النحوية » [٢] • ويعد أفلاطون أول من فرق بين الاسم والفعل كما أنه أعطانا تقسيما ثلاثياً للأصوات يمكن أن يكون : أصوات العلة — الأصوات الساكنة المجهورة — الأصوات الساكنة المهموسة [٣] • وأقر أرسطو تقسيم أفلاطون للكلمة الى اسم وفعل وزاد عليها قسما ثالثا سماه رابطة • وذلك أنه شـعر أن الأفعال والأسماء تؤدى معانى مستقلة فى حين أن سائر الكلمات ليس لها إلا الوظيفة النحوية فقط [٤] •

وبعد ذلك انتقلت الدراسات اللغوية الى أيدى الرواقيين Stoics الذين فصلوها عن الفلسفة واعتبرت حينئذ فرعا مستقلا تحت الحقل الواسع المسمى Philosophia • وقد تأسست مدرسة الرواقيين على يد Zeno (حوالى ٣٠٠ ق‌م) ، وأعطى هؤلاء شخصية مستقلة لكل من الأصـوات والنحو والاشتقاق ، وإن كان معظم اهتمامهم منصبا على النحو وحده ، حتى اعتبر بعضهم بدء النحو بمعناه الحديث على أيدى هؤلاء الرواقيين[٥] •

وعلى أيدى الرواقيين زيد قسم رابع ثم خامس الى أقسام الكلمة الثلاثة عند أرسطو ، كما قدمت شروح مستفيضة لآراء أرسطو اللغوية • كذلك يبدو أن الرواقيين كانوا أول من درسوا العدد والمطابقة بين الاسم

---

(١) «On Language» ص ٣ ، وروبنس ص ١٧ وما بعدها •

(٢) روبنس ص ١٤ •

(٣) «On Language» ص ٣ ، و «Greek Pioneers» ص ١٠٧ ، ١٠٩ ، وانظر : روبنس ص ٣ ، ١٠ •

(٤) «Greek P.oneers» ص ١١٠ و «On Language» ص ٣ — ٤ •

(٥) روبنس ص ٢٧ و «Greek Pioneers» ص ١٠٧ •

والفعل ، وحالات الاسم الاعرابية ، وحالات الفعل من حيث الصيغة والزمن (١) .

وبعد الرواقيين تحول مركز الدراسات النحوية الى الاسكندرية وظهرت مدرسة نحوية كاملة فى الاسكندرية خلال القرن الأول قبل الميلاد كما سنعرض فيما بعد .

أما فى المجال المعجمى فقد أنتجوا عددا ضخما من المعاجم . وتقول دائرة المعارف البريطانية إن Athenacus قد أقتبس نصوصا من ٣٥ عملا معجميا فقدت جميعها (٢) . ولكن كثيراً من هذه المعاجم تم إنتاجه فى الاسكندرية ولذا نترك الحديث عنها الآن الى مكان آخر . ويعتبر العلماء القرون الأولى بعد الميلاد هى العصر الذهبى للمعاجم اليونانية وبخاصة فى مدينة الاسكندرية كما سنتحدث فيما بعد ، ولكن اشتهر من بين المعاجم اليونانية معجم أبوقراط Hippocrate الذى ألفه Glaucus عام ١٨٠ ق م وهو معجم ألفبائى (٣) .

٣ — المصريون القدماء

اتجهت أبحاثهم الى عدة فروع من الدراسات اللغوية ، فدرس بعضهم الآثار الأدبية اليونانية القديمة دراسة فلولوجية ، واتجه بعضهم الى الدرس النحو ، وفريق ثالث اتجه الى وضع المعاجم . ودارت كل هذه الدراسات حول اللغة اليونانية وتركزت جميعها فى الاسكندرية .

أما الدراسة الفلولوجية فقد وجدت فى الاسكندرية فى وقت مبكر جدا ، وكان الهدف منها تصحيح النصوص المكتوبة وتفسيرها والتعليق

---

(١) «On Language» ص ٥ ، وروبنس ص ٢٨ .
(٢) مادة Dictionary .
(٣) الجرح ص ١٤ و Haywood ص ٨ .

عليهـا [1] . وظهرت فى القرن الثالث قبل الميلاد شروح على أشعار هوميروس وغيره من الشعراء . كما وجـه اهتمام الى دراسة المفردات وجمع الألفاظ الصعبة أو الكلمات الشعرية أو الكلمات التى تنتمى الى لهجـات خاصـة [2] .

وأما النحو فنبغ فيه علماء كثيرون أبرزهم Dionysius Thrax الذى ألف فى النحو كتابا اشتمل — ضمن ما اشتمل عليه — على آراء النحاة السابقين . ونال كتابه شهرة جعلته المرجع الأول للنحو اليونانى فى الألف والثمانمائة سنة التالية . وقد أكد ديونسيوس العلاقة بين النحو والأدب ، وأهمل كلية الكلام العامى ، وزاد فى أقسام الكلام حتى بلغ بها ثمانية ، وكان بكل تأكيد تقدما كبيرا بالنسبة لأفلاطون وأرسطو [3] . ويقـول عنه أحد الباحثين : « إن جزءا كبيرا من نحونا مدين له . لقد كان عمله هذا فى مدرسته لثلاثة عشر قرنا . ويدين له بالفضل كذلك النحاة اللاتين القدماء وأهل العصـور الوسطى » [4] .

ومن أهم التجديدات والاضافات التى قام بهـا لغويو الاسكندرية رفضهم بعض أقسام الكلام التى توصل اليها سابقوهم واضافتهم أقساما جديدة مثل حروف الاضافة prepositions ومثل الضمير pronoun ، ومن ذلك فصلهم اسم الفاعل واسم المفعول عن الفعل . وتناولوا الاسم من حيث التذكير والتأنيث ومن حيث العدد ، وقسموا الفعل باعتبار الزمن والصيغة ، وغير ذلك كثير .

وهناك نقطة أخرى هامة فى نحوهم هى أنهم اهتموا فقط بالاستعمالات

---

(١) السعران ص ٣٥١ ، ودى سوسير ص ١ .
(٢) السعران ص ٣٥١ .
(٣) «On Language» ص ٥ .
(٤) «Greek Pioneers» ص ١١٢ وانظر : «On Language» ص ٦ .

الموجودة فى الشعر والكتابات النثرية وأهملوا ما عداهما [١] .

أما فى مجال المعاجم فإن أقدم معجم يونانى معروف لنا هو معجم Appollonius السوفسطائى ، وكان موجـودا فى الاسكندرية فى عصر Augustus ويتناول هذا المعجم الكلمات التى استعملها هوميروس [٢] . ولكن العصر الذهبى للمعاجم كان فى القرون التى تلت المسيحية ، وشمل ذلك معاجم كثيرة عرفنا من أسمائها :

١ — معجم Orion (٣٩٠ — ٤٦٠ م) ، الخاص بالاشتقاق وقد ألفـه بمصر .

٢ — معجم Helladius الذى ألفه بالاسكندرية فى القرن الخامس وكان ترتيبه ألفبائيا .

٣ — معجم Ammonius وكان معاصرا للسابق ، وقد خصص معجمه للكلمات المتفقة فى اللفظ المختلفة فى المعنى [٣] .

٤ — معجم اللهجات والسمات المحلية لمؤلفه Hesychius [٤] وغير ذلك .

٤ — السريان

احتك السريان باليونان منذ القدم ، واختلطوا بهم إما بحكم الجوار أو بحكم خضوعهم لسلطان اليونان . ولذلك ترجم السريان النحو اليونانى الى السريانية ، ونقـلوا الى لغتهم كثيرا من الكلمات والاصطلاحات .

---

(١) «Greek Pioneers» ص ١١١ وما بعدها .
(٢) دائرة المعارف البريطانية Dictionary .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الجرح ص ١٤ .

وليس هذا فحسب ، بل قلدوا اليونان فى نحوهم حين وضعوا قواعد لغتهم .

أول نحوى سريانى نعرفه هو يوسف الأهوازى أستاذ مدرسة نصيبين المتوفى سنة ٥٨٠ م (حوالى ٤٢ ق هـ) ، فقد كتب رسالة فى النحو ، وترجم كتابا فى نحو اللغة اليونانية اسمه : « الصناعة النحوية » الى السريانية . كذلك اخترع بعض علامات للشكل ، وكتب رسالة عن الكلمات التى تكتب بصورة واحدة ولكن يتعدد معناها .

وقد عثر على قطعة من كتاب ألف فى القرن السادس فى نحو السريان يتضح منها أن مؤلفها اتبع قواعد النحو اليونانى .

وفى القرن السابع ظهر نحاة سريان ينسب الى بعضهم ابتداع نقط الإعجام فى السريانية واختراع الحركات . ويعد يعقوب الرهاوى الذى ولد حوالى عام ٦٤٠ م (١٩ هـ) ، وتوفى عام ٧٠٨ م (٩٠ هـ) أول من وضع نحوا شاملا ، وقواعد للغة السريانية مبنية على النحو اليونانى ، وقد عثر على قطع من هذا الكتاب [1] فيها حديث عن الصوائت (الحركات) وقد استعارها من اليونانية ووضعها أولا بين الحروف ، ثم قام بوضعها فوق الحرف أو تحته فى المكان الذى يوجد به فراغ [2] . ووجدت طريقة ثالثة أقدم من هاتين ، وهى وضع نقطة أو نقطتين ، بطريقة رأسية أو أفقية أو مائلة ، فوق الحرف أو تحته ، ليوضح شكل حركة من الحركات .

وفى القرنين الثامن والتاسع ظهرت بعض مصنفات فى نحو السريانية ، وكان أشهر المؤلفين فيه أبو زيد حنين بن اسحاق المتوفى سنة ٨٧٣

---

(١) كان الباحثون يظنون أن عمل يعقوب قد فقد الى أن عثر وليم ريت على صفحات قديمة منه فى المتحف البريطانى ، ثم عثر على قطع أخرى فى البودليانا بأكسفورد .

(انظر : Fragments of the Syriac Grammar : Wight) .

(٢) المرجع السابق ص ٤ . وانظر الآداب السامية للأبراشى ص ٦٣ — ٦٧ .

(٢٦٠ هـ) [١] .

وقد ألف معظم أعماله بالعربية ، وكذلك مترجماته من اليونانية . وقد عرفنا له ثلاثة كتب هى : « النحو السريانى » ، و « المعجم السريانى » ، كذلك كتب حنين رسالة عن المترادفات .

وقد مد حنين ومدرسته فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين المسلمين بكل ما يعرفونه عن العلوم اليونانية سواء أكان طبا أم رياضة أم فلسفة [٢] .

أما فى القرن العاشر فنجد أن التأليف بالسريانية قد ضعف ، اذ أصبح معظم المؤلفين يفضلون — حتى فى الكتابات الدينية والرسمية — الكتابة بالعربية . وقد فعل ذلك علماء مثل : أبو على عيسى بن اسحاق ابن زرعة (٩٤٣ — ١٠٠٨ م) ، وأبو زكريا يحيى بن عدى (توفى ٩٧٤ عن احدى وثمانين سنة) [٣] .

٥ — العبرانيون

يبدو أن الدراسات اللغوية العبرية لم تزدهر فى فترة ما قبل

---

(١) فى تفصيل الحديث عن نشأة النحو السريانى راجع — الى جانب المرجع السابق — ما يأتى :

أ — A Short History of Syriac Literature

تأليف وليم ريت ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥٠ .

ب — نشأة النحو عند السريان وتاريخ نحاتهم تأليف زاكية رشدى ص ٢١٥ — ٢١٧ .

ج — تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ، ص ٢٦٦ .

(٢) A Short History of Syriac Literature : Wright ص ٢١٢ — ٢١٤ .

وورد فى دائرة المعارف البريطانية مادة (Syriac Literature) أن معظم المؤلفات والوثائق ترجمت من اليونانية الى السريانية خلال عدة قرون مكونة جزءا من التراث السريانى . وساهمت هذه الترجمات فى تركيب الحضارة الاسلامية فيما بعد حيث كانت الترجمة اسهل من السريانية الى العربية عن الترجمة من اليونانية الى العربية .

(٣) A Short History ص ٢٢٢ .

الاسلام ، وأن أهم الأعمال التى قدمت لم تظهر إلا بعد اختلاطهم بالعرب ، وخوفهم من اندثار لغتهم ، لانصراف الناس عنها وتعلمهم اللغة العربية . يقول كاتب مادة grammar فى دائرة المعارف اليهودية :

« إن الحافز لدراسة الفلولوجى العبرى قد قوى بعامل خارجى ، وبالتحديد بالمثال الذى قدمته اللغة العربية . وقد استمرت اللغة العربية تؤثر على علم اللغة العبرى وكان النموذج العربى هو الذى احتذاه العبرانيون ثم طوروه » . ويقول Hirschfeld : « هناك شواهد مؤكدة أن النفوذ العربى كان موجودا حتى منذ اللحظة الأولى للنشاط اللغوى العبرى . فإننا نجد الأسماء العبرية للحركات الثلاث الرئيسية هى نفسها الأسماء العربية (الفتحة — الكسرة — الضمة) . وكذلك الكلمة المستعملة للعلة تعد نقلا حرفيا من العربية (حركة) [(١)] . وينص سعيد الفيومى (ولد فى صعيد مصر ٨٩٢ م ومات ٩٤٢ م) فى مقدمة معجمه على السبب فى تأليفه بقوله : « إن اليهود يعطون اهتماما قليلا للغتنا الفصيحة ، واهتماما أقل للكلمات الصعبة ، وأسلوبهم ملىء بالأخطاء كما أن شعرهم معيب من ناحية القافية ، وغير واضح ، وتافه » [(٢)] .

ومع هذا دعنا نلقى نظرة على أهم الأعمال التى قدمها اليهود عن اللغة العبرية قبل الاسلام أو بعده حتى القرن الرابع الهجرى :

بدأت دراسة اللغة والنحو فى العبرية لخدمة الكتاب المقدس ثم استقلت [(٣)] وقد أطلق على البداية الأولى للنحو العبرى اسم Masorah وكان اهتمام المشتغلين بها محصورا فى التفرقة بين الصيغ المختلفة للكلمات الموجودة فى الكتاب المقدس ، وربط الأشكال المتشابهة فى مجموعات ، وتسجيل غرائب النص . ولكن عملهم لم يعط أى اهتمام

---

(١) Literary History of Hebrew ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣ ، ودائرة المعارف الهودية مادة «Saadia» .

(٣) دائرة المعارف اليهودية مادة «grammar»

للتقسيمات النحوية ، ولا لحصر الصيغ الموجودة فى اللغـة العبرية • وظلت الـ Masorah مزدهرة حتى بعد ظهور علم النحو •

وحتى من قبل نشأة علم النحو وجدت دراسـات تتعلق بتصنيف السواكن والعلل ، وتقديم النصائح لقارىء النص المقدس ، كما وجـد نظام للنقط ووضعت قواعد للكتابة ، والضبط بالشكل ، وأشـير الى ظاهرة النبر ولوحظت الفروق فى أشكالها (١) •

وهناك خلاف كبير حول ما اذا كان شرف البدء بالأعمال النحوية يرجع الى الربانيين Rabbanites أو القرائين Qaraites ، ولكن يمكن أن يقال إن القرائين كانوا أكثر اهتماما بالنحو من الربانيين • واستنادا الى الشواهد التاريخية يمكن القول ان الأحكام النحوية الأولى التى وصلت إلينا ترجع الى Nissi b. Noah الذى برز فى النصف الأول من القرن التاسع وكانت أعمـاله مكتوبة بالعبرية ، لأنه من المعروف أن اليهـود لم يستعملوا اللغة العربية لكتاباتهم قبـل القـرن العاشر الميـلادى (٢) :

وفى القرن العاشر الميلادى نجد عالمـا كبيرا سبق أن أشرنا الى اسمه وهو سعيد الفيومى الذى أنتج أعمالا يدخل بعضها فى عـداد النحـو وبعضها الآخر فى عداد المعاجم • والتأثير العربى واضح عليه لأنه فى أول عمل أنتجه ، وكان له من العمر ٢١ سنة ، أشار الى عناوين مؤلفات الكتاب العرب الذين عالجوا فصاحة الأسلوب •

وتتلخص جهـود سعيد الفيومى فيما يأتى :

١ ـ عمل معجم يسمى Agron ، وقد اجتاز تأليف هـذا المعجم

---

(١) راجع Literary History of Hebrew ص ٥ ، ٦ ، ٩ •
وراجع دائرة المعارف اليهودية مادة «Grammar» •
(٢) Literary History ص ٧ ـ ٨ •

مرحلتين اثنتين • فقد ظهر أولا فى شكل معجم عبرى خالص مرتب ترتيبا هجائيا تبعا لبدايات الكلمات ونهاياتها • وكل مادة كانت توضح باقتباسات من الكتب المقدسة • وكان غرض المؤلف مساعدة الشعراء الدينيين فى نظم القصائد من النوع المسمى acrostics [١] وفى العثور على قواف مناسبة لقصائدهم [٢] •

ومن سوء الحظ أن قدرا صغيرا منه فقط قد حفظ لنا ، وبذا لا يمكننا أن نكون فكرة كبيرة عن محتوياته • ولكننا نملك المقدمة العبرية التى تعطينا بعض المعلومات الهامة • وفى هذه المقدمة تحدث المؤلف عن موضوعات أساسية مثل تكوين الكلمات من جزءين يعد واحد منهما أساسيا والآخر اضافيا • والجزء الاضافى يقوم بوظيفة الجمعية والملكية والزمن ، فى حين يبقى الجزء الأساسى من الكلمة غير متغير •

ويبدو أن سعيد الفيومى قد أحس بنوع من عدم الرضا عن عمله • ولذا نجده فيما بعد يلبسه ثوبا جديدا ويظهره فى شكل آخر ، اذ قام باضافة ترجمة عربية للكلمات موضوع البحث ، كما كتب مقدمة عربية ووضع له عنوانا جديدا هو « كتاب الشعر » •

٢ — تمثلت اهتمامات سعيد فيما بعد فى جمعه لرسائل نحوية اثنتى عشرة تحت عنوان « كتب فى اللغات » وقد ضاع هذا المجموع فيما عدا بعض اقتباسات منه بقيت فى كتاب آخر له شرح فيه « كتاب الخليقة » •

٣ — شرح « كتاب الخليقة » ، وفى هذا الشرح ناقش الأصوات الحلقية guttural فى أماكنها المتعددة فى الكلمات ، والتغيرات النطقية

---

(١) هى قصائد اذا جمعت أوائل حروف أبياتها كانت اسما أو جملة .

(٢) Literary History of Hebrew ص ١١ ، ودائرة المعارف اليهودية مادة Saadia .

التى تلحقها حينما ترفض أى نوع من التضعيف • وهو فى بحثه هذا لم يكن مسبوقا ، لأن هذه الأصوات لم يوجه لهـا اهتمام خاص فى اللغة العربية •

٤ — كذلك أخرج سعيد عملا معجميا ثانيا يتمثل فى قائمة مفرداته للكلمات التى وردت فى الكتاب المقدس مرة واحدة • والمفردات فى هذه القائمة ليست مرتبة بأى شكل وقد أضيفت اليهـا تعليقات وشروح ، وترجمة عربية لبعض الكلمات [١] •

وهناك معاصر لسعيد الفيومى اشـتغل بالنحـو هو أبو يوسف القرقسانى Qirqisani ، وقد تتلمذ معه على مدارس بغداد ، وظهرت آثار ثقافته العربية فى أعماله النحوية • وأهم ما تركه عملان نحويان أحدهما تأليف والآخر شرح • وقد اعتبره مؤلف : « التاريخ الأدبى للنحاة المعجميين العبريين » مثلا لأحسن نمـوذج لمدرسـة القرائين ووضعه فى مرتبة تالية لسعيد الفيومى وصف أبحاثه بالدقة والتعمق فى فهم اللغة العبرية [٢] •

وهناك أعلام أخرى يهودية لمعت فى هذا القرن مثل :

داود بن ابراهيم الذى كان من مواطنى مراكش • وقـد ألف معجما يشبه معجم سعيد الفيومى ، وقسم الكلمات العبرية الى أربعة أقسام تبعا لعدد الحروف التى اعتبرها أصلية ، بادئا بالكلمات التى تشـتمل على أصـل واحـد • واعتبر المؤلف ما زاد على الأربعـة استثناء • وقدم المؤلف الى جانب هـذا عملا نحويا ، وقـام ببعض الأبحاث المقارنة [٣] •

مناحيم بن سروق الذى ألف معجما عبريا خالصا رتب مادته ترتيبا هجائيا • ولكن المؤلف فشل فى التعرف على بعض الجذور فرتب كثيرا

---

(١) Literary History of Hebrew ص ١١ — ١٥ •

(٢) ص ١٦ •

(٣) Literary History of Hebrew ص ٢٠ ، ٢١ •

من الكلمات بحسب صورتها الخارجية . ولهذا فإنك تجد كلمات ذات أصول اشتقاقية متباعدة — تجدها فى مكان واحد . وقد أعطى المؤلف فى معجمه قائمة بالكلمات ذات الأصل الواحد ، وأخرى بالكلمات ذات الأصلين . وقد تحدث ميناحيم عن حروف الهجاء التى لا تأتى إلا أصلية فقط وعن الحروف التى تأتى أصلية وزائدة . وقد كان ميناحيم من سكان قرطبة وولد عام ٩١٠ ومات عام ٩٧٠ م (١) .

يهوذا بن حيوج الذى ارتفع بعلم اللغة العبرى الى مستوى علمى رفيع . وقد كان من مواطنى فاس ومن تلاميذ ميناحيم السابق ذكره . وبلغ من علو مكانته أن اعتبره بعض المؤرخين أول النحاة العبريين . وقد ساعدته معلوماته العميقة فى العربية ودراساتها على التعمق فى البحث اللغوى العبرى . وقد وصلتنا أجزاء من بعض مؤلفاته (٢) كما وصلنا أحد أعماله كاملا متمثلا فى ثلاث رسائل كتبت باللغة العربية .

وفى احدى هذه الرسائل نجد دراسة فونولوجية متقدمة ، تعالج العلل والسواكن والتنغيم والنبر والمقطع . ومن الخصائص الفونولوجية التى ذكرها المؤلف أنه لا توجد كلمة عبرية تبدأ بساكن غير متبوع بعلة ، كما لا توجد كلمة تنتهى بعلة . وبلغ من عمق تحليلاته ودقتها أن اعتبره بعضهم صاحب « أول محاولة لوضع قواعد فونولوجية للغة العبرية مؤسسة على أسس علمية » (٣) .

---

(١) المرجع ص ٢٤ — ٢٦ . ودائرة المعارف اليهودية «Menahem b. Saruq» ، ودائرة المعارف البريطانية «Dictionary» .

(٢) من ذلك قطع من أحد كتبه عثر عليها فى لينينجراد ونشرت عام ١٩١٦ . وهى تعالج اشتقاق بعض الكلمات العبرية . كما تفرق بين الكلمات ذات الأصول المختلفة التى تبدو متفقة فى الصورة .

(٣) Literary History of Hebrew ص ٣٥ — ٣٩ .

وقرب نهاية القرن العاشر ظهر عالمـان يستحقان الاشادة وهما :

أبو الوليد بن جناح القرطبى الذى ولد فى نهـاية هـذا القرن واشتغل بالطب أولا ثم اتجه لدراسة اللغة العبرية • وقد ألف كتبـا كثيرة أشهرها :

(أ) كتاب بالعربية أسماه « كتاب المستلحق » وهو ذيل على عمل يهوذا بن حيوج •

(ب) كتاب بالعربية أسماه « كتاب التنبيه » رد فيه اعتراضات خصومه واحدا بعد الآخر ، وعالج فيه بعمق كثيرا من الصيغ الشاذة •

(ج) كتاب ثالث اسمه « رسـالة التقريب والتسهيل » ، يعد تعليقات على كتاب ابن حيـوج ، ويعـالج جـزؤه الأول موضوعات فونيلوجية ، وجزؤه الثانى مشكلة الأصول الثلاثية للكلمات ، وجزؤه الثالث الكلمات ذات الأصل الثالث الضعيف (الناقصـة) والكلمـات المضعفـة •

(د) كتاب فى النحو اسمه « اللمع » يحتوى على ٤٦ فصلا ويسير على النمط العربى •

(هـ) كتاب اسمه « كتاب الأصول » وهو معجم عبرى باللغـة العربيـة [١] •

ويلاحظ أنه كتب جميع مؤلفاته باللغة العربية •

وأبو الفرج هارون الذى أتم عملا لغويا ضخما عام ١٠٢٨ م وأسماه « الكتاب الشامل فى الأصول والفروع للغة العبرية » • ويحتوى الكتاب على ثمانية أبواب تعالج الستة الأولى منها مسائل نحوية ، والسابع يشكل معجما ، فى حين أن الأخير يعالج الكلمات الآرامية الموجودة فى الانجيل • وفى الجزء المعجمى كان يأخذ الأصل الثلاثى ويناقشه ويعرض

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ — ٤٦ . ودائرة المعارف البريطانية مادة «Dictionary» .

معانيه المختلفة واستعمالاته ، ثم بعد ذلك يعيد ترتيب حروف الكلمة بشكل آخر ويفعل ما سبق فعله . وهكذا يقلب الكلمة على احتمالاتها الواردة فى اللغة . وله أعمال لغوية أخرى (١) .

٦ — الصينيون

يقول « فيشر » فى مقدمة معجمه اللغوى التاريخى : « واذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب » (٢) والذى يهمنا فى هذه العبارة ما شهدت به من فضل للصينيين فى مجال الدراسة اللغوية . وهذه حقيقة نريد أن نعرضها الآن فى ايجاز وتركيز .

ربما كان أول عمل صينى معجمى قديما جدا ، ولكن أول محاولة منظمة للتعريف بالأشكال التعبيرية كانت العمل المسمى Eah Ya الذى يمكن أن يؤرخ بالفترة ما بين ٢٠٠ ق . م وميلاد المسيح . وهو أشبه بمعجم من معاجم المعانى التى توزع الكلمات تحت موضوعات أو معان مختلفة .

وفى نهاية القرن الأول الميلادى ظهر أول معجم حقيقى وهو معجم Shwo wan لمؤلفه Hû Shin وعلى الرغم من أن هذا المعجم يشرح حوالى ٦٠٠ر١٠ كلمة فهو ليس معجما شاملا ، بل لا يحتوى حتى على جميع الكلمات التى وردت فى مقدمته . وقد كان جل اهتمام المؤلف منصبا على الكلمات التى وردت فى النصوص الدينية .

وبعد ذلك ظهر نظام جديد للمعاجم الصينية رتبت فيه الكلمات

---

(١) Literary History of Hebrew ص ٥٠ — ٥٢ ، وقارن هذا بصنيع الخليل فى العين .

(٢) صفحة ٤ .

صوتيا تبعا لنطقها • فكل الكلمات ذات الصوت الواحد تعالج معاً فى باب واحد بغض النظر عن اختلاف طرق كتابتها • وأول معجم صينى يتبع هـذا النظـام هـو معجم Hu Fa Yen الذى كتب بين عامى ٥٨١ و ٦٠١ م •

وكان للصينيين دراسات صوتية ، لكن يبدو أنهم مدينون فى التوصل اليها الى الهنود الذين نقـلوا علومهم الى الصين على يد الرهبـان البوذيين فمنهم عرف الصينيون كيف يصنفون أصوات الكلام تبعاً لمكان النطـق (١) •

---

(١) راجع فى كل ما مضى : دائرة المعارف البريطانية مادة «Dictionary» • «Arabic Lexicography» لمؤلفـه «Haywood» والدكتور الجرح : المعجم العربى صـفحة ١٢ ، ١٣ ، و «General Linguistics» لمؤلفـه «Robins» ص ٣٧٣ •

وهناك معجم صينى ضخم ظهر فى القرن السادس الميلادى فى اثنى عشر مجلدا واسمه Yu Pien واسم مؤلفه «Ku Ye Wang» •

الباب الثانى

الدراسات اللغوية عند العرب

الفصل الأول

مرحلة النشأة

لم يؤثر عن العرب أى نوع من الدراسات اللغوية قبل الاسلام ، ولهذا فهم متأخرون زمنيا عن كثير من الأمم التى سبق أن تحدثنا عن جهودها ، والتى عرف لبعضها دراسات لغوية راسخة قبل الاسلام بقرون •

ولم يكن البحث اللغوى عند العرب من الدراسات المبكرة التى خفوا لها سرعا ، لأنهم وجهوا اهتمامهم أولا الى العلوم الشرعية والاسلامية وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا الى العلوم الأخرى • يقول السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء معبرا عن الفكرة : إنه منذ منتصف القرن الثانى الهجرى بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوى ، ويؤلفون فى الفقه الاسلامى والتفسير القرآنى • وبعد أن تم تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو [1] • ويقول الأستاذ أحمد أمين : « أكثر اللغة كتبت فى العصر العباسى الأول لا قبله » [2] • وحتى ما وجد فى القرن الأول من تأملات نحوية أو محاولات لدراسة بعض المشاكل اللغوية كان الحافز اليه اسلاميا ، ولم يقصد لذاته وانما لاعتباره خادما للنص القرآنى • ومن ذلك محاولة ابن عباس جمع الكلمات الغريبة فى القرآن وشرحها إن صحت نسبة « غريب القرآن » اليه • وكذلك محاولة أبى الأسود الدؤلى لضبط المصحف بالشكل حين استحضر كاتبا وأمره أن يتناول المصحف ، وأن يأخذ صبغا يخالف لون المداد فيضع نقطة فوق

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٧٣ •

(٢) ضحى الاسلام ٢٩٨/١ •

الحرف اذا رآه يفتح شفتيه ، وتحت الحرف اذا رآه قد خفض شفتيه ، وبين يدى الحرف اذا رآه يضم شفتيه . أما اذا أتبع الحرف الأخير غنة فينقط نقطتين فوق بعضهما . أما الحرف الساكن فقد تركه (١) .
ثم اخترع أهل المدينة بعد ذلك علامة التشديد وهى قوس طرفاه الى أعلى هكذا ⌣ يوضع فوق الحرف المفتوح وتحت المكسور وعلى شمال المضموم . أما الفتحة فكانت ترضع داخل القوس والكسرة تحته والضمة فى شماله ثم استغنوا عن النقط فى حالة استخدام الشدة وأصبحت الفتحة مع الشدة هكذا ⌣ ومع الكسرة ⌣ ومع الضمة ⌣ (٢) :

ويبدو أن كثيرا من المحاولات الأولى للدرس اللغوى التى تمت فى أماكن مختلفة من العالم كانت مرتبطة بالدين وبالعقيدة . نجد هذا عند الهنود الذين بدأوا بحثهم اللغوى لخدمة نصوصهم المقدسة المسماة بالفيدا . ومثل هذا نجده عند الصينيين اذ كانت دراسة النصوص الدينية البوذية وغيرها سببا فى نشأة المعاجم الصينية ، وكذلك كانت دراسة الشعر الحماسى والدينى فى اليونان دافعا للتأليف اللغوى . وبدأت دراسة اللغة والنحو فى العبرية لخدمة الكتاب المقدس (٣) .

وعلى أى حال فمن المنطقى أن يكون البحث اللغوى عند العرب قد بدأ فى شكل جمع للمادة اللغوية ، أو ما يعرف بمتن اللغة ، وأن يسبق ذلك الدرس النحوى . وقد تم هذا الجمع أولا بطريق المشافهة والحفظ ، ودون منهج معين فى ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها ، أو على حد تعبير

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٠ ، والخط العربى لسهيلة الجبورى ص ٥٦ — ٥٧ ، وقصة الكتابة لجمعة ص ٥١ — ٥٢ .
(٢) سهيلة الجبورى ص ٥٧ . والخط الممتد يمثل الحرف المشدد .
(٣) انظر «Haywood» ص ٣ . ودائرة المعارف اليهودية مادة «Grammar» .

الأستاذ أحمد أمين : « كان المدونون الأولون للغة فى هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لهم سماعها . فقد يسمعون كلمة فى الفرس ، وأخرى فى الغيث ، وثالثة فى الرجل القصير ، وهكذا . فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب » [١] . وبعد ذلك اتجه أهل اللغة الى التبويب والتصنيف والتقسيم ورد النظير الى النظير ، كل بطريقته الخاصة التى رآها . فمنهم من صنف المـادة اللغوية بحسب الموضوعات ، مثل النبات والشجر والإبل والخيل والسلال والأنواء ، وأخرجها فى شكل رسائل منفصلة . ومنهم من اتجه الى الشعر الجاهلى أو الاسلامى يدونه ويرويه ويشرح مفرداته الصعبة . ومنهم من اهتم بتسجيل بعض الظواهر الخاصة التى لاحظها فى بعض القبائل ... وهكذا . وتوجت هذه الجهود بظهـور المعـاجم اللغوية المنظمة التى كان رائدها الخليل بن أحمـد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) ، وذلك بوضعه معجم « العين » كما سنفصل الحديث فيما بعـد .

أما البحث النحوى فلاشك أنه بدأ متأخرا عن جمع اللغة ، لأنـه لا يمكن القيام به بدون مادة توضع تحت تصرف النحوى ، وبعبارة أخرى لأن تقعيد القواعد ما هو إلا فحص لمـادة لغوية تم جمعها بالفعل ومحاولة لتصنيفها واستنباط الأسس والنظريات التى تحكمها . وأفضل ما يعبر عن ذلك قول عبد اللطيف البغدادى فى شرح الخطب النباتية فيما نقله السيوطى عنه : « اعلم أن اللغوى شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه . وأما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى ويقيس عليه ، ومثالهما المحدث والفقيه ، فشأن المحدث نقل الحديث برمته ، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأشباه والأمثال » [٢] .

---

(١) ضحى الاسلام ١/٣٠٢ و ٢/٢٦٣ — ٢٦٤ .
(٢) المزهر ١/٥٩ .

ومع ذلك فنحن نسمع عن إشارات أو أحكام سريعة تمت فى وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثانى من القرن الأول الهجرى كتلك التى قام بها أبو الأسود الدؤلى أو على بن أبى طالب أو غيرهما .

وفى رأينا أن النحو العربى قد نشأ فنا قبل أن يكون علماً ، أى أن هذه الطرق الخاصة بالأداء فى اللغة قد التزمت باطراد فى تراكيبها وأساليبها ومرنت عليها ألسنة العرب ، وتمكنت من طباعهم قبل أن توضع لهـا القواعد النحوية . ولهذا فنحن نستبعد تماما ما يقوله ابن فارس من أن علم النحو فى اللغة العربية قديم بقدمها ومنزل كتنزيلها ، وأنه كان معروفا ومدروسا من قديم ، ثم تنوسيت قواعده وأتت عليها الأيام حتى جاء أبو الأسود الدؤلى فأحيا ما اندثر منه [١] : ولا نرى رأيه أن اللغـة العربية قد وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون قد عرفت أول ما عرفت وهى متميزة بضوابط الإعراب المختلفة . وإنما الذى نراه أن اللغة العربية لابد أن تكون قد مرت بمراحل من الاضطراب وعدم الاستقرار ، وأن هذه الضوابط المتبعة فى الأداء قد سلكت طريقا طبيعيا فى التكوين ، كما تسلك اللغة نفسها هذا الطريق ، فكانت فى أول الأمر بسيطة غير مطردة ولكنها مع الزمن قد نمت وعمت والتزمت واستقرت فى النفوس على وجه يجعلها ملكة أو ما يشبه الملكة ، وجرى أهلها على سنن ثابت أو كالثابت فى صوغ الكلمة وضبط حروفها وبنـاء الجمل والأساليب [٢] .

وأغلب الظن أن كثيرا مما نجده فى بطون الكتب القديمة ، وفى ثنايا النصوص من أمثلة نحوية وشواهد أدبية خارجة عن تلك القواعد التى وضعها النحاة ثم التمسوا لها تخريجا — إن هو إلا بقايا من اللغة العربية

---

(١) الصاحبى ص ١٠ .

(٢) اللغة والنحو لحسن عون ص ٥٧ ، ١٠٨ وعباس حسن : رأى فى بعض الأصول ص ١٢ .

فى مراحلها الأولى قبل أن تنضج . فمن ذلك إهمال الإعراب فى مثل قول امرىء القيس :

اليوم أشرب غير مستحقب إثمـاً من الله ولا واغل

وقول الراجز :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى ليلا ولا أسمع أصوات المطى

ومن ذلك حذف النون من المثنى من غير إضافة كقول الشاعر :

هما خطتا إما إسـار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر

والمثل العربى القديم : بيضك ثنتا وبيضى مائتا [1] . وكذلك إلزام الأسماء الخمسة الألف مثل : مكره أخاك لا بطل .

أما كيف نشأ النحو ؟ ومن أول من ألف فيه ؟ فهـذان سؤالان ما نظن أن فى أيدينا الإجابة عنهما أو الرد عليهما بحسم . وأغلب الظن أنهما سيظلان معلقين حتى نعثر على مادة جديدة تكشف عن بداية النحو العربى ، وتضع حدا للإرهاصات والتنبؤات حولها [2] . فمن قائل إنه على بن أبى طالب ، ومن قائل إنه نصر بن عاصم [3] . ويختلف من قالوا إن أبا الأسود هو واضع النحو فى الباعث له على ذلك ، فيقول بعضهم : إن على بن أبى طالب هو الذى أوعز اليه بوضع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل إنه زياد بن أبيه ، ومن قائل إن أبا الأسود فزع بنفسه الى وضع النحو حين سـمع قارئا يقـرأ : (لا يأكله

---

(١) رسالة الغفران ص ٢٩١ ، واللغة والنحـو ص ٨٦ ، ٩٤ . وانظـر مغنى اللبيب ١٦٧/١ ، والمدخل الى دراسـة النحـو لعابدين ص ٣٦ .

(٢) يقول بروكلمان : « يبدو ان أوائل علم اللغة العربية ستبقى دائما محوطة بالغموض والظلام لانه لا يكاد ينتظر ان يكشف النقاب بعـد عن مصادر جديدة تعين على بحثها ومعرفتها » (١٢٣/٢) .

(٣) الفهرست ص ٣٩ ، ومدرسة البصرة النحوية ص ٣٢ — ٣٥ .

إلا الخاطئين) أو قارئا يقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) بكسر رسول • وقيل السبب إن ابنته قالت له : (ما أحسنُ السماء) بضم أحسن تريد التعجب ، ولكنه فهم الاستفهام فقال لها : نجومها فقالت له يا أبت : إنما أخبرك ولم أسألك فقال لها : إذن فقولى : (ما أحسنَ السماء) بالنصب (١) • وتروى قصته مع ابنته برواية أخرى إذ يقال إن أبا الأسود دخل عليها فى وقدة الحر بالبصرة فقالت له : يا أبت ما أشد الحر (تعنى التعجب ولكنه فهم الاستفهام لأنها رفعت) فقال لها : شهرا ناجر (٢) • فقالت له : يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك (٣) • وهناك رواية أخرى وردت فى الفهرست لابن النديم تقول : « ويقال إن السبب فى ذلك أيضاً أنه مر بأبى الأسود سعد وكان رجلا فارسيا من أهل زندخان كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فدنوا من قدامة بن مظعون وادعوا أنهم أسلموا على يديه ، وأنهم بذلك من مواليه • فمر سعد هذا بأبى الأسود وهو يقود فرسه ، فقال : مالك يا سعد ، لم لا تركب ؟ قال : إن فرسى ضالع (أراد ظالعا) فضحك به بعض من حضره فقال أبو الأسود : هؤلاء الموالى قد رغبوا فى الاسلام ، ودخلوا فيه فصاروا لنا إخوة ، فلو عملنا لهم الكلام • فوضع باب الفاعل والمفعول (٤) • والرواية بصورتها هذه تحمل فى طياتها بذور الشك فيها ، إذ لا علاقة مطلقا بين خطأ الرجل (وهو نتيجة عادة كلامية خاصة) وبابى الفاعل والمفعول اللذين قيل إن أبا الأسود قد وضعوما من أجله •

أما رواية من قال إن زيادا هو الذى حرك أبا الأسود لوضع النحو فتمضى قائلة : إن أبا الأسود رفض أولا ، ففكر زياد فى حيلة « فبعث

---

(١) ضحى الاسلام ١/٢٤٥ •

(٢) فى اللسان : شهرا ناجر أشد ما يكون من الحر ويزعم قوم أنهما حزيران وتموز • وناجر رجب ، وقيل صفر •

(٣) من تاريخ النحو للأفغانى ص ١٠ •

(٤) ص ٤٠ •

رجلا يقعد له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئا من القرآن ويتعمد اللحن فقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسوله — بالجر) فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال : عز وجه الله ؟ إن الله لا يبرأ من رسوله • ثم رجع من فوره الى زياد فقال : يا هذا قد أجبتك الى ما سألت » [١] •

وينقل ابن النديم رواية تدل على أن عليا هو أول من وضع النحو وذلك إذ يقول : « قال محمد بن اسحاق : زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب » [٢] • بل أكثر من هذا يروى ابن الأنبارى نصا دفع به على لأبى الأسود جاء فيه : « الكلام كله اسم وفعل وحرف • فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى • واعلم أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر •• » ثم يمضى ابن الأنبارى قائلا : ثم وضع أبو الأسود بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام الى أن وصل الى باب إن وأخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضها على على أمره بضم لكن اليها ، وكلما وضع بابا من أبواب النحو عرضه عليه [٣] •

ولكن ابن النديم يعود فيذكر رواية أخرى تثبت هذا الوضع لأبى الأسود ، وذلك فى فصل عقده بعنوان : « سبب يدل على أن من وضع النحو كلاما أبو الأسود الدؤلى » ذكر فيه أنه رأى بنفسه أربعة أوراق قديمة كتب عليها : « هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود الدؤلى رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر • وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى : وتحته : هذا خط النضر بن شميل » [٤] :

---

(١) من تاريخ النحو للأفغانى ، ص ١٠ حاشية رقم ١ •
(٢) الفهرست ص ٣٩ •
(٣) ضحى الاسلام ٢/٢٨٥ •
(٤) الفهرست ص ٤٠ — ٤١ •

وقد تبين من هذا أن السبب الأساسى فى وضع النحو — مهما كان واضعه — مافشا من لحن عقب الفتوحات الاسلامية ، وامتداد آفاق اللغة العربية الى مجالات لم تتح لها من قبل ، وفساد الألسنة حتى بالنسبة للعرب أنفسهم نتيجة اختلاطهم بالأجانب . يقول الزبيدى : « لم تزل العرب تنطق على سجيتها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الاسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا عليه أرسالا ، واجتمعت الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد فى اللغة العربية » (١) .

ونلتقط من بين الأمثلة التى ذكرها المؤرخون للحن ما يأتى :

١ — تسكين أواخر الكلمات وترك الإعراب خوفا من اللحن . ومن ذلك ما حكى أن مهدى بن مهلهل كان يقول : « حدثنا هشام بن حسان » بالتسكين على ما نقل الجاحظ (٢) .

٢ — الانحراف فى نطق بعض الأصوات كنطق الظاء ضادا ، وقد سبق مثاله . وكنطق الصاد سيناً ، كما يروى أن عمر بن الخطاب مر برجلين يرميان فقال أحدهما للآخر : أسبت (يعنى أصبت) فقال عمر : « سوء اللحن أشد من سوء الرمى » (٣) . ومثل ذلك ما يروى عن مولى زياد أنه كان ينطق الحاء هاء كقوله « أهدى لنا همار وهش » (أى حمار وحش) (٤) .

٣ — الخطأ فى قواعد النحو ، كما يروى أن مؤذنا سمع يقول : « أشهد أن محمدا رسولَ الله » (بنصب رسول) فقال له أعرابى : ويحك ، يفعل ماذا ؟ وما يروى أن أبا عمرو بن العلاء مر بالبصرة فإذا

---

(١) عبد العزيز مطر ص ٢٩ عن طبقات الزبيدى .
(٢) ضحى الاسلام ٢٩٥/١ عن البيان والتبيين .
(٣) من تاريخ النحو ص ١٠ .
(٤) مطر ص ٣٠ .

أعدال مطروحة مكتوب عليها « لأبو فلان » فقال : يا رب يلحنون ويرزقون ؟ وما يروى أن رجلا دخل على زياد فقال له : إن أبينا هلك وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا ، فقال له زياد : ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك (١) .

٤ — الخطأ فى بنية الكلمة ، كما يقال إن أول لحن سمع بالبادية قولهم (هذه عصاتى) (٢) .

ولم ينج الحكام والخلفاء من الوقوع فى اللحن ، فمنهم من كان بعد ذلك يكابر . ومنهم من كان يخجل ويحاول إصلاح نفسه وتقويم لسانه ، فمن النوع الأول ما يروى أن بعض الأمراء بالبصرة كان يقرأ : (إن الله وملائكته) — بالرفع — فمضى إليه الأخفش ناصحا فانتهره وقال له : تلحنون أمراءكم (٣) .

ومن النوع الثانى الحجاج بن يوسف الثقفى الذى بلغ من حرصه على توقى اللحن وتقززه منه أن أبعد يحيى بن يعمر الليثى لأنه اطلع على لحن له . والحكاية كما ترويها كتب اللغة والأدب تتلخص فى أن الحجاج سأل يحيى بن يعمر : أترانى ألحن على المنبر ؟ فقال يحيى — خوفا من سطوة الحجاج وجبروته — الأمير أفصح الناس إلا أنه لم يكن يروى الشعر فكرر الحجاج سؤاله فقال يحيى : نعم فى آى القرآن ،

---

(١) من تاريخ النحو ص ١٠ . وهناك أمثلة أخرى كثيرة لهذا النوع كما يروى أن عمر بن الخطاب مر على قوم يرمون بالسهام فلم يعجبه رميهم . ولما أبدى هذا قالوا : اننا قوم متعلمين . ويروى أن بشر بن مروان قال لغلام له : ادع صالحا فقال الغلام : يا صالحا فقال بشر : الغ منها الف . فقال له عمر بن عبد العزيز وكان حاضرا المجلس : وأنت فزد على الفك الفا .

(٢) مطر ص ٢٩ . ومن أمثلته كذلك أن رجلا قال لأعرابى : كيف أهلك ، بكسر اللام . فقال : صلبا . لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد السؤال عن أهله وعياله .

(٣) من تاريخ النحو ص ١٨ .

فقال الحجاج : فذاك أشنع . وما هو ؟ قال : تقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ... أحبُّ إليكم من الله ورسوله » (برفع أحب) وصحتها أحبَّ (بالنصب) . فقال : والله لن تسمعنى ألحن بعد ذلك وأبعده الى خراسان [١] . ومن هذا النوع أيضاً — وإن اختلف سلوك كل — عمر بن عبد العزيز الذى لحن لحنة فنبه إليها فحبس نفسه فى منزله ومعه من يعلمه العربية . ولم يخرج على الملأ إلا وهو أفصح الناس [٢] ، ويروى كذلك أن عبد الملك ابن مروان — وإن لم يكن قد عرف عنه اللحن فإنه كان يتجنبه ويتوقاه ولهذا حين سئل : « لماذا عجل الشيب الى رأسك يا أمير المؤمنين » قال : « شيبتنى مواقف الخطابة وتوقع اللحن » .

ويرى الأستاذ الدكتور ابراهيم أنيس أن جميع الأمثلة التى ذكرها العروضيون للإقواء ليست من قبيل الخطأ الموسيقى ، وإنما من قبيل الخطأ النحوى . وعلى هذا فهو يرى أن حسان بن ثابت كان ينشد :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر   جسم البغال وأحلام العصافير
كأنه قصب جفت أسافله   مثقب نفخت فيه الأعاصير

بكسر الأعاصير حفاظا على النغمة الموسيقية وإن كسر بذلك قواعد النحو (وليس بالرفع كما زعم النحاة حفاظا على قواعد النحو ، وإن كان يكسر النغمة الموسيقية) ؛ اذا لا يعقل أن الشاعر الفحل يخطىء فى الموسيقى وإن عقل أن يخطىء فى النحو . واذا علمنا أن الإقواء كان شائعا بين الشعراء الجاهليين [٣] خرجنا من ذلك بأن اللحن كان شائعا

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم انيس لطلبة الليسانس بكلية دار العلوم (غير مطبوعة) ومن تاريخ النحو ص ١٢ .

(٢) من تاريخ النحو ص ١٤ .

(٣) يروى عن أبى عمرو بن العلاء قوله : فحلان من العرب الشعراء كانا يقويان النابغة وبشر بن ابى خازم (ديوان النابغة الذبيانى ص ٢٩) وفى القصيدة الثانية من ديوان النابغة اقواءان على الأقل (البيتان ٢ ، ١٧) .

حتى بين فصحاء العرب وشعرائهم (١) .

ومهما كان الأمر فقد تمت أولیات الدراسة النحوية فى مدينة البصرة وشمل ذلك الفترة التى تمتد من أبى الأسود الى الخليل بن أحمد . وكانت الكوفة وقتها مشغولة برواية الأشعار والأخبار (٢) .

وفى الفترة بين أبى الأسود والخليل نجد أسماء — مجرد أسماء — وبعض اقتباسات ، ولكن لم تصلنا أى مؤلفات وإن ذكرت التراجم وجودها . ومن أشهر نحاة هذه الفترة يحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله ابن أبى اسحاق الحضرمى .

وليس هناك شىء يذكر بالنسبة للثلاثة الأوائل ، أما الثلاثة الأواخر فقد ذكرت عنهم كتب التراجم ما يأتى :

عيسى بن عمر الثقفى : كان نحويا بصريا كفيفا مولعا بالغريب : ومما حكى عنه فى ذلك أنه سقط ذات يوم فى سوق البصرة مغشيا عليه ، ودار الناس حوله يقولون مصروع ؛ فبين قارىء ومتعوذ من الجان . فلما أفاق من غشيته أمر الناس أن ينفضوا من حوله بلغة حشاها بالغريب من الألفاظ وحوشى الكلام ، حتى إن الناس لم يفهموه ، إذ قال لهم : ما لكم تكأكأتم علىّ كتكأكئكم على ذى جنة . افرنقعوا عنى . فعلق أحد الحاضرين بقوله : « إن جنيته تتكلم الهندية » (٣) : ويروى كذلك أنه أنكر وديعة أودعت عنده فضرب بالسياط ليقر فجعل يقول : « والله إن كانت إلا أثيابا فى أسيفاط قبضها عشاروك » (٤) . وقد مات عام ١٤٩ هـ

---

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم أنيس .
(٢) نشأة النحو ص ١٦ ، ١٧ .
(٣) وفيات الأعيان ٣/١٥٤ — ١٥٦ .
(٤) نشأة النحو ص ٦١ (ط ثانية) . والسفط كالجوالق والجمع أسفاط .

بعد أن ترك كتابين هما « الجامع » و « المكمل » وقد مدحهما الخليل ابن أحمد بقوله :

بطل النحــو جميعا كله غير ما أحــدث عيسى بن عمر

ذاك إكمــال وهــذا جامع فهما للنـــاس شمس وقمر

ولكن فقد الكتابان ولم يعثر لهما على أثر (١) .

أبو عمرو بن العلاء : أحد الأعلام فى القراءة والنحو واللغة وأحد القراء السبعة . قال فيه أبو عبيدة : « أعلم الناس بالقراءات العربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف » . وقال فيه يونس : « لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله » . وقد اختلف هو وعيسى بن عمر فى قولهم : « ليس الطيب إلا المسك » فكان أبو عمرو يجيز الرفع وعيسى بن عمر ينكره . وحين تحاجا قال أبو عمرو له : « نمت وأدلج الناس . ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ولا تميمى إلا وهو يرفع » . واحتكما الى الأعراب فشهدوا لأبى عمرو بن العلاء . وتوفى أبو عمرو عام ١٥٤ هـ (٢) .

عبد الله بن أبى اسحاق : سئل عنه يونس فقال : « هو والنحو سواء » ويقال إنه أول من علل النحو وإنه كان شديد التجريد للقياس والعمل به يقول ابن سلام : « كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل » ، ويقول ابن الأنبارى : « إنه أول من علل النحو » . ولم ينقل عن ابن أبى اسحاق كتاب فى النحو ، لكنه عنى بالهمز ومهر فيه حتى كان له فيه كتاب .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) الأفغانى : من تاريخ النحو ص ٣٦ — ٣٧ ، ونشــأة النحــو (ط ثانية) ص ٦٢ ، و « يونس » للدكتور حسين نصار ص ٢٢ .

ويروى أن والى البصرة فى عهد هشام بن عبد الملك جمع بين أبى عمرو ابن العلاء وابن أبى اسحاق فقال أبو عمرو : « فغلبنى ابن أبى اسحاق بالهمز يومئذ » [1] وبالرجوع الى فهارس كتاب سيبويه (إعداد هارون) يتبين أن نقول سيبويه عن ابن أبى اسحاق تبلغ تسعة فقط . ولكن جاء جانب من شهرة ابن أبى اسحاق من كثرة تتبعه ازلات الشعراء وتلمسه الأخطاء لهم . وأشهر من تعرض له الفرزدق ، وله معه قصص كثيرة . فمن ذلك أنه سأله يوما : كيف تنشد هذا البيت :

وعينان قال الله كونا فكانتا   فعولان بالألباب ما تفعل الخمر [2]

فقال الفرزدق : « فعولان » فرد ابن أبى اسحاق : ما كان عليك لو قلت فعولين ؟ فقال الفرزدق : لو شئت أن أسبح لسبحت ، ونهض فلم يعرف أحد مراده . وتعرض ابن أبى اسحاق للفرزدق فى شعر له ، إذ عابه على قوله :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع   من المـال إلا مسحت أو مجلف [3]

وسأله : علام رفعت ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا ثم هجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته   ولكن عبد الله مولى موالى

فقال له ابن أبى اسحاق وهذا أيضا خطأ ، كان يجب أن تترل موال لا موالى [4] .

---

(١) نشأة النحو (ط ثانية) ص ٥٨ ، والنحو العربى لمـازن المبـارك ص ٤١ ، ٥٣ .
(٢) يخرج البيت على أن « كان » تامة .
(٣) المسحت : المستأصل ، والمجلف : الباقى منه شىء .
(٤) محاضرات الدكتور انيس ، ونشأة النحو (ط ثانية) ص ٥٩ — ٦٠ .

ولم تنقل كتب التراجم بماذا رد عليه الفرزدق مع أن توجيه البيت قريب ، فمن العرب من يجر مثل هذه الكلمات بالفتح الظاهر لأنها ممنوعة من الصرف وعليه قول الهذلى .

أبيت على معارى فاخرات   بهن ملوب كدم العباط

وقراءة (والفجر وليالى عشر) — بفتح ياء ليالى .

وكانت وفاة ابن أبى اسحاق عام ١١٧ هـ .

أما أول عمل نحوى كامل يصل إلينا فهو « الكتاب » لسيبويه ؛ وسنفرده ببحث خاص فيما بعد . وليس معنى أن « الكتاب » هو أول عمل وصلنا أنه أول عمل على الإطلاق ، فقد سبق أن تحدثنا عن جهود نحوية قبل سيبويه وسبق أن ذكرنا أسماء لبعض مؤلفات لم تصلنا .

وندع مرحلة النشأة لنتحدث بشىء من التفصيل عن جهود العرب فى مجالات البحث اللغوى المختلفة ، وهو ما سيكون موضوع الفصول التالية إن شاء الله .

ولما كان البحث اللغوى قد تنوع وتعددت جوانبه فمن الأوفق أن نتناول موضوعات كل فرع على حدة وذلك على النحو التالى :

١ — الأصوات .

٢ — النحو والصرف .

٣ — المعجم .

٤ — الدراسة المقارنة .

الفصل الثانى

الأصـــوات

عرض تاريخى :

يعتبر علماء اللغة المحدثون دراسة الأصوات أول خطوة فى أى دراسة لغوية ، لأنها تتناول أصغر وحدات اللغة ، ونعنى بها الصوت ، الذى هو المـادة الخام للكلام الانسانى •

أما اللغويون العرب فلم ينظروا الى الدراسة الصوتية هذه النظرة ، ولم يعالجوا الأصوات علاجا مستقلا ، وإنما تناولوها دائمـاً مختلطة بغيرها من البحوث وذلك على النحو التالى :

١ ـــ بالنسبة للنحاة ، خصصوا بعض الأبواب فى كتبهم النحـــوية لهذه الدراسة • بل إنهم لم يقصدوها لذاتها وإنما لغيرها ، حيث اعتبروها تمهيدا أو مدخلا لدراسة ظاهرة الإدغام ، والحديث عن قواعد الإعلال والإبدال ، وقد عالج سيبويه « الإدغام » فى نهاية مؤلفه « الكتاب » ، وعالج الأصوات قبل معالجة الإدغام • وعالج المبرد فى كتابه « المقتضب » الإدغام فى الجزء الأول وقدم له بدراسة للأصوات ومخارجها • كذلك أنهى الزجاجى كتابه « الجمل » بالحديث عن الإدغام ، ومهد لحديثه ببعض الأفكار الصوتية • وأنهى الزمخشرى كتابه « المفصل » بالإدغام ، وقدم بين يديه دراسة للأصوات •

٢ ـــ كما تناول أصحاب المعاجم بعض المشكلات الصوتية ، إما فى مقدمات معاجمهم ، أو فى ثنايا المـــادة اللغوية المجموعة • ويبدو الاهتمام بهذا النوع من الدراسة فى المعاجم التى رتبت صوتيا واتبعت نظـــام

التقليبات « كالعين » للخليل ، أو اتبعت نظام التقليبات فقط « كالجمهرة » لابن دريد .

وقد تناولت مقدمة « العين » — التى شغلت ست عشرة صفحة من المطبوعة — المشكلات الصوتية الآتية :

(أ) ترتيب الحروف ترتيبا صوتيا [1] .

(ب) اعتبار الراء واللام والنون ذات وضع خاص وتسميتها بحروف الذلاقة لأنها تخرج من ذلق اللسان أى بطرف أسلته . ولا ينطق طرف اللســان إلا بالراء واللام والنون فقط . وألحق الخليل بهذه الثلاثة ، الفاء والباء والميم لأنهــا شفوية ، وسحب عليها اسم الذلاقة كذلك [2] .

(ﺣ) تصريحه بأن حروف الذلاقة الستة أسهل من غيرها فى النطق ، ولذا تكثر فى أبنية الكلام ، ولا يخلو أى بناء رباعى أو خماسى منها أو من بعضها [3] .

(د) الحديث عن مخارج الأصوات تفصيلا [4] .

وسوف نتعرض لبعض هذه المباحث بشىء من التفصيل فيما بعد .

أما مقدمة « الجمهرة » فقد تناولت جميع النقاط السابقة مع شىء من التفصيل فى بعضها ، وزادت ما يأتى :

---

(١) صفحة ٥٣ .
(٢) ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٣) ص ٥٨ ثم ص ٦٤ و ٦٥ على التوالى .
(٤) نفس المرجع .

(أ) الحديث عن نسـج الكلمة العربية والحـروف التى تأتلف أو لا تأتلف كقولها : لم نأتلف القاف والكاف فى كلمة واحدة إلا بحواجز ، وكذلك حالهما مع الجيم — القاف والكاف جاءت مع الشين — جمعوا بين الشين والجيم — الحروف اذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها اذا تباعدت — الحاء والعين لم نأتلف فى كلمة واحـدة — أصعب الحروف حروف الحلق .

(ب) حديثها عن الأصوات الرخـوة والأصوات المطبقة والأصوات الشـديدة .

(هـ) تعرضها لنسبة تردد الأصوات فى اللغة العربية ، وادعاؤها أن أكثر الحروف استعمالا فى اللغة هى الواو والياء والهاء ، وأقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم الـلام ثم الراء ثم الباء ثم الميم [1] .

٣ — وأسهم علماء التجويد والقراءات القرآنية بقدر لا يجحد فى هذا الميدان ، ولسنا نملك لهذا النوع من الدراسة مادة كافية تسـمح بتتبع تطوره ووصف المراحل التى قطعها حتى صار علما مستقلا هـو « علم التجويد » وكل الذى يعـرف عن مراحـله الأولى أن أول من استخدم هذه الكلمة فى معنى قريب من معناها هو ابن مسعود الصحابى الذى كان ينصح المسلمين بقوله : « جودوا القرآن وزينوه بأحسـن الأصوات » ، والذى يروى البخارى ومسلم فى شأنه أنه كان يتفنن فى تجويد القرآن وترتيله وأن الرسول ﷺ كان يجهش بالبكاء حينما يسمع القرآن بترتيل ابن مسعود . ويبدو أن نشأة علم التجويد جاءت استجابة لدعوة ابن مسعود ، ومحـاولة لتقنين قواعد القراءة اقتفـاء لأثره . وأصبح كل كتاب للتجويد — فيما بعد — يشتمل — الى جانب قواعد

---

(١) الجمهرة ١/٦ — ١٣ .

التلاوة — على فصل فى مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها كما فعل ابن الجزرى فى كتابه « النشر » الذى خصص سبع صفحات فيه لهذا المبحث وحده . كذلك ترددت فى كتب التجويد مصطلحات صوتية مثل الإشمام ، والإشباع ، والاختلاس ، والمد ، والتفخيم ، والترقيق ، ونحوها [1] .

٤ — وأدلى المؤلفون فى إعجاز القرآن وعلوم البلاغة بدلوهم مع الدلاء وزودونا بمعلومات صوتية ذات قيمة . ومعظم ما شغلهم من مباحث الأصوات يتعلق بتنافر الأصوات وتآلفها ، واستتبع هذا بالضرورة حديثا عن مخارج الحروف وهل للقرب أو البعد المخرجى دخل فى التنافر أو التآلف ونضرب على هذا النوع من الدراسة الأمثلة الآتية :

(أ) يقول الرمانى (القرن الرابع) فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » ، بعد أن قسم الكلام الى متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا : « والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله . والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف . فكلما كان أعدل ، كان أشد تلاؤما وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد وذلك أنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان .. ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو من أقصى الحلق ، ومنها ما هو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط بين ذلك » [2] .

---

(١) Tajwid as a Source in Phonetic Research صفحات ١١٤ ، ١١٨ ، ١١٩ . وانظر دائرة المعارف الاسلامية — مادة تجويد ، ففيها معلومات عن موضوعات فن التجويد وان لم يكن فيها أى ترتيب تاريخى .

(٢) ص ٨٧ — ٧٩ .

(ب) ويقول ابن سنان الخفاجى (القرن الخامس) فى كتابه « سر الفصاحة » : « وقد ذهب على بن عيسى [١] أيضا الى أن التنافر أن تتقارب الحروف فى المخارج أو تتباعد بعدا شديدا ، وحكى ذلك عن الخليل ابن أحمد ويقال إنه اذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، واذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده الى مكانه وكلاهما صعب على اللسان . والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال » . ويعقب ابن سنان الخفاجى على ذلك بقوله :

« والذى أذهب أنا إليه .. لا أرى التنافر فى بعد ما بين مخارج الحروف وإنما هو فى القرب . ويدل على صحة ذلك الاعتبار كلمة (ألم) فهى غير متنافرة ، وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج — لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافراً لأنه على غاية ما يمكن من البعد .. ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجها فى التنافر على ما ذكره . فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على أن التنافر فى قرب الحروف دون بعدها لأنهما لا يكادان يردان فى الكلام إلا فرارا من تقارب الحروف . وهذا الذى يجب عندى اعتماده ، لأن التتبع والتأمل قاضيان بصحته » [٢] .

(حـ) وقد ضمن أبو بكر الباقلانى (القرن الرابع) كتابه المشهور « إعجاز القرآن » كثيرا من المباحث الصوتية ، بقصد تحليل آيات القرآن ، وبيان أوجه إعجازها . وأهم ما ذكره فى هذا الخصوص يتعلق بفواتح السور وسر اختيار حروف معينة لها . ومن ذلك قوله :

١ — « إن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا

(١) هو الرمانى .

(٢) ملحق بمجموعة « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن » ص ١٦٩ .

وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة • وجملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره • والذى تنقسم إليه هذه الحروف ••• أقسام •• فمن ذلك أنهم قسموها الى حروف مهموسة وأخرى مجهورة • فالمهموسة منها عشرة وهى الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفـاء والتاء والصاد والسين . وما سـوى ذلك من الحروف فهى مجهورة • وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة فى جملة الحروف المذكورة فى أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان » [١] •

٢ — ويذكر الباقلانى كذلك أن نصف حروف الحلق (العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين) وهو العين والحاء والهاء قد ورد فى هذه الفواتح • وكذلك النصف من الحروف التى ليست بحروف حلق • كما يذكر أن نصف الحروف الشديدة (الهمزة والقاف والكاف والجيم والتاء والدال والطاء والباء) وهو الطاء والقاف والكاف والهمزة مذكورة فى جملة تلك الحروف : وكذلك نصف الحروف المطبقة (الطاء والضاد والصاد والظاء) وهو الطاء والصاد مذكور فى الفواتح [٢] •

٣ — ويقول عن البدء بحروف (ألم) : « لأن الألف المَبدوء بهـا هى أقصاها مطلقا ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة ، لأنها تأخذ فى الشفة ، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعـارفون من الحـروف التى تتردد بين هـذين الطرفين » [٣] •

٤ — كذلك شارك أصحاب الموسوعات الأدبية فى هذا الحقل ، وعلى

---

(١) ص ٦٦ •
(٢) ص ٦٧ — ٦٨ •
(٣) ص ٦٨ — ٦٩ •

رأسهم الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » . ونكتفى بضرب بعض الأمثلة من بيان الجاحظ باعتبارها تمثل هذا النوع من البحوث :

(أ) مما تعرض له الجاحظ عيوب النطق سواء كانت ناتجة عن سرعة أو سبب عضوى ، أو لثغة ، أو لكنة أجنبية .

أما العيب الناتج عن السرعة فقد سماه اللفف ، وعرفه بأن يدخل المتكلم الكلام بعضه فى بعض .

وأما العيب الناتج عن سبب عضوى مثل سقوط بعض الأسنان فقد مثل له الجاحظ بخطيب اسمه الجمحى أصاب فى خطبته ، ولكنه كان نازعا بعض أسنانه فكان فى كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة . ونقل الجاحظ فى مكان آخر ملاحظة لمحمد بن عمرو الرومى عن سقوط جميع الأسنان وهى « قد صحت التجربة ، وقامت العـبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصـلح فى الإبانة عن الحروف منه اذا سـقط أكثرها ، وخالف أحد شطريها الشطر الآخر » .

أما اللثغة فقد عالجها الجاحظ فى شىء من الاستفاضة ، وتعرض للحروف التى تدخلها ، وذكر أنها أربعة هى القاف والسين واللام والراء فلثغة القاف تكون بقلبها طاء ، والسين بقلبها ثاء ، واللام بقلبها ياء أو كافا ، والراء بقلبها ياء أو عينا أو ذالا أو ظاء .

وتعرض الجاحظ كذلك للكنة التى تبـدو فى كلام الأعجمى اذا نطق اللغة العربية كنطق السـندى الجيم زايا ، والنبطى الزاى سينا والعين همزة [1] .

(ب) كذلك تناول الجاحظ نسـج الكلمة العربية ، وعدم اجتماع

---

(١) ١/٣٤ — ٣٨ ، ٥٨ ، ٧٠ — ٧٤ . وانظر كذلك ص ١٥ . وتعرض الجاحظ كذلك لجملة من عيوب النطق مثل التمتمة والحبسة والعقلة والحكلة والتلعثم . . (انظر : بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ ص ٦١ ، ٦٢) .

بعض الحروف مع بعض ، وذلك فى قوله : « فأما اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير . والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال .. وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التى اليها يجرى » (١) .

(حـ) وينقل الجاحظ الزعم أن الياء واللام والألف والراء أكثر الحروف ترددا من غيرها ، وأن الحاجة إليها أشد ، ثم يعقب بقوله : « واعتبر ذلك بأن تأخذ عدة رسائل ، وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فإنك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحروف الحاجة إليها أشد » (٢) .

ومنهج الجاحظ فى هذه التجربة الصوتية يعد أحدث منهج متبع الآن ، وهو أخذ عينة من المادة اللغوية المدروسة ثم استخلاص النتائج منها والانتهاء بتعميم الحكم .

* * *

وأول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابن جنى المتوفى عام ٣٩٢ هـ فى كتابه « سر صناعة الإعراب » (٣) الذى تناول الموضوعات الصوتية الآتية :

١ — عدد حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها .

٢ — بيان الصفات العامة للأصوات وتقسيمها باعتبارات مختلفة .

٣ — ما يعرض للصوت فى بنية الكلمة من تغيير يؤدى الى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف .

---

(١) ٦٩/١ . (٢) ٢٢/١ .

(٣) رجعنا الى تحقيق مصطفى السقا للجزء الأول . وقد حقق الكتاب كاملا ونشر مؤخرا فى دمشق بتحقيق الدكتور حسن هنداوى .

٤ — نظرية الفصاحة فى اللفظ المفــرد ورجوعها الى تأليفه من أصوات متباعدة المخارج (١) . ويقــول ابن جنى فى مقــدمة كتابه : « وأذكر أحوال هذه الحروف فى مخارجها ومدارجها ، وانقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها ، وشديدها ورخوها ، وصحيحها ومعتلها ، ومطبقها ومنفتحها وساكنها ومتحركها .. الى غير ذلك من أجناسها . وأذكر فرق ما بين الحرف والحركة . وأذكر أيضا الحروف التى هى فروع مستحسنة والحروف التى هى فروع مستقبحة ، والحركات التى هى فروع متولدة عن الحركات كتولد الحروف عن الحروف . وأذكر أيضــا ما كان من الحروف فى حال سكونه له مخرج فإذا حرك أقلقته الحركة وأزالته عن محــله فى حال ســكونه » (٢) :

ويجدر بنا ونحن نتحــدث عن ابن جنى أن ننبه الى شيئين اثنين :

(أ) أن ابن جنى كان أول من استعمل مصطلحا لغويا للدلالة على هذا العلم مازلنا نستعمله حتى الآن وهو « علم الأصوات » (٣) .

(ب) أن ابن جنى يعتبر الرائد فى هذه الدراسة ، وكان على حق فى قوله فى كتابه : « وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض فى هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الإشباع » (٤) .

وسوف نعرض فيما بعد نتفا من آراء ابن جنى الصوتية .

وأخيرا نشير الى عمل لابن سينا الفيلسوف المشهور يدخل تحت الدراسة الصوتية وهو رسالته « أسباب حدوث الحروف » التى طبعت بالقاهرة عام ١٣٣٢ هـ بتحقيق محب الدين الخطيب ، وفى طهران عام

---

(١) مقدمة المحققين ص ١٤ .
(٢) مقدمة المؤلف ص ٣ . وانظر التفكير الصوتى عند العرب ص ٤ .
(٣) ص ١٠ . (٤) ص ٦٣ .

١٣٣٣ هـ [(١)] ، وفى بيروت عام ١٩٦٢ بتحقيق فؤاد حنــا ترزى ، وفى دمشق عام ١٩٨٣ . والرسالة — بالاضافة الى مقدمتها — مقسمة الى الفصول الستة الآتية :

١ — الفصل الأول سبب حدوث الصوت .

٢ — الفصل الثانى جعل عنوانه « سبب حدوث الحروف » ، وفيه يتحدث عن مخارج الأصوات ومحابسها .

٣ — وخصص ابن سينا الفصل الثالث لتشريح الحنجرة واللسان .

٤ — وفى الفصل الرابع يعالج ابن سينا الحروف العربية ويبين كيفية صدور كل حرف منها ويصف العملية العضوية مع كل حرف وصفا مفصــلا .

٥ — أما الفصل الخامس فقد خصصه ابن سينا لأصوات سمعها فى لغات أخرى غير العربية مثل السين الزائية والزاى السينية والزاى الظائية والفاء الشبيهة بالباء .

٦ — وأنهى ابن سينا رسالته بفصل فريد بين فيه كيفية انتــاج هذه الأصوات بحركات غير نطقية ، كالشين التى تســمع « عن نشيش الرطوبات » والطاء التى « تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان » [(٢)] .

---

(١) مقدمة التحقيق لطبعة دمشق . وقد ترجمت الى الانجليزية والروسية والالمانية كما أعيد طبعها فى طهران عام ١٣٤٩ .

(٢) أصوات اللغة عند ابن سينا للدكتور ابراهيم أنيس فى أماكن متعددة ، الى جانب الرسالة نفسها . وقد ولد ابن سينا عام ٣٧٠ أو ٣٧٣ أو ٣٧٥ هـ فى قرية افشنة قرب بخارى ، وتوفى عام ٤٢٨ هـ فى همذان ، بعد أن ترك ما يزيد على مائتين وخمســين مؤلفــا من بينها اربعــة مؤلفات فى اللغــة والنحــو .

آراء ابن سينا الصوتية :

(أ) طبيعة الصـــوت :

تناول ابن سينا طبيعة الصوت فى رسالته « أسـباب حـدوث الحروف » ، وفى كتابه « الشفاء » فى فصل السمع • وقد انتهى الى أن العملية الصوتية تتضمن عناصر ثلاثة هى :

١ — وجود جسم فى حالة تذبذب •

٢ — وجود وسط تنتقل فيـه الذبذبة الصـادرة عن الجسـم المتذبذب •

٣ — وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات .

وهو نفس ما انتهى اليه المحدثون من علماء الأصوات •

وقد عبر ابن سينا عن العنصر الأول باشتراط وجود قرع أو قلع « أما القرع فمثل ما تقرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت • وأما القلع فمثل ماقلع أحد شقى مشقوق عن الآخر ، كخشبة تنحى عليهـا بأن تبين أحد شقيها عن الآخر طولا » • واشترط لإحداث القرع أو القلع صوتا أن يكون كل منهما بقوة معينة « فإن قرعت جسما كالصوف بقرع لين جدا لم تحس صوتا • بل يجب أن يكون للجسم الذى تقرعه مقاومة ما ، وأن يكون للحركة التى للمقروع به الى المقروع عنف صادم •• وكذلك اذا شققت شيئا يسيرا وكان الشىء لاصلابة له لم يكن للقلع صوت ألبتة » [1] •

وعبر عن العنصر الثانى ، وهو وجود وسط ناقل للذبذبات بقوله : « أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أى سبب كان » ، وقوله : « وهذا الشىء الذى فيه هذه الحركات شىء

---

(١) الشفاء ص ٨٢ ، وأسباب حدوث الحروف . الفصل الأول .

رطب سيّال لا محالة ، إما ماء ، وإما هواء • فيكون مع كل قرع وقلع حركة للهواء أو ما يجرى مجراه ، إما قليلا قليلا برفق ، وإما دفعة على سبيل تموج أو انجذاب بقوة • فقد وجب أن هاهنا شيئا لابد أن يكون موجودا عند حدوث الصوت ، وهو حركة قوية من الهواء ، أو ما يجرى مجـراه » (١) •

أما الجسم المستقبل للذبذبات فقد تحدث عنه فى كتابيه الشفاء وأسباب حدوث الحروف ، وذلك فى قوله فى الأول : « فإذا انتهى التموج من الهواء أو المـاء الى الصماخ ، وهناك تجويف فيه هواء راكد يتموج بتموج ما ينتهى اليه ، ووراءه كالجدار مفروش عليه العصب الحاس للصوت — أحس بالصوت » (٢) • وفى الثانى : « ثم ذلك الموج يتأدى الى الهواء الراكد فى الصماخ فيموجه فيحس به العصبة المفروشة فى سطحه » (٣) •

ومن اللافت للنظر كذلك أن يتنبه ابن سينا الى قابلية الأذن لإدراك الأصوات بمعدلات معينة للتردد والتوتر لها حد أدنى وحد أعلى ، وأن يتنبه الى أن زيادة شدة الصوت عن مقدار معين تسبب الأذى والإزعاج للسامع ، وذلك فى قوله : « القرع الشديد يحدث صوتا يضر السمع » وقوله : « والتموج الفاعل للصوت قد يحس حتى يؤلم » • بل يصرح ابن سينا بقدرة الأصوات الشديدة على تحطيم الأشياء « فإن صـوت الرعد قد يعرض منه أن يدك الجبال ، وربما ضرب حيوانا فأفسده • وكثيرا ما يستظهر على هدم الحصون العالية بأصوات البوقات » (٤) •

---

(١) الشفاء ص ٨٣ ، وأسباب حدوث الحروف — للفصل الأول •
(٢) ص ٨٤ •
(٣) الفصل الأول •
(٤) الشفاء ص ٨٣ ، ٨٤ •

(ب) مخرج الصوت الإنسانى وصفاته :

يستخدم ابن سينا للتعبير عن انتاج الصوت لفظ الحبس ومشتقاته • أما كلمة المخرج فيبدو أنه يستخدمها للإشارة الى مجرى الهواء أو طريقه الذى يكون إما نحو الأنف أو الفم • وقد تردد فى كلامه ألفاظ المخرج والمخارج والحبس والحابس والمحبوس والمحابس ••

ويرى ابن سينا أن الذى يميز الحرف (الصوت) عن الحرف (الصوت) جملة عوامل منها :

١ — اختلاف نقطة التحكم فى مجرى الهواء « بسبب اختلاف الأجرام التى يقع عندها وبها الحبس والإطلاق ؛ فإنها ربما كانت ألين ، وربما كانت أصلب ، وربما كانت أيبس ، وربما كانت أرطب •• وقد يكون الحابس أصغر وأعظم ، والمحبوس أكثر وأقل ، والمخرج أضيق وأوسع ، ومستدير الشكل ، ومستعرض الشكل مع دقة ، والحبس أشد وألين ، والضغط بعد الاطلاق أحفز وأسلس •• » [1] •

٢ — اختلاف حال التموج (بعد أن ذكر أن فن التموج إنما يفعل الصوت) : « وأما حال التموج فى نفسه من اتصال أجزائه وتماسها ، أو تشظيها بها فيفعل الحدة والثقل . أما الحدة فيفعلها الأولان ، وأما الثقل فيفعله الثانيان » [2] •

ويفسر الدكتور ابراهيم أنيس الحدة والثقل بأحد تفسيرين :

أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير الى درجة الصوت pitch لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل • فأجزاء الموجة فى الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة •

---

(١) اسباب حدوث الحروف — الفصل الثانى •

(٢) السابق — الرواية الأولى من طبعة ايران •

الأمر الثانى أن ابن سينا فى هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفا على طبيعة الجسم المقروع • فهو فى حالة اتصال أجزائه وتماسكها ، أى حين تكون ذات كثافة كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حادا على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالخشب مثلا يكون ثقيلا (١) •

٣ — اختلاف طريقة التحكم فى الهواء عند نقطة الانتاج (المحبس) • وقد ذكر ابن سينا فى هذا الخصوص طريقتين هما :

أ — الحبس التام للصوت •

ب — الحبس غير التام للصوت •

وقد عبر عن هذين بقوله : « والحروف بعضها — فى الحقيقة — مفردة ، وحدوثها عن حبسات تامة للصوت أو للهواء الفاعل للصوت يتبعها اطلاق دفعة • وبعضها مركبة وحدوثها عن حبسات غير تامة لكن مع اطلاقات (٢) •

وهنا نلاحظ أن ابن سينا يستعمل المصطلحين : مفردة ومركبة فى مقابل مصطلحى سيبويه : شديدة ورخوة ، والمصطلحين الحديثين : انفجارية (وقفية) واحتكاكية •

وقد فرّق ابن سينا بين الحروف المفردة والحروف المركبة قائلا : « وهذه المفردة تشترك فى أن وجودها وحدوثها فى الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق • وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكّن بالحبس ، وزمان الإطلاق ليس يسمع فيه شىء من هذه الحروف لأنها لا تمتد ألبتة ، إنما هى مع إزالة

---

(١) أصوات اللغة عند ابن سينا ص ١٧٨ ، ١٧٩ •

(٢) أسباب حدوث الحروف — الفصل الثانى •

الحبس فقط • وأما الحروف الأخرى فإنها تشترك فى أنهـا تمتد •• فى الزمان الذى يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق [1] •

وقد قسم ابن سينا الحروف المفردة (الوقفية) الى نوعين :

أ — مفردة (على الإطلاق) •

ب — مفردة من وجه •

أما المفردة على الإطلاق فهى : الباء والتاء والجيم والدال والطاء والقاف والكاف والهمزة •

وأما المفردة من وجه فهى : الضاد واللام والميم والنون •

وقد أصاب ابن سينا فى هذه التفرقة بين النوعين ، واعتباره الحبس فى الأصوات الأربعة الأخيرة حبسا جزئيا فى مكان يصحبه تسريح فى مكان آخر • فالضاد — كما يذكر القـدماء — « إن شئت تكلفتها من الجـانب الأيمن ، وإن شئت من الجانب الأيسر » ، وكلام سيبويه يدل على أنهـا تكون من الجانبين • واللام — على حد تعبير سيبويه — صـوت منحرف جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة •

والميم والنون صوتان شديدان عند سيبويه يجرى معهما الصوت ، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف ، فإنما تخرجه من أنفك •

وقد اعتبر بعض المتأخرين (ابن جنى والزمخشرى وابن الجزرى وغيرهم) النون والميم واللام (مع حروف أخرى) ضمن الحروف المتوسطة ، أو بين الشديدة والرخوة •

وأما الحروف المركبة (الاحتكاكية) فلم يذكرها ابن سينا بالاسم

---

(١) السـابق •

مكتفيا بذكر مقابلاتها المفردة (الوقفية) « ولك أن تعدها عــدا » • وبعملية إسقاط للحروف المفردة يتبين أن المركبة عنده هى : الثـــاء — الحاء — الخاء — الذال — الراء — الزاى — السين — الشين — الصاد — الضاد — العين — الغين — الفاء — الهاء •

ويبقى تعليق على صوت الراء • فإذا كان التقسيم الثنائى الى شديد ورخو لم يستطع أن يشملها ، فاختصها اللغويون باسم « المكرر » (وإن اعتبروها نوعا من الشديد) فإن مصطلح « المركب » عند ابن سينا يمكن أن يشملها بسهولة ، لأن شرط التركيب فى الصوت أن « يمتد فى الزمان الذى يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق » ، وهو ما ينطبق على الصوت المكرر : الراء ، كما ينطبق على الأصوات الاحتكاكية •

جـ — أصــوات العربيــة :

خص ابن سينا أصوات اللغة العربية بفصل فى رسالته ، هو الفصل الرابع الذى عنونه « فى الأسباب الجزئية لحرف حرف من حروف العرب » • وقد عالج ابن سينا فى هذا الفصل الأصوات صوتا صوتا على الترتيب التالى :

الهمزة — الهاء — العين — الحاء — الخاء — الغين — القاف — الكاف — الجيم — الشين — الضاد — السين — الصاد — الزاى — الطـــاء — التاء — الدال — الثاء — الذال — الظاء — اللام — الراء — الفاء — الباء — الميم — النون — الواو الصامتة — اليـــاء الصامتة — المصوتات : الألف الصـــغرى والكبرى — الواو الصغرى والكبرى — الياء الصغرى والكبرى •

وأول ما يلفت النظر فى ترتيب ابن سينا ما يأتى :

١ — تفريقه بين الســواكن والعلل ، وتسميته الأولى صوامت والثانية مصوتات •

٢ — تفريقه بين نوعين من الواو والياء • فنوع أدرجه فى الصوامت ، ونوع أدرجه فى المصوتات •

٣ — تفريقه بين الحركة القصيرة والحركة الطويلة (الصغرى والكبرى) •

٤ — اتباعه الطريقة العربية التى ترتب الأصوات من الداخل الى الخارج •

ويتميز ترتيب ابن سينا بما يأتى :

١ — عدم وضعه الألف بجوار الهمزة بخلاف ما فعل سيبويه وابن جنى . وإن وضع الألف مع أصوات الحلق من أخطاء اللغويين القدماء ، وإن حاول بعضهم الدفاع عنه •

٢ — تقديم القاف على الكاف مخالفا فى ذلك سيبويه •

٣ — إبعاد الواو والياء الى ما بعد الانتهاء من الصوامت •

٤ — تأخير أحرف العلة الثلاثة (قصيرها وطويلها) الى ذيل القائمة •

فكأن ابن سينا قد راعى البدء بالصوامت ثم أشباه المصوتات ثم المصوتات •

٥ — وضع الميم والنون متتاليين رغم اختلاف مخرجهما لاشتراكهما فى صفة الأنفية •

٦ — أما وضع الراء واللام عند ابن سينا ففيه نظر • ولعله تبع فيه ترتيب الخليل بن أحمد فى معجمه العين •

أما حديثه عن مخارج الأصوات وصفاتها وكيفيات نطقها فنجد فيه تفصيلا دقيقا لا نجده فى كتب اللغويين • وقد أعانه على ذكر الحركات العضوية ، وعلى تحديد العضلات والمفاصل المشتركة فى انتاج الصوت

خبرته العملية الواسعة بتركيب جسم الانسان وبتشريح أعضائه . ومن أمثلة ذلك قوله :

١ — أما الهمزة فإنها تحدث عن حفز قوى من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير ، ومن مقاومة الطرجهالى (١) الحاصر زمناً قليلا لحفز الهواء ، ثم اندفاعه الى الانقلاع بالعضلة الفاتحة وضغط الهواء معاً .

٢ — وأما الحاء وإن شاركت العين فإنها تخالف العين فى هيئة المخرج وفى المحبس وفى القوة وفى جهة مخلص الهواء . فإن الفرجة بين الغضروفين السافلين تكون أضيق ، والهواء يندفع أميل الى قدام ، ويصدم حافة التقعير الذى كان يصدمه هواء العين عند الخروج . وتلك الحافة صلبة والدفع فيها أشد فيقسر الرطوبة ويميلها الى قدام ..

٣ — وأما الثاء فتخرج باعتماد من الهواء عند موضع التاء بلا حبس وتحبس عند طرف الأسنان ليصير الخلل أضيق فيكون صفير قليل مع القلع .

وكأن الثاء سين تلوفيت بحبس فرّج مسلك هوائها الصفّار .

٤ — وحدوث اللام بحبس من طرف اللسان رطب غير قوى جدا ، ثم قلع الى قدام قليلا ، والاعتماد فيها على الجزء المتأخر من اللسان المماس لما فوقه أكثر من الاعتماد على طرف اللسان . وليس الحفز للهواء بقوى . ولو كان الحفز والشد قويا خرج حرف كالطاء .

٥ — وإن كان طرف اللسان متعرضا للموضع الذى يمسه فى اللام من غير مس صادق ، ولا التصاق رطوبة ، ثم عرّض حافتاه بالعضلتين المطولتين تعريضا أقوى من تعريض الطرف نفسه ، وحمل عليه الهواء حتى نفضه وأرعده كما يفعل الريح بكل لين متعرض له متعلق

---

(١) هو الغضروف الثالث من غضاريف الحنجرة فى تشريح ابن سينا .

من طرف منه بشيء ثابت حدث منه حرف الراء ، وسمع التكرير الذى فيه للارتعـــاد قدما •

٦ — وأما الميم فإن الحبس فيها تام وبأجرام من الشفة أيبس وأخرج • وليس تسريب الهواء مع القلع الى خارج الفم كله ، بل يصرف بعضه بحفز قوى الى التجويف الذى فى آخر المنخر ليدور فيه ويفعل دوياً ، ثم يطلقان معاً •

وقـــد فطن ابن سينا الى وجـــود أثر سمعى يصاحب نطق بعض الأصوات كالزاى والذال والغين •• (وهو ما سماه اللغويون بالجهر) وحاول تفسيره من الناحية العضوية • وعلى الرغم من أن تفسيره تعوزه الدقة العلمية فهو أقرب الى القبول من تفسير اللغويين • يقول سيبويه معرّفا الصوت المجهور بأنه « حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت » ونفس التعريف بألفاظه نجده عند ابن جنى وغيره •

أما ابن سينا فيقول عن صـــوت الزاى مفرقا بينـــه وبين السين والصاد : « وأما الزاى فإنها تحدث أيضا قريبا من الموضع الذى يحدث فيه السين والصاد • ولكن يكون طرف اللسان فيها أخفض ، وما بعده أرفع وأقرب من ســـطح الحنك كالماس بالعرض أجزاء دون أجزاء • ولكنها أقل أخذا فى الطول مما يأخذه المقرب من سطح الشجْر والحنك فى السين • والغرض من ذلك أن يحدث هناك اهتزاز على سطح اللسان وسطح الحنك ليجتمع ذلك الاهتزاز مع الصفير • وأما فى سائر الأشياء فهو كالسين • ويكاد للاهتزاز الذى يقع فى الزاى أن يكـــون تكريرا كالتكرير الواقع فى الراء » •

ويقول عن صوت الغين : « ويكون الاهتزاز فى تلك الرطوبة أكثر منها فيما سلف (مع الخاء) » • ويقول عن الذال إنها « تفارق الثاء فى الاهتزاز » •

ومعنى هذا أن ابن سينا قد فطن الى وجـود اهتزاز يصاحب نطق الزاى والذال والغين .. وأن هذا الاهتزاز فى تكراره يشبه التكرار الواقع فى الراء . وهذه نقطة تحسب فى صالحه . ولكن الشىء الـذى يؤخذ عليه هو عدم اهتدائه الى العضو المهتز . إذ جعله ابن سـينا سطح اللسان ، أو سطح الحنك أو الرطوبة ، مع أنه فى الواقع الوتران الصوتيان فى منطقة الحنجرة . ويبدو أن وجود الوترين الصوتيين فى فى موضعهما المذكور لم يهتد إليه القدماء ، ولذا لم يرد لهما ذكر فى الكتب الطبية والتشريحية العربية . نعم قد ورد فى كتابات ابن سينا وغيره مصطلح « الجسم الشبيه بلسان المزمار » أو « الشىء الذى يسمى لسان المزمار » أو « الجسم المعروف بلسـان المزمار » كما ورد فى كتابات ابن سينا أن آلة الصوت « الحنجرة والجسم الشبيه بلسان المزمار ، وهى الآلة الأولى الحقيقية ، وسائر الآلات بواعث ومعينات » [1] .

وذكر ابن القف أن لسان المزمار « هو الآلة الأولى فى الصوت ، ويسمى بهذا الاسم لأنه يشبه لسان المزمار فى شكله وفعله ووضعه .. فإنه موضوع فى الحنجرة فى الموضع الذى يوضع فيه لسان المزمار فى المزمار .. وقد جعل له الفعل الذى للسـان المزمار فى المزمار وهـو التلحين » [2] ولكن ليس من السهل التسليم بأنهما يريدان بلسان المزمار الفرجة التى بين الأوتار الصوتية كما يرجح الدكتور أنيس [3] . وأغلب الظن أنهما يريدان به ما يقابل المصطلح الأجنبى epiglottis وهو مصطلح يطلق على الغضروف المفرد أعلى غضاريف الحنجرة .. الذى يقع فى مقدمة الحنجرة وخلف جذر اللسان مباشرة مشكلا جداراً أمامياً منحرفاً لمدخل الحنجرة ... ويقوم لسان المزمار بالفصل بين الهواء والغذاء أثناء البلع وذلك باندفاعه الى أسفل تبعاً لحركة جـذر اللسان والعظم

(١) انظر القانون ص ٣٩٤ ، والعمدة فى الجراحة ص ١٠٢ .
(٢) العمـدة ص ١٠٢ .
(٣) الأصوات اللغوية ص ١٤٤ .

اللامى ليغلق مدخل الحنجرة (١) . ومما يدل على أن هـذا هو المراد بلسان المزمار ، وليس الفرجة التى بين الأوتار الصوتية ما ورد فى كتاب « العمدة » من أن جالينوس سماه « طبق الحنجرة » وما ورد فيه من أنه « حال ازدراد الطعام وشرب الشراب ينطبق الجميع ويحيط بالحنجرة من داخل غشاء ملبس عليها جميعها » (٢) .

وعلى هذا يكون تفسير الجهر عند ابن سينا تفسيراً مقارباً إذ ربطه بالاهتزاز ، ولكن يظل غير دقيق لعدم اهتدائه للعضو الأساسى فى ظاهرة الجهر وهو الوتران الصوتيان .

كذلك تحـدث ابن سـينا عما سماه سيبويه بالإطباق ، وما يمكن تسميته كذلك بالتفخيم ، وهو الوصف الذى تتميز به الأصوات : ص — ض — ط — ظ .

وقد أشار سيبويه الى الإطباق بقوله (٣) : « أما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء .. وهذه الحروف الأربعة اذا وضعت لسـانك فى مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن الى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه الى الحنك . فإذا وضعت لسانك فالصوت محصـور فيما بين اللسان والحنك الى موضع الحروف » وأشـار إليه ابن جنى بقوله : « والإطباق أن ترفع ظهر لسانك الى الحنك الأعلى مطبقاً له »(٤) .

ولكننا نجد ابن سينا يتميز عليهما بوصفه التفصيلى المعتمد على تحديد ما يلحق الأعضاء المشاركة فى النطق من تعديلات . فحين يتحدث عن الصاد يقول : « ويحـدث فى اللسان كالتقعير حتى يكون لانقلاب الهواء كالدوى » . وحين يتحدث عن الطاء يقول بعد أن حدد مخرجها

---

(١) دراسة السمع والكلام ص ١٠٩ .
(٢) العمدة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) الكتاب ٤٣٦/٤ .
(٤) سر الصناعة ٧٠/١ .

وربطه بمخرج التاء والدال : « لكن الطاء يحبس فى ذلك الموضع بجزء من طرف اللسان أعظم .. وتقعر وسط اللسان خلف ذلك المحبس ليحدث هناك للهواء دوى عند الإخراج ، ثم يقلع ويكون المحبس بشد قوى » وحين يفرق بين التاء والطاء يقول : « وأما التاء فيكون مثله فى كل شيء إلا أن المحبس بطرف اللســـان فقط » . فهنا نجد لأول مرة حديثاً عن تقعر اللسان مع الأصوات المفخمة ، وعن اشتراك جزءين من اللسان فى عملية نطقها ، وهو ما لم نجده بهذا الوضوح عند اللغويين القدماء (١) .

بعض النتائج الصوتية التى توصل إليها العرب :

كان للقدماء من علماء العربية بحوث فى الأصوات اللغوية شــهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة الى عصورهم ، بل حتى بالنسبة للعصر الحديث ، برغم ما فيه من إمكانات هائلة لم تتح للقدماء ، من آلات وأجهزة للتصوير والتسجيل وتحليل الأصوات وغيرها . ويكفى العرب فخرا فى مجال الأصــوات أن يشهد لهم عالمــان غربيــان كبيران هما برجشتراسر الألمــانى ، وفيرث الإنجليزى . يقول الأول : « لم يسبق الأوربيين فى هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند ... والعرب » (٢) . ويقول الثانى : « إن علم الأصوات قد نما وشب فى خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية » .

أما أهم النتائج الصوتية التى توصل إليها العرب فهى باختصار :

١ — وضع العرب أبجدية صوتية للغــة العربية رتبت أصواتها بحسب المخارج ابتداء من أقصاها فى الحلق حتى الشفتين . وقد وضع

---

(١) تجد تطابقا بين ما قاله ابن سينا وما يقوله المحدثون . فالدكتور ابراهيم أنيس مثلا يقول عن الظاء : « فى حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللســان وأقصــاه نحــو الحنك ويتقعر وســطه » (الأصــوات اللغوية ص ٤٧ ، ٤٨) .

(٢) التطور النحــوى ص ٥ .

الخليل بن أحمد أول أبجدية من هذا النوع عرفتها اللغة العربية تشتمل على تسعة وعشرين رمزا ، وسار فيها على النحو التالى :

ع ح هـ خ غ — ق ك — ج ش ض — ص س ز — ط د ت — ظ ث ذ — ر ل ن — ف ب م — و ا ى همزة (١) .

ولكن سيبويه فى كتابه قد خالف أستاذه مخالفات جوهرية ، إذ رتبها على النحو التالى : همزة ا هـ ع ح غ خ ك ق ض ج ش ى ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و .

أما ترتيب ابن جنى فقد جاء موافقا — فى معظمه — لترتيب سيبويه ، فيما عدا وضعه القاف قبل الكاف ، وتأخيره الضاد الى ما بعد الياء (٢) .

٢ — تحدث العرب عن أعضاء النطق وسموا كلا منها مثل الرئة والحنجرة والحلق واللسان والشفتين ، وقسموا الحلق الى أقصى ووسط وأدنى ، واللسان الى أصل وأقصى ووسط وظهر وحافة وطرف (٣) .

وتحدثوا عن مخارج الأصوات بطريقة تفصيلية ، وصنفوا الأصوات بحسب المكان الذى يتم فيه التحكم فى الهواء الخارج من الرئتين . وقد حصر الخليل المخارج فى ثمانية (٤) ، وبعضهم حدد مخارج الأصوات بطريقة أدق فوصل بالرقم الى ستة عشر أو سبعة عشر مثل سيبويه وابن دريد وابن جنى وعلماء التجويد (٥) .

وقد شبه ابن جنى مجرى الهواء فى الحلق والفم بالناى قائلا : « اذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة ، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه . فكذلك

---

(١) العين للخليل ٥٣/١ .
(٢) سر صناعة الاعراب ٥٠/١ — ٥١ .
(٣) دروس فى علم الأصوات العربية لكانتينو ص١٨ ، ١٩ .
(٤) العين للخليل ٦٥/١ .
(٥) سر صناعة الاعراب ٥٢/١ ، ٥٣ ، وجمهرة ابن دريد ٨/١ .

اذا قطع الصوت فى الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة » (١) :

٣ — توصل العرب الى أن طريقة التحكم فى مجرى الهواء هامة فى إنتاج الصوت • وقد قسموا الأصوات على أساسها الى شديدة ورخوة ومتوسطة • وفسروا الشديد بأنه الحرف الذى يمنع الصوت من أن يجرى فيه ، والرخو بأنه الذى يجرى فيه الصوت • ووضعوا قائمة بأصوات كل نوع بطريقة يوافقهم عليها فى جملتها التحليل الصوتى الحديث (٢) •

٤ — فصل العرب الأصوات المطبقة عن غيرهـا ، وهى الأصوات المفخمة التى يشترك مؤخر اللسان فى النطق بها ، وذكروا أنها هى الصاد والضاد والطاء والظاء (٣) •

٥ — اهتدى العرب الى وجود رنين معين يصحب نطق الأصوات المجهورة ، ولذا قسموا الأصوات من حيث وجود هذا الرنين أو عـدم وجوده الى مجهورة ومهموسة ، ووضعوا لنا قائمة بكل نوع (٤) • وقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنه سأل سيبويه عن الفرق بين المهموس والمجهور فقال له : « المهموس اذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك فيه . ثم كرر سيبويه التاء بلسانه وأخفى فقال : ألا ترى كيف يمكن ؟ وكرر الطاء والدال وهما من مخرج التاء فلم يمكن • قال وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصـل الى تبين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر • فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصـدر ويجرى فى الحلق •• أمـا المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها •• والدليل على ذلك أنك اذا أخفيت همست بهـذه الحروف ولا تصل الى ذلك فى المجهور ••• » (٥) •

---

(١) سر صناعة الاعراب ٩/١ •
(٢) المرجع ٦٩/١ ، ٧٠ ، وجمهرة ابن دريد ٨/١ ، وكانتينو ص ٣٥ ، ٣٦ •
(٣) جمهرة ابن دريد ٨/١ •
(٤) سر صناعة الاعراب ٦٨/١ ، ٦٩ •
(٥) الأصوات اللغوية للدكتور انيس ، ص ٨٩ نقلا عن مخطـوطة دار الكتب لشرح السيرافى لكتاب سيبويه •

ويعلق الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس على عبارة سيبويه بقوله : إنها تتضمن آراء قيمة فى الدراسة الصوتية تتفق مع أحدث النظريات الحديثة الى حد كبير . فسيبويه يرشدنا هنا الى وسيلة أخرى لتمييز المهموس من المجهور وذلك عن طريق إخفاء الصوت ، وأنه يمكن هذا الإخفاء فى المهموسات دون أن تفقد معالمها . أما الإخفاء فى المجهورات فيترتب عليه أن الحروف تضيع صفتها المميزة فلا نسمع الدال دالا حينئذ وإنما نسمع صوتا آخر هو التاء .. وكذلك يحدثنا سيبويه عما يسميه بصوت الصدر ويراه صفة مميزة للمجهور . ولعل هذا الصوت هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة [١] .

٦ — قسم العرب الأصوات الى صحيحة ومعتلة على أساس اتساع المخرج مع العلة دون الصحيحة . واهتدوا أيضاً الى السمات الخاصة التى تميز بعض الأصوات ، مثل اللام التى وصفوها بأنها حرف منحرف ، والراء التى وصفوها بأنها حرف مكرر [٢] . كذلك ميزوا فى أصوات العلة بين الفتحة والألف من ناحية ، والكسرة والياء والضمة والواو من ناحية أخرى يقول ابن جنى : « والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو . وأوسعها وألينها الألف ، إلا أن الصوت الذى يجرى فى الألف مخالف للصوت الذى يجرى فى الياء والواو . والصوت الذى يجرى فى الياء مخالف للصوت الذى يجرى فى الألف والواو . والعلة فى ذلك أنك تجد الفم والحلق فى ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين .. وأما الياء فتجد الأضراس معها سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتى اللسان وضغطته .. وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس » [٣] :

٧ — تحدث العرب عن أطوال أصوات العلة وقسموها الى قصيرة

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٩٠ .
(٢) سر صناعة الاعراب ١/٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .
(٣) سر صناعة الاعراب ١/٨ ، ٩ .

وطويلة وأطول . يقول ابن جنى « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى الألف والواو والياء . فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الكسرة والفتحة والضمة . فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو . وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة اليـاء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة . ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتى هن توام كوامل قد تجدهن فى بعض الأحيان أطول وأتم منهن فى بعض ، وذلك قولك : يخاف وينام ويسير ويطير ويقوم ويسوم . فتجد فيهن امتدادا واستطالة ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولا وامتدادا وذلك نحو يشاء .. وتقول مع الإدغام شابة ودابة » (١) .

ولكن تبقى فكرة ابن جنى فى البعضية غامضة حيث « لم يقل لنـا ما اذا كان الفرق بين حرف المد والحركة معتبرا بالثلث أو النصف أو بأى كسر آخر » (٢) .

٨ — ومن الدراسات الصوتية التى قدمها العرب حديثهم عن ائتلاف الحروف وكيفية بناء الكلمة العربية . وقد لاحظ الخليل أن اللغات تختلف فى ذلك ، وما قد يتلاءم مع أمة ربما لا يتلاءم مع أمة أخرى . ولاحظ أيضاً أن الأذن العربية قد تستسيغ أصواتا معينة لا يستسيغها غيرها ، وأن اللسان العربى قد ينطق بتركيب خاص لا ينطق به لسان غيره ، وأن العرب كانوا يأبون تأليفا خاصا من الكلمات لا يأباه غيرهم ، مثل إبائهم اجتماع واوين أول الكلمة ، والابتداء بالساكن ، واجتماع حرفين ساكنين .

كذلك تحدث الخليل وسيبويه عما يسمى بالانسجام الصوتى مثل

---

(١) المرجع ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) التفكير الصوتى عند العرب ص ١٦ .

إبدال السين صادا فى كلمة مثل السويق ، وإبدال الصاد زايا فى بعض اللغات اذا كانت الصاد ساكنة ويعدها صوت مجهور مثل « يصدق » التى ينطقها بعضهم « يزدق » • وعللا هذه الظاهرة بقولهما : « ليكون عمل اللســان من وجه واحــد » • ويعنيان بذلك الاقتصاد فى الجهد العضلى • وتلك نظرية يقرهما عليها علم اللغة الحديث ، وممن نادى بها Andre Martinet إذ صرح بأن التغييرات الصوتية الهامة فى اللغة ترجع أساساً الى الميل الى استعمال الوسائل الفونيمية فى اللغة اقتصاديا ، وبطريقة سهلة بقدر الإمكان •

تعقيب :

ولنا على آراء العرب الصوتية الملاحظات الآتية :

١ ــ أننا اذا تصفحنا الكتب العربية التى عرضت للأصوات وصفاتها وأسمائها ، وجدنا أصحابها مقلدين لا مجددين وتابعين لامتبوعين • فهم لم يزيدوا على ما وضعه الخليل وسيبويه إلا قليلا • بل إنك لتجد العبارة هى العبارة وحتى الغموض هو الغموض • ونتبع تعريف « المجهور » بعد سيبويه تجده هو تعريف سيبويه برغم ما فيه من إبهام وتعقيد •• فسيبويه يعرفه بأنه « حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت » والتعريف بحروفه فى سر صناعة الإعراب لابن جنى وكذا فى شرح مفصل الزمخشرى [١] •

٢ ــ عدم توحيد المصطلحات بينهم وغموض بعضها • ومن ذلك « الحروف المصمتة » [٢] و « الشجرية » و « المتفشية » • ومن ذلك استخدام سيبويه مصطلح الإطباق فى مقابل مصطلح الخليل : الاستعلاء • واستخدام ابن جنى « المقطع » وابن سينا « المحبس » بمعنى « المخرج » •

---

(١) الأصوات اللغوية ، ص ١٢٠ •

(٢) الجمهرة ١/٧ ، ١٣ •

٣ — أهمل العلماء العرب دراسة النبر إهمالا تاما ، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتبين مواضع النبر فى العصور الإسلامية الأولى .

ولعل سر هذا الإهمال أن النبر ليس فونيما فى اللغة العربية .

٤ — أهمل العلماء العرب دراســـة المقاطع وأشكالها وأجزائهـــا إهمالا تاما .

٥ — افترض اللغويون العرب وجود حركة قبل أصوات العلة الطويلة من جنسها فزعموا وجود فتحة قبل الألف فى « قال » وكسرة قبل الياء فى « يرمى » وهذا خطأ ، لأنه ليس هناك فتحة ولا كسرة ، لأن الألف نفسها هى الحركة والياء نفسها هى الحركة ، ولكن كلا منهما حركة طويلة .

٦ — عدم تمثيلهم أصوات العلة القصيرة فى الكتابة أول الأمر ، ثم تمثيلهم لها فى فترة متأخرة برموز تثبت فوق الصوت الساكن أو تحته (١) أى مع النظرة إليها باعتبارها أصواتا ثانوية ، على الرغم من أنها أكثر أهمية من الأصوات الساكنة ، وأكثر وضوحا فى السمع منها ، وهى التى تكون قمم المقاطع فى اللغة العربية .

٧ — ذكر سيبويه ومن تبعه الهمزة والألف معا ، ونسبوهما الى مخرج واحد هـــو الحنجرة . والألف باعتبارها حركة ، أو صوت علة طويلا لا تنسب الى الحنجرة ، فذكرها فى هذا المقام فيه نظر . وقـــد اختلفت الآراء حوله :

(أ) فمن قائل بأن سيبويه قد أخطأ ، لأن الأبجدية التى ذكرهـــا أبجدية للأصوات الساكنة ، والألف من الحركات فلا مجال لذكرها .

---

(١) سهيلة جبورى : الخط العربى ، ص ٥٧ ، ٦٠ .

وعلى فرض التجاوز عن ذلك ، فإن الألف كحركة لا تخرج من هذا المخرج ، ومن ثم لا يصح وضعها مع الهمزة أو الهاء • فالألف لا تنسب الى الحنجرة ، وإنما الى اللسان وطبيعة وضعه وضعا معينا يسمح بخروج الهواء فى أثناء النطق حرا طليقا لا يقف فى طريقه عائق •

(ب) ويرى الدكتور أيوب أن وجود ذبذبة فى الأوتار الصوتية فى أثناء النطق بالألف ربما كان السبب فى وضعه الألف مع الهمزة والهاء • ولكن حركة الأوتار الصوتية مع الهمزة أصلية فنسبت الى الحنجرة ومع الألف إضافية فلم يكن يصح أن ينسبها إليها • أو أن سيبويه قد وصف ذلك النوع من الألف المشوب بهمزة (ومن العرب من يقلب الألف همزة قلبا كاملا فيقول دأبة فى دابة وهكذا) وهى خاصة فى بعض اللهجات العربية [١] •

٨ — ذكر سيبويه صوت القاف بين المجهورات • فهل هذا خطأ منه ؟ الحقيقة أن هذا الصوت قد لحقه تطور فى النطق الحديث وأنه كان ينطق مجهورا فى القديم • والصوت الذى وصفه سيبويه قد يكون منطبقا على نطق القاف جيما قاهرية ، أو غينا • وكلا النطقين ما يزال موجودا حتى الآن فى أماكن مختلفة من البلاد العربية [٢] •

وقد لحقت صوت القاف تطورات كثيرة فى اللهجات الدارجة مما يدل على كثرة تعرضه للتطور والتغير • ومن ذلك نطقه همزة فى القاهرة وكثير من المدن العربية [٣] • وقد ثبت أن نطق القاف همزة ليس نطقا حديثا وإنما له أصول قديمة • وقد ذكر أنولتمان فى بحث له بعنوان « بقايا

---

(١) انظر بحث : الدراسات اللغوية عند العرب للدكتور أيوب — محاضرات عام ٦٧ — ٦٨ ص ٢٧ ، ٢٨ •

(٢) راجع : علم اللغة العام — الأصوات للدكتور بشر ، ص ١٣٨ وما بعدها •

(٣) راجع : كانتينو ، دروس فى علم الأصوات ص ١٠٨ وما بعدها وص ١٠٩ بخاصة •

اللهجات العربية فى الأدب العربى » (١) أن هذا التغير موجود فى أسماء الأعلام الفينيقية • وقد ذكرت كتب اللغة : تصوأ بمعنى تصوق (أى توسخ) وأفز بمعنى قفز واستنشأ بمعنى استنشق •

٩ — عد القدماء صوت الهمزة من الأصوات المجهورة • وهذا لايتفق بحال مع حقيقة وضع الأوتار الصوتية حال النطق بهذا الصوت ، إذ الأوتار الصوتية حينئذ تغلق أولا إغلاقا تاما لفترة قصيرة ثم تنفرج فجأة وبسرعة فيخرج الهواء محدثا انفجارا • وربما نطق العلماء العرب الهمزة متلوة بحركة فظنوها مجهورة ، مع أن الجهر سببه الحركة لا الهمزة •

١٠ — هناك فرق بين وصف الضاد عند سيبويه وبين الضاد الحديثة • وليس هذا نتيجة خطأ من سيبويه فى الوصف ، وإنما نتيجة التطور الذى لحق هذا الصوت (٢) •

---

(١) مجلة كلية الآداب ، مايو سنة ١٩٤٨ .

(٢) انظر فى تفصيل ذلك : مناهج البحث فى اللغة ص ٩٢ والأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ٤٩ — ٥٠ والأصوات للدكتور بشر ، ص ١٣٢ وما بعدها .

الفصل الثالث

النحو والصرف

عرض تاريخى :

سبق أن تناولنا نشأة النحو العربى بشىء من الإيجـاز والتركيز ، وهدفنا الآن أن نتناول — فى إيجاز كذلك — تاريخ الدرس النحوى منذ سيبويه [1] ونتتبعه حتى وصوله الى مرحلة الكمال والنضج ، وتبلور أفكاره فى اتجاهات ومذاهب معينة •

يعد سيبويه [2] إمام النحاة بلا منازع • وقد جمع فى مؤلفه المعروف « بالكتاب » مباحث النحو والصرف ، وجعل لكل مكانا منه لا يشركه الآخر فيه أو يكاد • وبدأ بالنحو وثنى بالصرف ، صنيع من يراهمـا علمين [3] • ومن يراجع موضوعات الجزء الأول من « الكتاب » يجدها خاصة بالنحو ، فقد تناول فيـه الكلمة ، والنكرة والمعرفة ، والأفعال اللازمة والمتعدية ، وأسماء الأفعال ، الى جانب الفاعل والمبتدأ والخبر ، وأيضاً المنصوبات كالمصادر المنصوبة ، والحال والمفعول فيه ، وإن وأخواتها والنداء ، والاستثناء ، وغيرها • أما الجزء الثانى فجميع أبوابه صرفية اذا استثنينا باب الممنوع من الصرف الـذى افتتح به الجزء • ومن موضوعاته النسب ، والتصغير ، ونونا التوكيد ، وجمع التكسير ، وأوزان

---

(١) راجع فى ترجمته مقدمة « الكتاب » بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، و « سيبويه امام النحاة » للأستاذ على النجدى ناصف •

(٢) برغم شهرة سيبويه لم يذكر أحد تاريخ ولادته ولا وفاته بالتحديد • واجمالا يمكن أن يقال انه ولد فى النصف الأول من القرن الثانى وتوفى عام ١٨٠ أو ١٨٨ ولم يتجاوز الأربعين •

(٣) على النجدى ، ص ١٧٠ •

المصـــادر ، وصيغ الأفعال ، ومعانى الزوائد ، واسم الآلة ، وأسماء الأماكن ، وفعل التعجب ، والإمالة ، والوقف ، والإعلال ، والإدغام .

وقد كان من سوء حظ النحو العربى أن جاء سيبويه فى وقت مبكر جدا لا يتجاوز النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، إذ نتج عن تفوقه وشدة إعجاب النحاة به أن أصيب التفكير النحوى بشلل ، ودار الجميع فى فلك سيبويه ، واتخذوه أساسا لدراستهم ، ولذا لم يطوروا هـــذه الدراسة بالقدر الكافى ، وتحولت كثير من الدراسات النحوية الى مجرد شروح له أو اختصارات أو تعليقات عليه ، أو جمع لشواهده وشرحها .. أو .. أو .. ويكفى دليلا على ما كان لعمل سيبويه من سحر وإغراء إطلاقهم عليه اسم « قرآن النحو » (١) ، وقول المـــازنى فى تمجيده : « من أراد أن يعمل كتابا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى » وقول السيرافى : « وعمل كتابه الذى لم يسبقه الى مثله أحد قبله ، ولم يلحق به من بعده » . وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر » تعظيما واستصعابا له (٢) ولسنا نريد أن نحبر صفحات فى سرد أسماء الكتب والأبحاث التى دارت حول كتاب سيبويه (٣) وإنما نخص بالذكر كتابا فريدا من بين هذه الكتب وهو كتاب ألفـــه المبرد ، واختار له عنوانا هو « الرد على سيبويه » (٤) ، وذلك لطرافته وغرابة موضوعه .

---

(١) مراتب النحويين ، ص ٦٥ .

(٢) بغية الوعاة ، ترجمة عمرو بن عثمان ، ومقدمة عبد الســـلام هارون للكتاب ، ص ٢١ ، ٢٣ .

(٣) تفصيل ذلك فى مقدمة عبد السلام هارون للكتاب عناوين : فممن شرحه (ص ٣٦) ، وممن شرح مشكلاته ونكته وأبنيته (ص ٣٨) — وممن شرح شواهده (ص ٣٩) ، وممن اختصره أو اختصر شروحه (ص ٤١) ، وممن الف فى الاعتراض عليه أو رد تلك الاعتراضات (ص ٤١) .

(٤) ذكر ابن جنى أن المبرد سماه « مسائل الغلط » .

To: www.al-mostafa.com

خصص المبرد كتابه هذا للهجوم على سيبويه والاعتراض عليه • وبرغم أن الكتاب لم يصلنا نصه ، فقد وصلتنا اقتباسات كثيرة منه فى كتب متأخرة تكفى لتكوين فكرة عنه • وقد كان مثار دهشة وعجب أن يأتى أقسى هجوم على سيبويه من المبرد رأس المدرسة البصرية فى عهده ، وأن يتعرض المبرد لسيبويه بالنقد والتخطئة ، وأن يتعقب زلاته ويؤلف فيها كتابا كاملا ، ومن أجل هذا حاول بعضهم أن يبرىء المبرد من تهمة التعرض لسيبويه وادعوا بطلان نسبة هذا الكتاب إليه • ومنهم من ادعى أن ما اعترض به المبرد على سيبويه حدث أيام الشباب وأنه عاد فرجع عنه •

وأفضل مرجع حوى اقتباسات من عمل المبرد هو « الانتصار لسيبويه من المبرد » الذى ألفه ابن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ • ومنه نعلم أن كتاب المبرد يحوى ١٣٤ مسألة ، وأن الخلاف بين سيبويه والمبرد كان عميقا ويعود الى اختلاف المنهج والخط الفكرى فى كثير من الأحيان • ومن ذلك منع سيبويه أن يقال « السقى لك » ، و « المرعى لك » بدلا من سقياً لك ورعياً لك لأن العرب لم تتكلم بهاتين العبارتين مع الألف واللام • وقد أجازهما المبرد لأنه لا فرق عنده — فى القياس — بينهما بالألف واللام وبين « الحمد لله » و « العجب لزيد » (١) •

ونعود الى « الكتاب » فنقول إنه برغم نسبته الى سيبويه ففضل الخليل فيه لا يجحد ، حتى قيل إن الأوفق أن ينسب الكتاب الى الخليل وحده أو إليهما معا • يقول أبو الطيب اللغوى : « عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل (٢) » ويقول ثعلب : « اجتمع على صنعة الكتاب اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل » (٣) •

---

(١) هناك عرض واف لكتاب ابن ولاد مع التعرض لمسائل الخلاف فى مجلة كلية المعلمين الجامعة الليبية ، العدد الأول ، صفحات ١٧٧ — ١٩٠ •
(٢) المدارس النحوية لشوقى ضيف ، ص ٣٤ •
(٣) مقدمة الكتاب لهارون ، ص ٢٤ •

وقد طبع كتاب سيبويه — حتى الآن — فى فرنسا والهند ومصر وترجم الى الالمانية ترجمة كاملة • وقام المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون بتحقيقه ونشره نشرة علمية دقيقة ظهرت فى خمسة أجزاء •

وفى نفس الفترة التى كان الخليل وسيبويه ينشران علمهما فيهما بالبصرة وجد عالمان بالكوفة اشتغلا بالنحو وإن لم يبلغا فى الشهرة مبلغ الخليل وسيبويه • هذان العالمان هما أبو جعفر الرؤاسى ، ومعاذ الهراء • أما أولهما فقد صنف كتابا اسمه « الفيصل » يقال إن الخليل قد اطلع عليه ، واستفاد منه • وأما الآخر فقد غلب عليه الاشتغال بالأبنية حتى قيل إنه واضع علم الصرف • ويصدر الدكتور شوقى ضيف على هذين الرجلين حكما قاسيا فيقول : « وكان علم معاذ بالصرف مثل علم الرؤاسى فى النحو كان علما محدودا لا غناء فيه ولا شىء يميزه من علم البصرة » (١) .

وبعد ذلك سار نحاة البصرة والكوفة جنبا الى جنب وتنافسا فى البحث والإنتاج ، وتتابع من كلا البلدين نحاة أعلام ليس من السهل تفضيل أيهما على الآخر • فمن نحاة البصرة نجد الأخفش سعيد بن مسعدة ، وقطرب والمازنى والمبرد • ومن نحاة الكوفة نجد الكسائى ، والفراء ، وثعلب وابن السكيت • وهؤلاء جميعا عاشوا وماتوا قبل نهاية القرن الثالث الهجرى • وأهم ما يميز هذه الفترة ارتقاء البحث النحوى ونضجه بدرجة لم تسمح بجديد بعدها • كما يميزها ظهور الكتب الكاملة التى تعالج النحو بابا بابا • ونضرب لذلك المثل بكتاب « المقتضب » للمبرد ، وهو برغم اسمه كتاب ضخم طبع فى أربعة مجلدات بتحقيق الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة • ويميزها أيضا اتجاه البحث الى التقصى ، والاستقراء للمأثور عن العرب وإعمال الفكر ، واستخراج القواعد • وقد أذكى من روح النشاط التنافس البلدى الذى نشأ بين

---

(١) راجع : شوقى ضيف ، المدارس النحوية ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، والأفغانى : من تاريخ النحو ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ونشأة النحو ، ص ٩٧ .

البصرة والكوفة ومحاولة كل فريق أن يظهر على الآخر • كما يميزها انفصال الصرف عن النحو على يد أبي عثمان المازني الذي ألف « التصريف » (١) • وقد طبع هذا الكتاب بشرح ابن جني عليه باسم المنصف في ثلاثة أجزاء •

وبعد القرن الثالث نافست أقطار ومدن أخرى البصرة والكوفة في الدراسة النحوية وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والأندلس • وظهر نحاة أعلام في كل بلد من هذه البلاد تجد تفصيلا عنهم في كتب التراجم المختلفة (٢) •

وأهم ما يميز هذه المرحلة أنها كانت مرحلة خفت فيها حدة التنافس والتعصب ، وظهر جيل من العلماء لم يتحيز لعالم دون آخر • وأول من فعل ذلك البغداديون • وقد اتجه رجال هذه الفترة الى عرض المذهبين السابقين وانتقادهما ، واختيار ما يبدو مناسبا منهما ، بالإضافة الى زيادات قليلة من القواعد تولدت لهم من اجتهادهم قياسا وسماعا • ومن أشهر رجال هذه المرحلة — حتى نهاية القرن الرابع — الزجاج وابن السراج والزجاجي والأخفش الصغير وابن ولاد وأبو جعفر النحاس والسيرافي وأبو علي الفارسي والرماني والزبيدي (٣) •

---

(١) هذا على فرض أنه لم يصح وضع معاذ الهراء لعلم الصرف • وانظر نشأة النحو ص ٩٤ •

(٢) على سبيل المثال : طبقات الزبيدي ، وانباه القفطي ، وبغية السيوطي ، وضحى الاسلام ، وبروكلمان •

(٣) راجع : نشأة النحو في أماكن متفرقة وبخاصة ص ١٥٨ ، ١٥٩ • ولمزيد من التفصيلات يستحسن الرجوع الى كتب التراجم المختلفة تحت الأسماء السابقة ولكتاب الدكتور شوقي ضيف : المدارس النحوية ، وكتاب الدكتور مازن المبارك : النحو العربي ، ولكتاب سعيد الافغاني : من تاريخ النحو ، ولكتاب محمد الطنطاوي : نشأة النحو ، ولكتاب الدكتور عبد الرحمن السيد : مدرسة البصرة النحوية ، ولكتاب البير حبيب : الحركة اللغوية في الأندلس ، ولكتاب الدكتور مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة •

هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ؟

السؤال الذى يجب طرحه الآن هــو : هل يمكن أن نطلق اسم « مدرسة » على أى دراسة نحوية تمت فى خلال الفترة موضوع الدراسة ؟

ولكى نجيب عن السؤال يجب أولا أن نوضح النقاط الآتية :

١ — ماذا نفهم من المصطلح « مدرسة نحوية » •

٢ — الأساس الذى بنى عليه تقسيم الدراسة النحوية العربية الى مدارس •

٣ — عدد هذه المدارس حتى نهاية القرن الرابع الهجرى •

أما بالنسبة للنقطة الأولى فإن هذا المصطلح يعنى — فى نظرنا — وجود جماعة من النحاة ، يصل بينهم رباط من وحدة الفكر والمنهج فى دراسة النحو • ولابد أن يكون هناك الرائد الذى يرسم الخطة ويحدد المنهج ، والتابعون أو المريدون الذين يقتفون خطاه ، ويتبنون منهجه ، ويعملون على تطويره والدفاع عنه • فاستمرار النظرية — أو المنهج — ودوامها عبر السنين شرط أساسى لتكون المدرســة التى لا يمكن أن تستحق هذا الاسم ، أو يعترف بوجودها بمجرد مولد النظرية أو خلقها ، حتى تعيش ويكتب لها البقاء لبعض الوقت بين المريدين •

ومن ناحية أخرى فنحن لا نوافق على اتخاذ المعيار الجغرافى أساساً لتقسيم العلوم الى مــدارس فكرية مختلفة • إن وجــود جماعة من الدارسين فى مكان واحد لا يكفى مطلقاً لتشكيل مدرســة ، أو لأحقية ربطهم جميعاً برباط واحد ، اللهم إلا اذا وجد الخيط الذى يصل بينهم ، والخطة أو النظرية التى يشتركون فى تطبيقها • وعلى هذا يكون المرشح لأحقيتهم اسم مدرسة ليس وجودهم فى مكان واحــد وإنما اشتراكهم فى خط فكرى معين •

وإذا نحن انتقلنا الى النقطة الثانية وحاولنا أن نتعرف الأساس لتقسيم الدراسات النحوية الى مدارس ، وجدنا من الحتم أولا أن نظهر الحقائق الآتية :

(أ) أن المعيار الجغرافى كان الأساس الوحيد لهذا التقسيم ، وهذا يوضح لماذا حملت كل مدرسة اسم منطقة .

(ب) لا نجد أى إشارة الى مدرسة أطلق عليها هذا الاسم لالتفاف أتباعها حول رائد معين فحملت اسمه من أجل ذلك على عكس ما نجده الآن [(١)] .

(جـ) على الرغم من ان المعيار الجغرافى كان هو الأساس الوحيد المستعمل لتقسيم المدارس العربية فإنه قد عجز تماما عن إبراز الفروق الحقيقية والاتجاهات الفكرية المختلفة لهذه المدارس ، كما عجز — فى نفس الوقت — عن تجميع الخصائص المشتركة ، والاتجاهات الفكرية الموحـــدة .

ولنأخذ مثالا على هذا أقدم مدرستين لغويتين ، وهما مدرســة البصرة ومدرسة الكوفة ، فماذا نجد ؟ نجد البصريين (أو الكوفيين) يختلفون فى المسألة الواحدة ، ونجد فى كثير من الأحيان بصريين ينضمون الى المدرسة الكوفية ، وكوفيين ينضمون الى المدرسة البصرية . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى :

١ — فى حالة يصرح الأخفش (بصرى) بأن رأى الكوفيين صحيح .

٢ — فى حالة أخرى نجد للخليل رأيا يخالف رأى سيبويه والأخفش .

---

(١) مثل Vossler School أو Bloomfield School انظر Fries ص ١٩٦ ، Malmberg ص ٦٩ .

٣ — فى حالة أخرى نجد سيبويه والخليل يريان رأيا مناقضا لرأى الأخفش والمازنى والزيادى والمبرد (وكلهم بصريون) •

٤ — فى حالة أخرى نجد كلا من سيبويه والمبرد والكسائى والفراء يقف منفردا برأيه الخاص •

٥ — فى حالة أخرى نجد المبرد يفضل رأيا كوفيا •

٦ — فى حالة أخرى نجد الكسائى يفضل رأيا بصريا (١) •

٧ — على الرغم من أن المبرد وسيبويه ينسبان الى مدرسة واحدة فنحن نجد أن أقسى هجوم وجه لسيبويه كان على يد المبرد — كما سبق أن ذكرنا — حتى ألف الأخير كتابا لنقد سيبويه والهجوم عليه • ومن ناحية أخرى فنحن نجد أن اختلاف المنهج والخط الفكرى واضح جدا بين الأستاذين ويشمل اختلافات جوهرية •

٨ — على الرغم من أن الكسائى والفراء ينتميان الى المدرسة الكوفية فإن خلافهما فى مسائل النحو كثير • ونكتفى بالتقاط الأمثلة الآتية :

(أ) يذهب الكسائى الى أن الفاء والواو وأو تنصب الفعل بنفسها ، ولكن الفراء يذهب الى أن المضارع ينصب بعد هذه الأحرف على الخلاف « أى أن المعطوف بها صار مخالفا للمعطوف عليه فى المعنى فخالفه فى الإعراب » (٢) •

(ب) يذهب الكسائى الى جواز العطف على اسم إن بالرفع قبل تمام الخبر ، فيصح عنده أن تقول : « إن زيدا وعمرو قائمان » • ولكن

---

(١) انظر فى تفصيل المسائل السابقة : منهج السالك لأبى حيان صفحات ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٩ مقدمة المحقق ، والانصاف لابن الأنبارى ص ٢٧ ، ٤٧ •

(٢) الكافية ٢/٢٢٤ ، والأشمونى ٣/٣٠٠ •

الفراء يفصل ، فيجيزه فى حالة خفاء الإعراب ويمنعه فيما عدا ذلك ، فمثال ما خفى إعرابه « إنك وزيد قائمان » ، وقد حمل عليه قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) [١] •

(جـ) يذهب الكسائى الى أن أصـل « آية » آئية بزنة فاعلة ، فحذفت الهمزة كما حذفت فى شاك السلاح ، ومكان هار • ويذهب الفراء الى أن أصلها « أية » بالتشديد ، وفروا من المشدد الى الألف كما فروا الى الياء فى دينار وأصله دنّار [٢] •

(د) أجاز الكسائى تقديم المحصور بإلا مطلقا ، وذهب الفراء الى منع تقديم الفاعل المحصور وأجاز تقديم المفعول المحصور [٣] •

(هـ) قال الكسائى فى « أشياء » : هى جمع شىء كبيت وأبيات ، ووزنها أفعال ، ومنعت من الصرف على توهم أنها كحمراء • وقال الفراء أصلها أشيئاء جمع شىء وأصله شىّء نحو بين وأبيناء ولين وأليناء ، ثم حذف من وسط أشيئاء همزة لكثرتها فصارت أشياء [٤] •

(و) يذهب الكسائى — وهو رأى البصريين — الى أن « نعم » و « بئس » فعلان ماضيان لا يتصرفان ، ويذهب الفراء — وهو رأى باقى الكوفيين — الى أنهما اسمان [٥] •

٩ — وأخيرا نمثل بمسألة تشعبت فيها أوجه النظر ، واختلط فيها الحابل بالنابل كما يقول المثل العربى ، وهى تخريج « إياك » وأخواتها :

---

(١) الانصـــاف ١١٩/١ ، ومجالس ثعلب ٣١٦/١ ، والرضى على الكافية ٣٣٠/٢ ، ومعانى القرآن ، ورقة ٤٥ •

(٢) رسـالة الملائكة ص ١٠١ — ١٠٦ •

(٣) الأشمونى ٣٩/٤ •

(٤) معانى القرآن للفراء ورقة ٤٦ ، واعراب القرآن للنحاس ورقـــة ٥٤ — ٥٥ ، والرضى على الشافية ص ٩ •

(٥) الانصاف ٦٦/١ ، الكافية ٢٩٢/٢ •

(أ) فجمهور الكوفيين ، وهو رأى الفراء ، يذهب الى أن الكاف والهاء والياء من إياك وإياى وإياه .. هى الضمائر ، وأن « إيا » عماد لها لتصير بسببها منفصلة . واختاره ابن كيسان من البصريين . قال الرضى : وليس هذا القول ببعيد عن الصواب .

(ب) ورأى الخليل أن « إيا » اسم مضمر مضاف الى الكاف بدليل وقوع الظاهر مقام الكاف فى قولهم : اذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب . وهو رأى الأخفش والمازنى .

(جـ) وقال سيبويه إن الاسم المضمر هو « إيا » ، وما يتصل به بعده حرف يدل على أحوال المرجوع إليه من التكلم والخطاب والغيبة ، وهو رأى جمهور البصريين .

(د) وقال قوم من الكوفيين : إياك وإياه وإياى أسماء بكمالها ، وليس فيها تركيب .

(هـ) وقال الزجاج ، والسيرافى : « إيا » اسم ظاهر مضاف الى المضمرات ، كأن « إياك » بمعنى نفسك (١) :

هذه الأمثلة — وغيرها كثير جدا لمن أراد المزيد — تكشف عن فساد المعيار الجغرافى وتظهر فشله (٢) .

---

(١) مدرسة الكوفة ص ٢٢٩ ، الكافية ٢/١٢ ، ورسالة الملائكة ص ٥٧ وهامش صفحتى ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) لا أدل على فشل المنهج الجغرافى فى بيان الاتجاهات الفكرية ، وابراز أوجه الخلاف والشبه بينها من اختلاف الآراء حول نسبة بعض اللغويين الى مدرسة معينة . واشير فى هذا المجال الى أبى عبيد الذى وضعه بروكلمان تحت أبناء المدرسة البصرية (٢/١٥٥) ، بينما وضعه الزبيدى وآخرون تحت اتباع المدرسة الكوفية (ابن النديم ص ٧١) .

وحالة أبى عبيد تمثل صعوبة اخرى ، وهى صعوبة نسبة عالم من ذلك العصر الى بلد معين نظرا لكثرة الأسفار — وعدم الاقامة فى مكان واحد مدة طويلة . فهو قد ولد فى هراة وتنقل بين البصرة والكوفة ومرو وسر من رأى وطرسوس وبغداد ومكة .

(معجم الأدباء ١٦/٢٥٤ ، والقفطى ٣/١٥ ، ١٩ ، ٢٠) .

ولكن الى جانب هذه الاختلافات بين أبناء المدرسة الواحدة فنحن نجد بعض الخطوط والاتجاهات المشتركة التى يتميز بها أبناء المدرسة الواحدة وعلى هذا فربما قبلنا — مع شيء من التحفظ — هذه القسمة . والنقد الخطير الذى يمكن أن يوجه الى هذا المعيار هو احتمال الانحراف فى تطبيقه . ربما قبلنا تبرير هذا المعيار على أساس أن الفكرة ، أو الاتجاه المعين ، إنما يظهر أول الأمر فى مكان ما ، ومن أجل هذا فمن المعقول أن ينسب هذا الاتجاه أو هذه النظرية الى مكان الميلاد .

ولكن الشيء الذى لا نقبله هو الزعم بأن هذه المدرسة المعينة لابد أن تشمل كل المواطنين فى هذا المكان — بغض النظر عن اختلافاتهم — وتستبعد من عداهم ، دون نظر الى آرائهم ومدى اتفاقهم أو اختلافهم . وعلى هذا فنحن نعتقد أن الباب لابد أن يترك مفتوحا على مصراعيه ليضم المتفقين ، ويعزل المخالفين . إن باب المدرسة البصرية — أو الكوفية — يجب أن يظل مفتوحا ليسمح بدخول أى مؤيد أو متفق فى الرأى مهما كانت جنسيته ، وبخروج المخالف ، حتى ولو كان منتسبا الى المنطقة بالميلاد أو الإقامة . وطبقا لهذا ، فإننا نجد المدارس اللغوية الحديثة التى تحمل أسماء أماكن قد اشتملت على أسماء علماء من بلاد مختلفة . ونحن نشير بوجه خاص الى « مدرسة جنيف » [1] التى أسسها اللغوى السويسرى دى سوسير وشملت لغويين فرنسيين وسويسريين وألمان وإنجليز [2] .

أما إجابة السؤال الثالث ، فهى دقيقة وصعبة ، اذا حاولنا تناولها بدقة . إنها تقتضى عملية تتبع كامل للإنتاج النحوى فى جميع أنحاء العالم العربى لفترة تمتد الى أكثر من ثلاثة قرون ، مع الأخذ فى الاعتبار ضياع نسبة كبيرة من الإنتاج النحوى لتلك الفترة وعدم وصوله لنا ، بالإضافة

---

(١) بعض الدارسين يسميها كذلك « المدرسة الفرنسية » (انظر Sommerfelt ص ٢٨٣) .

(٢) Malmberg صفحات ١٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

الى تبعثر الآراء النحوية فى كتب التفسير والقراءات والأدب وشروح الدواوين الشعرية وغيرها • ولهذا فنحن سنكتفى فى هذا المقام بنظرة خاطفة مركزين على الخلافات بين الدارسين حول الاعتراف أو عدم الاعتراف بأى منها [1] •

فيما عدا سعيد الأفغانى الذى رفض المعيار الجغرافى أساساً للتقسيم النحوى وتشكك فى جدواه [2] (برغم استعماله لفظ مدرسة مع نحاة البصرة ونحاة الكوفة مجاراة لما هو شائع) ، واقترح معيارا آخر فإن سائر الدارسين قد قبلوا التقسيم الجغرافى أساساً لتصنيف المدارس النحوية العربية • الفرق الوحيد بينهم هو اختلافهم فى عدد المدارس :

وبغض النظر عن المستشرق G. Weil الذى اعترف بالمدرسة البصرية فقط ، نجد جميع الدارسين يعترفون بوجود مدرستى البصرة والكوفة ، ويعترفون بأسبقيتهما لأى مدارس نحوية أخرى ، ومنهم من يضيف إليهما مدارس أخرى على النحو التالى :

(أ) بعضهم يضيف مدرسة ثالثة فى بغداد • ويضم هذا الفريق بروكلمان ومهدى المخزومى •

---

(١) كان من سوء الحظ أن المحاولات الأولى لتقسيم الدراسة اللغوية الى مدارس كانت ترمى الى عمل ترجمات للغويين ، مع التركيز على الجانب التاريخى من حياتهم • وربما كان المعيار الجغرافى صالحا لمثل هذه الدراسة التاريخية ، ولكن الخطأ الذى ارتكب فيما بعد هو تطبيق هذا المعيار على الدراسة اللغوية البحتة .

(٢) يقول : درج العلماء على أن هناك مذهبا بصريا وآخر كوفيا . فما معالم كل من المذهبين ؟ هذه الميزات والمعالم الاتية بعد ليست جامعة مانعة . فليس هناك قاعدة اجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة ، أو قال بها الآخرون جميعا وعارضها الأولون جميعا •

(فى أصول النحو ص ١٩٥ — ١٩٦) وانظر بحثه : هل فى النحو مذهب أندلسى ؟ ص ٧٦ •

(ب) وبعضهم — مثل طه الراوى ومحمد أسعد طلس — يضيف مدرسة رابعة فى الأندلس •

(جـ) أضاف «Howell» مدرستين أخريين فى مصر والمغرب •

(د) وعد الدكتور شوقى ضيف خمس مدارس هى : البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية والمصرية ، ولم يذكر المغربية •

(هـ) ويقف الزبيدى منفردا فى هذا النزاع حيث يقسم اللغويين الى بصريين وكوفيين ومصريين وأندلسيين ، ولم يذكر البغداديين [١] •

واذا كان لنا من ملاحظات على هذه التقسيمات فهى :

١ — أنه مادام المعيار الجغرافى هو الأساس فى التقسيم فلابد من الاعتراف بوجود مدرسة فى كل بلد أنتج فكرا نحويا •

٢ — من الغريب أن يعترف الزبيدى باللغويين المصريين والأندلسيين ولا يذكر البغداديين •

٣ — وأغرب من هذا أن يعترف طه الراوى ومحمد طلس بوجود مدرسة فى الأندلس ولا يعترفان بوجود مدرسة فى مصر ، برغم أسبقية مصر فى هذا الميدان واعتماد النحو الأندلسى فى نشأته ووجوده وبنائه على مصر [٢] • وأخيرا فإننا نؤمن بأن تقسيم العلوم الى مدارس —

---

(١) ارجع الى : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ثعلب » و « نحو » ، ومراتب النحويين لأبى الطيب ، والفهرست لابن النديم ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، ومدرسة الكوفة للمخزومى ص ٣٩١ ، ونظرة فى النحو لطه الراوى ، وأبو الفتح بن جنى لطلس ، وطبقات النحويين للزبيدى ، والمدارس النحوية لشوقى ضيف ، ومقدمة Howell لكتابه A Grammar of the Classical Arabic

(٢) يرجع الفضل فى النهضة الأندلسية النحوية الى عودة محمد بن يحيى الرباحى الأندلسى من المشرق بمناهج حديثة (كما يقول الزبيدى) وبكتب جديدة فى القرن الرابع • ولم يكن الرباحى نفسه مؤلفا وانما لاقى الأساتذة وقرأ عليهم وحمل كتبهم • وممن لاقاهم بمصر أبو جعفر النحاس وأبو العباس

=

مهما كان المعيار — ليس خير سبيل . إنه يعطى إحساساً بمحلية العلوم ، ويخلق جوا من التحيز والتعصب • إنه يظهر اتفاقا سطحيا بين أتباع المدرسة الواحدة حول مبادىء معينة أو قواعد خاصة ، ولكنه يخفى من ورائه خلافات جوهرية •

ومن أجل هذا فنحن نفضل المعيار المبنى على أساس النظريات المنفصلة والاتجاهات المستقلة • وعلى هذا يمكننا أن نتكلم عن نظرية سيبويه فى الالتزام بما سمع عن العرب وعدم استخدام القياس النظرى ، لأن العرب يمتنعون عن التكلم بالشىء وإن كان القياس يوجبه ، ويتكلمون بالشىء وإن كان القياس يمنعه • وعن نظرية الفراء فى النصب على الخلاف أو المخالفة • وعن نظرية ابن فارس فى رد الكلمات الكبيرة البنية الى أصول أقل حجما • وهكذا •

هذا الاتجاه ربما يكون أكثر دقة فى تتبع النظرية أو الاتجاه ، وفى رسم حدود كل ومعالمه عبر العصور من غير استخدام التعميمات ، أو إصدار الأحكام الكلية التى تفتقر فى كثير من الأحيان الى الدقة ويعوزها الحذر العلمى •

أهم الفروق بين مدرستى البصرة والكوفة :

على الرغم من موقفنا السابق من اتخاذ المعيار الجغرافى أساساً

=
ابن ولاد ، وكلاهما نحوى متخصص • وقد نقل للأول الى الأندلس كتبه « صناعة الكتاب » و « الاشتقاق » و « الكافى فى النحو » و « المقنع فى النحو » وللثانى « الانتصار لسيبويه » و « المقصور والممدود » و « النقائض » • ونضيف الى هذا انه من بين تلامذة النحاس الأجانب وعددهم أربعة عشر (على حسب ما أمكننى البحث) نجد ثمانية أندلسيين • ومن بين الترجمات الخمسمائة الأولى فى كتاب ابن الفرضى « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » نجد خمسة وخمسين على الأقل قد درسوا فى مصر •

(ولمزيد من التفصيلات راجع رسالتى للدكتوراه Arabic Linguistic Studies in Egypt الخاتمة) •

للتقسيم ، وما سبق أن ذكرناه من عدم وجود خط محدد يسير عليه كل من الكوفيين والبصريين ، فقد رأينا أن نسجل هنا أهم ما يميز الدرس النحوى البصرى عن الكوفى ، مع اعترافنا بأن هذه المميزات ليست قاطعة أو صارمة ، كما سنكشف فى تعليقنا الآتى بعد ، ويمكن تلخيص هذه المميزات أو الفروق فيما يأتى :

١ — ما سبق أن ذكرناه من تشدد البصرة فى فصاحة العربى الذى تأخذ عنه اللغة والشعر وتساهل الكوفيين حتى إنهم كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق ، مما جعل بعض البصريين يفخر على الكوفيين بقوله : « نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ » (١) .

٢ — ما سبق أن ذكرناه من توسع الكوفيين فى قبول القراءات القرآنية بالنسبة للبصريين . وذلك ليس نتيجة تقديسهم للقراءات وحسن تقبلهم لها ، وإنما بسبب ما عرفوا به من توسع فى أصول اللغة وقياس على القليل واعتداد بالمثال الواحد (٢) .

٣ — أن البصريين لم يكونوا يكتفون فى استخلاص القاعدة بالمثال الواحد أو الأمثلة القليلة « وإنما اشترطوا الكثرة والتداول على ألسنة العرب الفصحاء . أما الكوفيون فكانوا يعتدون بالأشعار والأقوال الشاذة ، ولا يشترطون أى نوع من الكثرة فى تقعيد قواعدهم . ولذا يقول السيوطى : « لو سمع الكوفيون بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه » ، ويقول : « عادة الكوفيين اذا سمعوا لفظا فى شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا » (٣) .

---

(١) راجع بحث « الشواهد النثرية » فى الفصل الأول ، الباب الأول من هذا الكتاب .

وشوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٦٠ .

(٢) راجع بحث « القراءات القرآنية » فى الباب الأول من هذا الكتاب .

(٣) شوقى ضيف : المدارس النحوية ص ١٦١ ، ١٦٢ ، محاضرات الدكتور ابراهيم انيس لطلبة الليسانس بدار العلوم ، سنة ١٩٦٤ .

٤ — أن التأويل والتقدير كثر عند البصريين بطريقة لافتة للنظر ، وذلك تبعاً لرفضهم كثيرا من الأمثلة العربية الصحيحة ، ونتيجة لمحاولاتهم المتكررة إخضاع الأمثلة العربية الصحيحة لأقيستهم النظرية البحت . ويمتدح الدكتور شوقى ضيف صنيع البصريين هذا بقوله : « على أنه ينبغى أن نعرف أن المدرسة البصرية حين نحت الشواذ عن قواعدها لم تحذفها ولم تسقطها ، بل أثبتتها ، أو على الأقل أثبتت جمهورها ، نافذة فى كثير منها الى تأويلها ، حتى تنحى عن قواعدها ما قد يتبادر الى بعض الأذهان من أن خللا يشوبها ، وحتى لا يغمض الوجه الصحيح فى النطق على أوساط المتعلمين . إذ قد يظنون الشاذ صحيحا مستقيما ، فينطقون به ، ويتركون المطرد فى لغة العرب الفصيحة . ومن هنا تتعرض الألسنة للبلبلة .. وقد ينجذب إليها بعض من لم يفقه الفرق بين القاعدة الدائرة على كثرة الأفواه ، بل على كثيرها الأكثر ، والقاعدة التى لم يرد منها إلا شاهد واحد ، مما قد يؤول الى اضطراب شديد فى الألسنة » (١) .

وسنذكر رأينا فى هذا الأصل فيما بعد .

٥ — لما كان الكوفيون أهل شعر ورواية لم يلتفتوا كثيرا الى قوانين المنطق والأقيسة العقلية . أما البصريون فقد عوضوا تخلفهم فى مجال الشعر والرواية بأن أطلقوا لعقلهم العنان وبرعوا فى استخدام المنطق ولجأوا أحيانا الى النظر المجرد . ويمثل هذا الاتجاه البصرى خير تمثيل قول أبى على الفارسى : « لأن أخطىء فى خمسين مسألة من باب الرواية خير عندى من أن أخطىء فى مسألة واحدة من باب القياس » (٢) .

ولنا على هذه الفروق الملاحظات الآتية :

١ — أن المذهب الكوفى — فى نظرنا — أقرب الى الحق والواقع حين أجاز القياس على المثال الواحد المسموع ، ولم يعتبر القلة والكثرة .

---

(١) المدارس النحوية ص ١٦٢

(٢) المرجع ص ٢٦٤ .

وذلك لأن القبائل العربية تتساوى فى صحة القول وسلامة اللغة ، وليس أمام العقل مسوغ فى تفضيل لهجة على لهجة . ومن القواعد المقررة فى فقه اللغة أنه لا يحتج بلغة قبيلة على أختها ، ولا يحكم النظير بالتخلف على نظيره . ومن يدرينا أن الظاهرة اللغوية التى روى لنا الكوفيون شاهدا واحدا ليس لها شواهد أخرى ؟ أليس من الممكن جدا أن يكون وراء هذا الشاهد الواحد عشرات الشواهد التى لم يهتم العلماء بتسجيلها ، أو التى فقدت ولم تصلنا ؟ يدل على هذا ما ينسب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قوله : « إن الشعر كان علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت العرب عنه بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب فى الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثره » . ويروى عن أبى عمرو بن العلاء قوله : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » (١) . ويقول القاضى الجرجانى فى الوساطة : « أما الألفاظ التى زعموا أن الشعراء تفردوا بها فإنها موجودة عن أئمة اللغة وعمن ينتهى السند إليهم .. وإنما نتكلم بما تكلموا به . وواحدهم كالجمع ، والنفر كالقبيلة ، والقبيلة كالأمة . فإذا سمعنا عن العربى الفصيح الذى يعتد حجة كلمة اتبعناه فيها وإن لم تبلغنا من غيره » (٢) .

فإذا سمع الكوفيون أمثلة معدودة نسب العرب فيها الى الجمع فقبلوا هذه النسبة ، واتخذوها أساساً ، وقاسوا عليها لم يكونوا حائدين عن الجادة كما يحاول بعضهم أن يصورهم ، بل يكونوا على حق . خصوصا وأن الكثرة العددية للكلمات المفردة المنسوب إليها لا تعارض

---

(١) اللغة والنحو لعباس حسن ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) المرجع السابق .

القلة العددية للكلمات المجموعة المنسوب إليها ، لأنه من الممكن أن توجد القاعدتان جنبا الى جنب وتتعايشا معاً دون تناقض ، فيقال إن أريد النسب الى المفرد رد الجمع الى مفرده ونسب إليه ، وإن أريد النسب الى الجمع نسب إليه على لفظه • وليس هذا مثلا من قبيل رفع المفعول أو نصب الفاعل • ولهذا نجد الكوفيين برغم سماعهم لمثل خرق الثوب المسمار لم يجـوزوا رفع المفعول أو نصب الفاعل ، مما يدل على أن اعتدادهم بالمثال الواحد أو الأمثلة القليلة إنما يرد فى مثل النسب الى الجمع مما يوسع مجال للغة ولا يخلق فيها الفوضى والاضطراب •

٢ — أن البصريين لم يوضحوا مرادهم بالكثرة ، أهى الكثرة العددية بين أفراد القبيلة الواحدة ؟ أم القبائل جمعاء ؟ أهى الكثرة النسبية القائمة على الاستقراء التام والعد واستخراج النسبة ؟ فإذا كان الأول فمـا حدها ؟ أهى ثلاثة أم خمسة أم عشرة أم ماذا ؟ واذا كانت الثانية فمـا نسبة الكثير ؟ وهل يمكن إجراء النسبة فى كل ظاهرة لغوية ؟ وهل يدعى البصريون أنهم قامـوا باستخراج النسـبة فى أى قاعـدة نحـوية استخلصوها ؟ [1] ولا أدل على غموض هذا المصطلح عند البصريين من تخبط بعضهم فى شرحه ، ومن اختلافهم فى كثير من الأحكام — بعضهم مع بعضهم — من حيث القياسية أو السماعية • وما نظن أن تفسير ابن هشام — فيما نقله السيوطى عنه — يمثل اتفاقا بين النحاة ، وإنما هو مجرد اجتهاد منه لتفسير مصطلحات غامضة يكثر ترددها بين النحاة ، وتفسيره مع ذلك لا يمكن تطبيقه ، كما لا يمكن أن يدعى أن النحاة — أو أيا منهم على الإطلاق — قد قاموا بتطبيقه • يقول ابن هشام : « اعلم أنهم يستعملون غالبا وكثيرا ونادرا وقليلا ومطردا • فالمطرد لا يتخلف ،

---

(١) لا أدل على عدم وضوح فكرة القلة والكثرة فى أذهان النحـاة أن بعضهم حاول تحديدها فقال : « والفرق بين الغالب والكثير أن ما ليس بكثير نادر وكل ما ليس بغالب ليس نادرا بل قد يكون كثيرا » .

والغالب أكثر الأشـياء ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ، والنادر أقل من القليل . فالعشرون بالنسبة الى ثلاثة وعشرين غالب ، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثير لا غالب والثلاثة قليل والواحد نادر » (١). والتحكم واضح فى تحديدات ابن هشام فضلا عن عدم مطابقتها لآراء النحاة . وهناك من ساوى بين مصطلحات الأصل والمطرد والكثير والأكثر والغالب ، وساوى بين الشاذ والقليل والأقل والنادر (٢) والأمر بعد هذا يحتاج الى تحديد دقيق من هيئة علمية لها مكانتها فى ميدان البحث اللغوى كمجمع اللغة العربية فى القاهرة أو دمشق . وهو تحديد سينسحب على ما يجد من بحوث استقرائية لمـادة اللغة المسجلة ، على أيدى لغويين محدثين ، ولا يمكن الزعم بأنه سيشمل الى جانبهم علماء اللغة القدامى .

٣ — أن البصريين قد خالفوا أصلهم فى القياس على الكثير وترك القليل ، وذلك فى مسائل متعددة من مسائل النحو . فنراهم تارة يمتنعون عن القياس على الكثير وتارة يقيسون على المثال الواحد . فمن النوع الأول اعترافهم بأن وقوع المصدر حالا وصفة كثير ومع ذلك فهم يقصرونه على السماع . ومن ذلك اعترافهم بأن « فعيل » بمعنى مفعول كثير فى لسان العرب وقولهم إنه مع كثرته لم يقس عليه بإجماع (٣) . ومن ذلك منعهم قياسية جمع ما بدىء بميم زائدة من أسماء الفاعلين — جمعه جمع تكسير مع أننى استطعت أن أجمع — بجولة سريعة فى كتب اللغة — ما يزيد على ثمانين كلمة جمعت هـذا الجمع . فهل الثمانون لا تكفى للقياس (٤) ؟ ومن نفس النوع منعهم جمع « فعل » على أفعال وادعاؤهم أن جمع حمل على أحمال فى القرآن شاذ ، مع أنه قد ورد عن العرب جمع

---

(١) فى أصول اللغة ص ١٢٩ .
(٢) اللغة والنحو لعباس حسن ، ص ٣٩ .
(٣) المرجع نفسه ص ٤٤ .
(٤) راجع كتابى : من قضايا اللغة والنحو ص ١٨١ وما بعدها .

فعل على أفعال أكثر من جمعه على أفعل ، فعدد ما ورد على أفعل ١٤٢ وعلى أفعال ٣٤٠ لفظة طبقاً لإحصاء أورده بعض الباحثين [١] • ومن النوع الثانى نسبتهم الى فعولة على فعلى مع أن ذلك لم يرد عن العرب إلا فى مثال واحد هو شنوءة وشنئى • وأيضاً قول الشاعر :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر　　فإن قومى لم تأكلهم الضبع

لم يسمع عن العرب غيره حذفت فيه « كان » وعوض عنها « ما » ، ومع ذلك جعله البصريون قاعدة يقاس عليها •

٤ — أنه كان من جراء إفراط البصريين فى استخدام الأقيسة العقلية وتشددهم فى قبول الشاهد النحوى ، أن وجدوا أنفسهم أمام شواهد فصيحة تخالف قياسهم المنطقى أو قاعدتهم التى استنبطوها • وهنا وجدوا أنفسهم مضطرين إما الى تأويلها وإخراجها عن ظاهرها لتنسجم مع قواعدهم ، وإما الى رميها بالشذوذ أو الخطأ • وقد أدت تأويلات النحاة الى إفساد النحو العربى وملئه بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها فى تصحيح نطقنا أو تقويم لساننا • وإن أردت الدليل على ذلك فانظر الى ما قاله كل من البصريين والكوفيين فى نواصب المضارع • ذهب معظم الكوفيين الى أن النواصب عشرة ، وهى تنصب المضارع بنفسها وذلك مذهب لا التواء فيه ولا تعقيد ، ولا يحمل هذه النواصب مالا تحتمله من المعانى ، ولا يوقعنا فى تكلفات تشوه النحو وتنفر الدارسين منه • أما البصريون فقد قسموا النواصب الى قسمين : قسم ينصب بنفسه وهو أن ولن وإذن وكى (الأخيرة فى بعض حالاتها) وقسم ينصب بأن مضمرة بعده وهو النواصب الستة الباقية • ثم تحدثوا بعد هذا عن « أن » المضمرة جوازا و « أن » المضمرة وجوبا • واضطرهم تقدير « أن » الى أن يبحثوا للأدوات الستة عن أعمال أخرى غير النصب ، لأن ما بعدها لابد أن يؤول بمصدر لوجود أن المضمرة ، وهذا

---

(١) شذا العرف ص ٦٩ ، محاضر جلسات المجمع ٥١/٤ ، ٥٢ •

المصدر لابد من إعراب يعرب به . وقد وقعوا بذلك فى تكلفات لم يقع فيها نحاة الكوفة واخترعوا لنا ما سموه بالمصدر المتصيد . وقد حمل البصريين على سلوك هذا المسلك الوعر قاعدتهم المنطقية التى تقول : « إن الحروف لا تعمل إلا اذا كانت مختصة » . فمادامت هذه الحروف تدخل على الأسماء والأفعال فلا يصح أن تعمل ، واذا كانت هذه الحروف لا تعمل فى الفعل فلابد من التفتيش عن العامل ، وقد وجدوه فى « أن » المستترة . ولكن هل اللغة منطقية الى هذا الحد ؟ وانظر أيضاً الى ما قاله البصريون من عدم جواز أن يلى كان معمول خبرها ، وحين ووجهوا بقول الشاعر :

* بما كان إياهم عطية عودا *

قالوا إن فى كان ضمير شأن هو اسمها ، وعطية مبتدأ وعود خبره وإياهم مفعول به لعود ، والجملة من المبتدأ والخبر خبر كان . فلم كل هذا العناء ؟ ولماذا نضع القاعدة مسبقا ثم نلوى الشواهد النحوية لتخضع لها ؟ وما أثر كل هذا فى تصحيح نطقنا أو تقويم لساننا ؟

وأحيانا كان البصريون يريحون أنفسهم فيرمون الشاهد بالندرة أو الشذوذ أو الخطأ ، وليست تخطئات ابن أبى إسحاق للفرزدق علينا ببعيدة . وهذا أيضاً غريب ، ويعجبنى فى هذا ما يقوله العكبرى : « كيف نجعل ما وضعه البصريون للتقريب والتعليم مما لا أصل له ولاثبات حجة على لسان العرب الفصحاء ؟ » (١) . وقد كان أكرم للبصريين أن يحذوا حذو شيخهم أبى عمرو بن العلاء . فقد سئل ذات يوم : « أخبرنى عما وضعت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال لا . فقيل له : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال أعمل على الأكثر وأسمى ما خالفنى لغات » (٢) .

---

(١) عباس حسن : اللغة والنحو ، ص ٩٢ .
(٢) شوقى ضيف : المدارس النحوية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٥ — على الرغم مما في مذهب الكوفيين من بساطة ويسر ، وبعد عن التكلف والتأويل والتقدير — في الغالب — فأخطر ما يعيبه أنه ربما يوقع في الفوضى والاضطراب في ظواهر اللغة • لأن شرط كل لغة أن تكون لها ظواهر مطردة منسجمة موحدة • فلو أننا جوزنا في الظاهرة الواحدة أكثر من وجه ، ولو أننا سمحنا باستخدام التعبير لمجرد وجود مثال واحد ربما كان من بقايا لهجات قديمة أو لثغة أو ضرورة أو نحوها لما أصبح للغة قيود وقواعد ، ولصح قول بعضهم : « لا تتحرج من الكلام فمهما أخطأت فستجد لك وجها في العربية تصح به عبارتك » • وتخيل معى شخصا يرفع المفعول به ، أو ينصب الفاعل ، أو يلزم المثنى الألف في الرفع والنصب والجر ، أو يلزم جمع المذكر السالم الياء أو الواو ، أو يرفع الجزأين بعد كان ، أو ينصب الجزأين بعد إن ، أو يصرف الممنوع من الصرف ، أو يمنع المصروف من الصرف ، أو ينعت المرفوع بمنصوب أو المنصوب بمرفوع •• أو •• أو •• فأى شىء يبقى لقواعد اللغة ؟ وأى شىء نستفيده — سوى الفوضى والاضطراب — لو تمسكنا بالشواهد القليلة التى جاءت مؤيدة لذلك ؟

وعلى هذا فمن الخير أن نتبع طريق البصريين في وضع القواعد دفعا للفوضى والاضطراب ، ولكن بدون لجوء الى تأويل وتقدير ، وبدون تحكيم للمنطق والقياس النظرى ، ومع الاقتصار على اللغة النموذجية الأدبية المشتركة • أما في متن الكلمات ، وفي الجموع ، والمصادر ، والمشتقات وأمثالها مما يتعلق بصوغ الألفاظ وبناء هياكلها ومادتها الأصلية وتقديمها وتأخيرها وذكرها وحذفها فنتبع طريق الكوفيين ، ونرجع الى القياس بمعناه العام الذى يبيح لنا محاكاة الكلام العربى الفصيح مهما كان قائله (١) • وبذلك نوسع أصول اللغة وننمى مواردها ، ونفتح طرقا يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته • ومن أمثلة ذلك :

---

(١) عباس حسن : اللغة والنحو ، ص ١١١ ، ١١٢ •

(أ) حين تذكر كتب اللغة بعض مشتقات المادة اللغوية وتترك بعضها فالتوسع فى القياس يكمل هذا النقص (١) .

(ب) أننا اذا وجدنا العرب يشتقون وزنا معينا ويستعملونه للدلالة على شىء خاص أمكننا أن نقيس عليه ما لم يذكر . فإذا وجدناهم يصوغون فَعَّال للدلالة على محترف الحرفة كنجار وحداد أمكننا أن نقيس عليها أصحاب المهن الأخرى فنقول براب وفنان ... واذا وجدناهم يستخدمون فِعِّيل (بكسر الفاء وتشديد العين) للدلالة على ملازمة الشىء والمبالغة فيه مثل شريب وزميت وسكيت وصميت وخمير وسكير ... أمكننا أن نقيس عليها ما شئنا من ألفاظ . ومثل هذا يقال فى صيغة فُعَّال للمبالغة (بضم الفاء وتشديد العين) فقد ورد منها : عجاب وكبار وظراف وجمال وكرام وحسان وطياب . ويمكننا كذلك أن نقيس صيغة فُعْلة (بضم الفاء وسكون العين) للمبالغة فى المفعول — وهى صيغة فريدة لا نظير لها فى اللغة العربية لأن سائر صيغ المبالغة للمبالغة فى الفاعل — فقد ورد من ذلك كلمات مثل : لعنة وسخرة وهزأة وسبة ونهبة .. وغيرها (٢) .

(ج) تصحيح كثير من العبارات والألفاظ التى تشيع على ألسنة المتكلمين وأقلام الكتاب فى العصر الحديث ، والتى يمكن أن نلتمس لها وجها فى العربية تصح به . وهذا باب واسع بدأ مجمع اللغة العربية فى مصر فى فتحه على مصراعيه كما يتبين لمن يراجع محاضر جلسات المجمع ومجلته ومنشوراته اللغوية مثل « فى أصول اللغة » و « مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما » . ومن أمثلته تصحيح كلمات صحفى ، ودولى ، ونضوج وإدخال « أل » على « كل » و « بعض » .

---

(١) انظر رسالتنا للماجستير : الفارابى اللغوى تحت عنوان « كلمات ناقصة الاشتقاق » ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) انظر بحثا لنا بعنوان : صيغ أخرى للمبالغة فى كتابنا « من قضايا اللغة والنحو » ص ١٩٣ وما بعدها .

دعوات التجديد والإصلاح للنحو العربى :

شاب النحو العربى منذ نشأته شوائب ، وارتفعت شكوى المتعلمين من صعوبته وتعقده . ويرجع ذلك لأسباب متعددة منها :

١ — أن النحويين القدماء حين قعدوا قواعدهم أقحموا اللهجات العربية بصفتها وخصائصها المتباينة ، ونظروا إليها على أنها صور مختلفة من اللغة المشتركة ، مما خلق مشاكل معقدة أيسرها اختلاف الأقوال فى المسألة الواحدة ، ومحاولة التوفيق بين المذاهب والشواهد المتناقضة ، والإكثار من الأمور الجائزة ، وكثرة التقسيمات والتشعيبات ، والإسراف فى وضع الشروط (١) .

وقد كان الواجب عليهم إسقاط كل هـذه الأمثلة اللهجية ، وترك غيرها مما يمثل مراحل التطور اللغوى ، كما كان الواجب عليهم أن يفرقوا بين القواعد النحوية التى غايتها احتذاء الصواب وصيانة اللسان عن الخطأ ، وبين دراسة ما نطق به العرب وما جرى على ألسنة قبائلهم وما نقله الرواه من شعر أو نثر تضمن خصائص لهجية معينة (٢) . أما الأولى فتبنى على اللغـة النموذجية الأدبية الممثلة فى القرآن الكريم (دون قراءاته) ، والحديث النبوى الشريف ، والآثار الأدبية الرفيعة من أشعار

---

(١) يكفى أن أحيل القارىء الى شروط افعل التفضيل ، التى حينما اعاد مجمع اللغة العربية فى مصر بحثها رأى اسقاط معظمها . فأسقط شرط تجرد الفعل الثلاثى اخذا برأى سيبويه والأخفش ، وأسقط شرط البنـاء للمعلوم عند أمن اللبس ، وتخفف من شرط كون الفعل تاما اخـذا بقـول الكوفيين وتخفف من شرط الا يكون الوصف منه على افعل فعلاء اخذا برأى الكوفيين وهشام والأخفش وتخفف من شرط عدم الاستغناء عنه بمصوغ من مرادفه ، لأن من النحاة من تركه ، ولأن من ذكره لم يورد الا مثالا واحدا . (انظر ص ١٢١ من كتاب أصول اللغة — وفى الصفحات التالية لهـا أبحاث شائقة اشترك فيها كثير من أعضاء المجمع حول هذه الشروط) .

(٢) عبد الحميد حسن : القواعد النحوية ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، من أسرار اللغة ، ص ٢٨ — ٣٠ ، المدخل الى دراسة النحو ، ص ٤٩ — ٥٢ .

وخطب وأمثال وحكم ورسائل ووصايا ونحو ذلك • وأما الثانية فتضم الى هذا ما نقل عن العرب أو الأعراب من كلام عادى ، وما ينسب الى كل قبيلة أو منطقة من خصائص تعبيرية معينة ، وما سجل من قراءات قرآنيـــة •

٢ ــ نظرية العامل التى بالغ النحاة فيها ، وفلسفوها ، حتى ألفوا كتبا تجمع قواعد النحو بعنوان العوامل • فألف أبو على الفارسى كتاب العوامل ومختصره ، وألف عبد القاهر الجرجانى العوامل المــائة ، ودونوا للعوامل شروطا وأحكاما هى عندهم فلسفة النحو وسر العربية فقالوا :

لا يجتمع عاملان على معمول واحد (ذاكر ونجح محمد) •

الحرف لا يعمل فى نوع من الكلمات حتى يكون مختصا به (النصب بأن مضمرة بعد فاء السببية) •

لا يعمل العامل فى الاسم وضميره معاً (محمدا ضربته) •
الى آخر ما هو مذكور فى كتبهم •

ولمــا تكونت للنحاة هذه الفلسفة حكموها فى اللغة وجعلوها ميزان ما بينهم من جدل ، بل تجاوزوا ذلك الى تفضيل لهجات من العرب على أخرى بأصول فلسفتهم هذه ، بل تجاوزوا ذلك الى رفض بعض الأساليب العربية المنقولة •

وقد كان النحاة ــ فى سبيلهم هذه ــ متأثرين بروح الفلسفة التى كانت شائعة بين المتأخرين منهم ، فهم يعللون منعهم اجتماع عاملين على معمول واحد بقولهم : « اذا اتفق العاملان فى العمل لزم تحصيل الحاصل وهو محال ، وإن اختلفا لزم أن يكون الاسم مرفوعا منصوبا مثلا ، ولا يجتمع الضدان فى محل » [١] •

---

(١) احياء النحو ، ص ٣١ ، ٣٢ •

٣ — الإفراط فى التأويل والتقدير ، وحمل الأساليب العربية على غير ظاهرها . وقــد سبق أن ضربنا مثالا لذلك تقدير « أن » مضمرة بعد الفاء ونصب الفعل « بأن » هذه ثم اعتبار الفاء حرف عطف ، عطفت المصدر المؤول من أن المقدرة ومدخولها على المصدر المتصيد من الكلام السابق ! وتقدير نحو : ذاكر فتنجح ، لتكن منك مذاكرة فنجاح !! ولا أدرى ماذا منع العربى أن يقول هذا إن كان هو مراده ؟ وقد بدأت مثل هذه التأويلات من اللحظة الأولى لوضع النحو ، فالتأويل السابق هو من عمل الخليل — سامحه الله — وقد فتح بذلك بابا أمام النحاة يصعب قفله الآن . ومن تأويلاتهم العجيبة ما يقوله المبرد فى إعراب قولـــه تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) . يقول المبرد إن فاعل « بدا » مصدر مقدر ، وتأويل الآية : ثم بدا لهم بدوٌ . ولكن حذف بدو من الكلام لأن « بدا » تدل عليه . ولا معنى لكل هذا الكلام لأن « ليسجننه » جملة فى موضع الفاعل — على حد تعبير ابن ولاد . ويستمر ابن ولاد قائلا : « وأما قوله إنه يضمر فيه البدوّ ، فإنما نضمر اذا كان الكلام محتاجا الى الإضمــار ناقصا عن التمام . فأما اذا كان الكلام تاما مفيدا ، فلا حاجة بنا الى الإضمار » [١] .

٤ — استخدام العلل الثوانى والثوالث فى النحو ، ذلك مثل سؤالهم عن زيد من قولنـــا : قام زيد : لم رفع ، وإجابتهم : لانه فاعل وكل فاعل مرفوع ، ثم سؤالهم : ولم رفع الفاعل ؟ وإجابتهم للفرق بين الفاعل والمفعول ، ثم سؤالهم : ولم لَمْ تعكس القضية فينصب الفاعل ويرفع المفعول ، وإجابتهم بأن السبب أن الفاعل قليل ، لأنه لا يكــون للفعل إلا فاعل واحد ، فأعطى الأثقل الذى هو الرفع للفاعل ، وأعطى الأخف الذى هو النصب للمفعول ليقل فى كلامهم ما يستثقلون [٢] !! ولا أدرى بماذا يجيبــون لو سألتهم : ولكن لكل فعل فاعل ، وليس لكل فعل

(١) الانتصار لسيبويه من المبرد ، ص ٢١٢ — ٢١٣ .
(٢) الرد على النحاة لابن مضاء .

مفعول ، فمن الأفعال ما هو لازم ، ومنها ما يحذف مفعوله فعدد الفاعلين قد يكون أكثر من عدد المفعولين • وتعليلات الخليل وسيبويه كثيرة كثرة لافتة للنظر ، فهما — في نظرنا — المسئولان الأولان عن فتح هذا الباب ، وسن هذه السنة • وخذ مثالا آخر من تعليلاتهم التى حكموها حتى فى القراءات القرآنية ، يقول سيبويه : إنه لا يجوز العطف على المضمر المجرور إلا بإعادة الخافض فلا يجوز مررت به ومحمد بل لابد من أن يقال مررت به وبمحمد (برغم قراءة حمزة وهو من السبعة : [واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام]) • وعلل ذلك بأن الضمير شبيه بالتنوين • لذلك لا يجوز العطف عليه حتى لو أكد • فلا يجوز مررت به هو ومحمد (١) !! ويحكم سيبويه بأن الفعل ثقيل والاسم خفيف ويعلل ذلك بقوله : « ألا ترى أن الفعل لابد له من الاسم وإلا لم يكن كلاما ، والاسم قد يستغنى عن الفعل تقول : الله إلهنا ، وعبد الله أخونا » (٢) • وقد بلغ من شدة اهتمام النحاة بهذا النوع من البحوث أن ألف فيه بعضهم كتبا مستقلة ، مثل قطرب (توفى ٢٠٦) الذى ألف « العلل فى النحو » والمازنى (توفى ٢٣٠ أو ٢٤٨) الذى ألف « علل النحو » (٣) •

٥ — استخدام النحويين أنواعاً من الأقيسة النظرية التى لا تعتمد على شاهد من كلام العرب ، كمنعهم تقدم الفاعل على فعله وإعرابهم الجملة : محمد قام على أنها مكونة من مبتدأ ثم جملة فعلية مكونة من الفعل وفاعله المستتر ، وأخيرا يعربون الجملة الفعلية خبرا لهذا المبتدأ • ولم يكتفوا بذلك ، بل فلسفوا القياس ، وبحثوا عن أركانه ثم حاولوا أن يحددوا شرائط القياس النحوى (٤) • وظهر سلطان العلوم الدينية على التفكير النحوى حتى اعترف النحاة بأنهم احتذوا فى أصولهم أصول

---

(١) شوقى ضيف : المدارس النحوية ، ص ٥١ .
(٢) الدكتور مازن المبارك : النحو العربى ، ص ٦٢ ، ٦٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) راجع : فى أصول النحو للأفغانى ، ص ١٠٨ وما بعدها .

الفقه عند الحنفية خاصة . ونجد كمال الدين بن الأنبارى من أهل المائة السادسة يضع كتابه « لمع الأدلة » ليكون للنحو بمثابة « علم الأصول » للفقه ، عقد فيه فصولا عدة للقياس وأنواعه كما كان فعل علماء الفقه وأصوله [١] . وأخذ النحاة يتنافسون فى هذه الأقيسة النظرية والافتراضات غير الواقعية . وممن تمادوا فيها الرمانى المولود سنة ٢٧٦ هـ ، وفيه يقول الفارسى : « إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء » [٢] . وبلغ من اعتداد النحويين بالقياس أن قال ابن الأنبارى : « إن إنكار القياس فى النحو لا يتحقق ، لأن النحــو كله قياس .. فمن أنكر القياس فقــد أنكر النحو » [٣] . ونحن لا نستطيع — ولا غيرنا — أن نطالب بإغلاق القياس أو الحــد منه وإنمــا نطالب بإلغاء ما ليس قياسا حقيقة . لقد قسم اللغويون القياس الى :

(أ) حمل كلمة على نظائرها فى حكم ثبت لها باستقراء كلام العرب.

(ب) إعطاء كلمة حكما ثبت لغيرها من الكلم المخالف لها فى نوعها ، ولكن توجد بينهما مشابهة من بعض الوجوه كترخيم المركب المزجى قياسا على الأسماء المنتهية بتاء التأنيث .

(جـ) القياس النظرى الذى لا يعتمد على شـــاهد من كلام العرب كقــول بعضهم : « ولا أمنع أن يجىء الفعــل على فَعْلَنَ وإن كان المتقدمون لم يذكروه . لأن الاسم اذا جاء على ذلك وجب أن يجىء عليه الفعل إذ كان الاسم أصلا والفعل متفرع عنه . وقد قالوا ناقة رعشن .. وامرأة خلبن » .

(د) أطلقوه كذلك على نوع من التعليل المنطقى كقولهم إن الفعل

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) نشأة النحو ، ص ١٧٣ .
(٣) الاقتراح ، ص ٤٦ .

المضارع أعرب لشبهه بالاسم أو قياسا على الاسم ، وما ادعوه فى باب الممنوع من الصرف من أن الاسم يمنع من الصرف حملا على الفعل أو قياسا على الفعل (١) .

وليس منها ما يعد قياسا لغويا على وجه الحقيقة سوى النوع الأول الذى نتمسك به ونبقيه لأن النحو — كما يقول ابن الأنبارى — قياس ، ومن أنكر القياس فقد أنكر النحو . أما الأنواع الأخرى فلا يضر إلغاؤها .

٦ — تناولهم أمورا لا علاقة لها بالنحو ، ولا فائدة تؤدى إليها ، لأنها لا تفيد نطقا ولا تعصم لسانا ولا تمنع خطأ . وذلك مثل اختلافهم فى الناصب بعد الفاء والواو أهو هـذه الأدوات نفسها ؟ أم « أن » مضمرة ؟ أم أن الفعل منصـوب على الخلاف ؟ ومثل خلافهم فى رافع المبتدأ والخبر ، فقيل إن المبتدأ يرتفع بالابتداء والخبر بالابتداء كذلك أو بالابتداء والمبتدأ معا ، وقيل إن المبتدأ والخبر يترافعان فيرفع المبتدأ الخبر والخبر والمبتدأ . وكذلك خلافهم فى رافع المضارع فقيل هـو التجرد من الناصب والجازم وقيل وقوعه موقع الاسم وقيل المضارعة وقيل حروف المضارعة (٢) .

ومن ذلك أيضاً تناولهم لمسائل غير عملية بل عقدهم أبوابا كاملة غير عملية مثل أبواب الاشتغال والتنازع .... وتفريعهم للمسائل وتشقيقها . ولنأخذ باب الاشتغال على سبيل المثال . فقد اضطرب النحاة فى صور تعبيره اضطرابا شديدا ، وقسموا صوره إلى ما يجب رفعه ، وما يجب نصبه وما يترجح فيه الرفع أو النصب ، وما يجوز فيه الأمران . وتبحث فى كلام العرب عن أمثلة أو شواهد لكل هذا الذى قالوه ، فلا تجـد لمعظمه وجها ، بل لا تجد له ذكرا .

---

(١) انظر : الخضر حسين : القياس فى اللغة ، ص ٢٥ ، ٢٧ ، وشرح الحماسة لأبى العلاء المعرى ، ص ٢٦٣ .

(٢) راجع : الانصاف ٣١/١ ، الكافية ١٩/١ ، ٢٢٤/٢ ، الأشمونى ٢٩٩/٣ — ٣٠٠ ، ٢٨١ — ٢٨٢ .

ومن ذلك المسائل الافتراضية التى عالجها النحاة ، والتمارين غير العملية التى فتح الخليل وسيبويه بابها على مصاريعه — على حد تعبير الدكتور شوقى ضيف — ومن ذلك ما ذكره سيبويه من أنه سأل الخليل عن رجل سمى « أولو » من قوله عز وجل : (نحن أولو قوة) أو سمى « ذوو » من قولهم : ذوو عزة ، وكيف يجرى إعرابهما بحسب مواقع الكلام . وكذلك سؤال سيبويه أستاذه عن رجل يسمى « يرمى » أو « أرمى » (١) . ومن ذلك قول سيبويه : « وإن سميت رجلا ضربوا فيمن قال : أكلونى البراغيث قلت : هذا ضربون قد أقبل » . ومن خير ما يصور ذلك عنده « باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ولم يجىء فى الكلام إلا نظيره من غير المعتل » ، ويأخذ فى عرض ذلك عرضا يطول حتى يشغل أكثر من أربع صفحات طويلة . وكلها فى صيغ من بنات أفكاره يحاول أن يقيسها على صيغ معروفة (٢) . ومن أمثلة ذلك فى كلام المبرد قوله : « فإذا قال لك ابن من ضرب مثل جعفر فقد قال لك : زد على هذه الحروف الثلاثة حرفا . فحق هذا أن تكرر لامه فتقول : ضربب ولو قال لك ابن لى من ضرب على مثال صمحمح لقلت : ضربرب (٣) . ومثل هذا نجده فى قوله : « ولو قلت افعوعل من القول لقلت اقووول ومن البيع ابييع وكان أصلها ابيويع » (٤) .

وقد ضاق طلاب النحو من قديم بطريقة النحاة هذه ، وظهرت دعوات متعددة على طول تاريخ النحو العربى ، منها ما يدعو الى تهذيب النحو ، وإصلاحه ، ومنها ما يدعو الى تركه والتخلى عنه بالكلية ، ومنها ما كان يعبر عن سخط وضجر . كما ظهرت محاولات عملية لتأليف النحو تأليفا تعليميا سهلا يطرح الخلافات ويتخلص من الأبواب غير العملية والمسائل التدريبية . وانتهز الشعوبية فرصة الضجر من النحو والنحاة

---

(١) المدارس النحوية ، ص ٥٥ — ٥٦ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٩١ — ٩٢ .
(٣) المقتضب (مخطوط) ، ص ٣٧ .
(٤) المرجع نفسه ص ١١٩ . وانظر ص ١٢٠ ، ١٢٨ .

فأخذوا يصيدون فى الماء العكر وينتقصون من قدر هذه الدراسة ويتلمسون الأدلة والأسباب لتقولاتهم . ويحكى لنا أبو جعفر النحاس (من نحاة القرن الرابع بمصر) طرفا من هذه القضية فى كتاب له بعنوان « صناعة الكتاب » لم يصلنا ، ولكن اقتبسه القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » . ونص عبارته : « قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمى العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم بن مخيمرة قال : (النحو أوله شغل وآخره بغى). قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل وأول الحساب شغل ، وكذلك أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ قال : وأما قوله : (وآخره بغى) إن كان يريد به أن صاحب النحو اذا حذقه صار فيه زهو واستحقر من يلحن فهذا موجود فى غيره من العلوم ، من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغى التجاوز فيما لا يحل ، فهذا كلام محال ، فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرآن ، وهى لغة النبى ﷺ وكلام أهل الجنة وكلام أهل السماء . ثم قال بعد كلام طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس فى علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب وبعدت عليهم معرفة الهمزة التى ينضم ويفتح ما قبلها » [1] .

وقد ظهر ضيق الناس بالنحو حتى قبل استفحال أمر الشعوبية ، وحتى من طلاب النحو المتفرغين . فالجاحظ يقول فى حيوانه : « قلت لأبى الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ، ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض العويص ، وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجاتهم الىّ فيه . وإنما قد كسبت فى هذا التدبير ، إذ كنت الى التكسب ذهبت . » [2] ويروى عن دماذ صاحب أبى عبيدة

(١) صبح الأعشى ١/١٧١ . (٢) الحيوان ١/٩١ ، ٩٢ .

أنه قرأ من النحو الى بابى الفاء والواو ، فلما استمع الى قول الخليل وأصحابه أن ما بعدهما ينتصب بأن مضمرة وجوبا نبا فهمه عن ذلك وكتب الى المـازنى يشكو إليه ما لقيه من عنت فى أبيات ختمها بقوله :

لقد كدت يا بكر من طول ما   أفكر فى بابه أن أجن (١)

وأخذ رد الفعل الإيجابى لهذا الضجر شكلين منتجين :

أحدهما : الكتب الميسرة التى تلبّى حاجة الطلاب والمتعلمين .

ونكتفى بضرب المثلين الآتيين :

(أ) « مقدمة فى النحو » تأليف خلف الأحمر البصرى المتوفى سنة ١٨٠ هـ . وقد استهل المؤلف كتابه قائلا : « لمـا رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلل ، وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلم المتبلغ فى النحو من المختصر .. والمـأخذ الذى يخف على المبتدىء حفظه ويحيط به فهمه ، فأمعنت النظر والفكر فى كتاب أؤلفه ، وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين ليستغنى به المتعلم عن التطويل ، فعملت هذه الأوراق ، ولم أدع فيهـا أصلا ، ولا أداة ، ولا حجة ، ولا دلالة إلا أمليتها فيها . فمن قرأها وحفظها وناظر عليها علم أصول النحو كله » .

ومن عناوين هذا الكتاب وأبحاثه :

— باب الحروف التى ترفع كل اسم بعدها :

وهى إنما وكأنما وهل وبل وهو وأين ...

— باب الحروف التى تنصب كل شىء أتى بعدها :

وهى رأيت وظننت وحسبت ووجدت ...

---

(١) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

— باب الحروف التى تخفض ما بعدها من اسم وأخبارها مرفوعة ، ويقال لها حروف الصفات وهى :

من والى وعن وعلى وتحت ودون ووراء .. وكل وبعض وغير .. وأطيب وأكتب وأفرس وأشجع ... (١) .

(ب) « التفاحة فى النحو » لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ(٢) والكتاب يتناول موضوعات النحو وحدها (ولا يتناول أى موضوعات صرفية) ، ويحتوى على واحد وثلاثين فصلا منها : باب أقسام العربية — باب الإعراب — باب رفع الاثنين — باب أقسام الفعل — باب الفاعل والمفعول به — باب الابتداء — باب حروف الخفض — باب الحروف التى تنصب الأسماء وترفع الأخبار — بـــاب الحروف التى ترفع الأســـماء وتنصب الأخبار — باب الحروف التى تنصب الأفعال المستقبلة .

والكتاب صغير الحجم جداً إذ يقع فى ثمانى ورقات من مخطوطة المكتبة المتوكلية بصنعاء ، ولكنه مفيد جداً لأنه يحوى جميع مبادىء النحو وقواعده الرئيسية . وقد ساعده على الاختصار طرحه الخلافات النحوية ، واعتماده على اللغة الأدبية المشتركة وترك الخلافات اللهجية ، وحذفه الشواهد وأسماء النحاة ، واستبعاده المناقشات المنطقية والفلسفية .

وقد خلا الكتاب — الى جانب ذلك — من الأبواب غير العملية مثل باب الاشتغال ، وباب التنازع ، بل تجاهل صيغة « أفعل به » فى التعجب وذلك لعدم اشتهارها .

وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفى فى تقعيد القواعد ، ومن أجل ذلك عد فى باب حروف الخفض كثيرا من الكلمات التى يعتبرها النحو التقليدى

---

(١) مقدمة فى النحو — اماكن متفرقة .

(٢) ينسب الكتاب خطأ الى الخليل بن احمد ، انظر فهرست المخطوطات لفؤاد سيد ٧١/١ .

ظروفا ، مثل أسفل وخلف وقدام ووراء وفوق وتحت ووسط وبين . والسر فى ذلك أنه نظر الى وظيفة الكلمة فى الجملة فوجدها لا تختلف فى « على » عنها فى « فوق » مثلا . فلماذا لا يجعلها كلها فى فصل واحد ؟ وأى فرق — فى الحقيقة — بين قولنا : الكوب على المائدة ، والكوب فوق المائدة حتى نعد الأول من قبيل حرف الجر والمجرور ، والثانى من قبيل الظرف والمضاف إليه ؟

وواضح من عنوان الكتاب ، ومن طريقته فى تناول المسائل أنه وضع ككتاب مدرسى يلبى حاجة طلاب العربية ودارسى النحو المتعجلين . ولذلك فللكتاب قيمة كبيرة من الناحية التعليمية .

والآخر : تقديم المقترحات لإصلاح النحو أو تيسيره ، ونقد النحو ومناهج النحاة . ومن أقدم من تصدى لذلك :

١ — أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المصرى (القرن الرابع)

٢ — أبو العلاء المعرى الشاعر المعروف (القرن الخامس)

٣ — ابن حزم الأندلسى (القرن الخامس)

٤ — ابن مضاء الأندلسى (القرن السادس)

أما ابن ولاد فهو أقدم الأربعة ، وقد نادى بالمبادىء الآتية :

(أ) لا يصح الطعن على العربى أو رميه باللحن أو الخطأ أو تقديم القياس النظرى على المادة اللغوية المسموعة . وفى هذا يقول ردا على المبرد : « إن كانت التخطئة لمن قال ذلك من العرب ، فهذا رجل يجعل كلامه فى النحو أصلا ، وكلام العرب فرعا ، فاستجاز أن يخطئها إن تكلمت بفرع يخالف أصله » ، ويقول : « الذى للغوى أن يفعله أن يمثل ويعتل لما جاء عن العرب فأما أن يرده فليس ذلك له » .

(ب) أنه يجب الوقوف عند المادة اللغوية المسموعة ، ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس النظرى فهناك من الأساليب والكلمات ما يصح فى القياس ولكنه لم يسمع ، فيجب أن نقف عند ما قالته العرب ولا نغيره • يقول ابن ولاد : « لا ينظر الى القياس فقط دون ما تتكلم به العرب • فإن العرب يمتنعون من التكلم بالشىء وإن كان القياس يوجبه ، ويتكلمون بالشىء وإن كان القياس يمنعه » • ويقول « سبيل النحويين اتباع كلام العرب إذ كانوا يقصدون الى التكلم بلغتهم • فأما أن يعملوا قياسا — وإن حسن — يؤدى الى غير لغتها فليس ذلك لهم ، وهو غير ما بنوا عليه صناعتهم » •

(جـ) كذلك هاجم ابن ولاد التأويل والتقدير فى النحو ، وادعاء الحذف والإضمار ، وقد سبق أن مثلنا لذلك بإعراب قوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) [١] •

وأما أبو العلاء المعرى فتتمثل دعوته الى الإصلاح فى ثورته العارمة على مبدأ التأويل والتقدير • ولم يكن هناك ما يغيظه أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأويلات النحاة ، وتكلفاتهم ، وتخريجهم بعض الأبيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة • وكثير من نقده ينصب على هذا الجانب من نحو النحاة • وقد سدد المعرى معظم سهامه الى نحاة البصرة الذين أكثروا من التأويل والتقدير ، وتعسفوا غاية التعسف فى تخريج كثير من الشواهد لتستقيم مع أصول مذهبهم • وقد امتلأت مؤلفات المعرى بأمثلة لذلك ولكننا سنكتفى بعرض نماذج منها :

(أ) يمنع سيبويه وكثير من النحويين أن يلى كان معمول الخبر • وهم يؤولون ما ورد كذلك ويقدرون ما يستغنى الكلام عنه ، كما قالوه فى قول الشاعر :

---

(١) انظر أيضا مقالنا عن كتابه « الانتصار » فى مجلة كلية المعلمين ، الجامعة الليبية ، العدد الأول •

قنافذ دراجون حول خبائهم   بما كان إياهم عطية عودا

فيقدرون ضمير الشـأن فى « كان » محله الرفع على أنه اسمها ، ويعربون « عطية » مبتدأ ، وجملة « عوّد » خبره ، و « إياهم » منصوبة بـ « عود » وجملة المبتدأ وخبره خبر « كان » . أو يعربون « مـا » موصولة واسم « كان » ضميرا مستترا يرجع الى « ما » و « عطية » مبتدأ « وعود » خبره « وإياهم » مفعولا مقدما والعائد محذوف .. الى آخر ما قالوه فى توجيه البيت . ولكن المعرى بذوقه العربى يرفض هذه الأعاريب قائلا : والأشبه بمذاهب العرب أن يكون عطية مرفوعا بـ « كان » « وإياهم » منصوبا بـ « عوّد » (١) .

(ب) وأبدع خيال المعرى مشهدا لطيفا وقف فيه أبا على الفارسى فى الجنة موقف المتهم : « وكنت رأيت فى المحشر شيخا لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى على الفارسى ، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . منهم يزيد بن الحكم الكلابى وهو يقول : ويحك ! أنشدت عنى هذا البيت برفع الماء ، يعنى قوله :

فليت كفافا كان شرك كلـه   وخيرك عنى ما ارتوى الماءُ مرتوى

ولم أقل إلا المـاء بالنصب . وكذلك زعمت ... واذا رجل آخر يقول : ادعيت على أن الهاء راجعة الى الدرس فى قولى :

هـذا سراقة للقرآن يدرسـه   والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك .. » (٢) .

وأما ابن حزم الأندلسى فقد هاجم علل النحو ورأى أنها « كلها فاسدة لا يرجع منها شىء الى الحقيقة ألبتة . وإنما الحق من ذلك أن

---

(١) عبث الوليد ، ص ٨٠ .
(٢) رسالة الغفران ، ص ١٥٢ — ١٥٤ .

هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم فى ضبطها ، وما عدا هـذا فهو — مع أنه تحكم فاسد متناقض — فهو أيضاً كذب ، لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل الى كذا .. شىء يعلم كل ذى حس أنه كذب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ثم انتقلت الى ما سمع منها بعد ذلك » [١] . كما كان من رأيه أن التعمق فى بحث مسائل النحو إفساد وأنه يجزىء فى النحو كتاب الواضح للزبيدى أو الموجز لابن السراج . أما « التعمق فى علم النحو ففضول لا منفعة بها . بل هى مشغلة عن الأوكد ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هى تكاذيب » [٢] .

وأما ابن مضـــاء القرطبى فقد ألف كتابا فى شرح آرائه الهجومية أسماه « الرد على النحاة » . وقد قام الأستاذ الدكتور شوقى ضيف بتحقيقه وكتابة مقدمة وافية له يجب الرجوع إليها لمن يريد أن يعرف منهج ابن مضاء فى نقد النحو والنحاة . وكانت غاية ابن مضاء أن يحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأن ينبه على ما اجتمعوا على الخطأ فيه . وتتحقق هذه الغاية فى رأيه بإلغاء نظرية العامل ، وإلغاء العلل الثوانى والثوالث ، وإبطال القياس ، وترك المسائل النظرية ، وإسقاط كل مالا يفيد فى النطق [٣] .

قيمة الدراسات النحوية عند العرب :

على الرغم مما شاب النحو العربى من شوائب ، وما وجه إليه من نقد ، فلا أحد يستطيع أن ينكر قيمة النحو العربى ، ومقدرة النحاة الفائقة التى تصل أحيانا الى حد الإعجاز . يقول الأستاذ عباس حسن : « أينا لاتبهره تلك العناية المعجزة التى بذلها الأولون فى جمع أصول

---

(١) نظرات فى اللغة عند ابن حزم الاندلسى ، ص ٤٤ — ٤٦ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) النحو العربى للدكتور مازن المبارك ، ص ١٥٣ . وقد نبه المؤلف الى بعض الأفكار التى نادى بها ابن مضاء ولها نظير عند السابقين . وانظر بحثنا : دعوات الاصلاح للنحو العربى قبل ابن مضاء .

اللغة ، ولم شتاتها ، واستنباط أحكامها العامة والفرعية وحياطتها بسياج من اليقظة الواعية والحيطة الوافية » (١) . بل إن ابن مضاء — برغم عدائه الشديد للنحاة — يقول : « وإنى رأيت النحويين .. قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن .. فبلغوا من ذلك الغاية التى أموا » (٢) . وهذا ما دعا أحد المستشرقين الى قوله : « إن علم النحو أثر من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة فى الملاحظة ونشاط فى جمع ما تفرق . وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به » (٣) وحمل يوهان فك على أن يقول : « ولقد تكفلت القواعد التى وضعها النحاة العرب — فى جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالإعجاب — بعرض اللغة الفصحى وتصويرها فى جميع مظاهرها .. حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد » (٤) ويقول فيشر فى مقدمة معجمه : « إذا استثنينا الصين لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها حسب أصول وقواعد غير العرب » (٥) .

---

(١) رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية ، ص ١ .
(٢) الرد على النحاة ص ٨٠ .
(٣) مجلة الأزهر ، رمضان سنة ١٣٩١ هـ ، ص ٤٠ .
(٤) العربية ، ص ٢ .
(٥) المعجم اللغوى التاريخى ، ص ٤ .

الفصل الرابع

المعجم

١ ــ مقدمات للموضوع

صعوبة العمل المعجمي :

يعد العمل المعجمى من أصعب مجالات النشاط لعلم اللغة • فهو أولا يتطلب مواصفات خاصة فى صانعه يندر توافرها الآن ، وهو ثانيا يتطلب دقة وصبرا متناهيين ولذا يقول Gleason : « إن عمل المعاجم عمل مضجر الى أقصى حد •• إنه الدقة •• إنه عبء عظيم لا يمكن تصديقه » • والى جانب هذا وذاك فإن العمل المعجمى يستلزم معرفة كل شىء عن اللغة المعنية ، والخصائص الملائمة لوحداتها المعجمية ، والنظام العام للغة ، كما يستلزم تكوين صورة واضحة عن مستعمل المعجم وهدفه وتفكيره •

وبالإضافة الى هذه الصعوبات فهناك صعوبتان أخريان هما :

١ ــ أن المعجمى يعالج ظاهرة مفتوحة لا تستقر على حال • ولذا فإن أى محاولة لحصر كلمات أى لغة حية تعد مطلبا عزيز المنال إن لم يكن مستحيلا ويظل المعجمى فى حالة تساؤل دائم عن مدى تحقيق معجمه للشمول ومقدار قربه أو بعده من الجمع الكامل لمادة اللغة •

٢ ــ أن المعنى هو المحل الأول لاهتمام المعجمى ، وهو يمثل صعوبة فى حد ذاته بل عده بعضهم واحدا من أصعب حقول الدراسة [1] •

---

(1) Manual of lexicography ص ١٥ ــ ٢٣ •

تعريف المعجم :

عرّف اللغويون المعجم بأنه « كتاب يضم بين دفتيه مفردات لغة ما ومعانيها واستعمالاتها فى التراكيب المختلفة ، وكيفية نطقها ، وكتابتها ، مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب التى غالبا ما تكون الترتيب الهجائى » • وعرفه المعجم الوسيط بأنه « ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف المعجم » •

المعجم اللغوى والموسوعة :

يتمثل الفرق بين المعجم اللغوى والموسوعة فى اختلافات ثلاثة ، أولها أن الموسوعة معجم ضخم يشغل مجلدات كثيرة فى حين أن المعجم اللغوى يتفاوت حجمه تبعا للغاية المنشودة ولنوعية مستعمله • وثانيها أن المعجم اللغوى لا يهتم كثيرا بالمواد غير اللغوية ، واذا ذكرها فبصورة مختصرة جدا لأنه يترك تفصيلاتها للموسوعات • ومن أمثلة المواد غير اللغوية التى لا يهتم بها المعجم أسماء الأعلام ، والأسماء الجغرافية مثل الأقطار والمدن والأنهار والجبال والبحار والمحيطات •• ، والأحـداث والعصور التاريخية ، والتنظيمات الحكومية وغير الحكومية ، والمؤسسات العلمية وغيرها • وثالث الاختلافات أن المعجم اللغوى يهتم بالوحدات المعجمية للغة وبالمعلومات اللغوية الخاصة بها فى حين أن الموسوعة الى جانب اهتمامها بالمعانى الأساسية للوحدات المعجمية تعطى معلومات عن العالم الخارجى غير اللغوى ، فالمعجم اللغوى يشرح الكلمات ، أمـا الموسوعة فتشرح الأشياء •

ولو أخذنا كلمة bridge أو جسر على سبيل المثال ونظرنا إليها فى عملين معجميين أحدهما لغوى ويمثله معجم أكسفورد الإنجليزى ، والآخر موسوعى ويمثله دائرة المعارف البريطانية لتبين الفرق بين العملين فى علاج المـادة •

فمعجم أكسفورد يذكر معناه وهو : طريق مرتفع فوق نهر أو واد .. الخ أو ممر يصل نقطتين مرتفعتين عن سطح الأرض . كما يتحدث عن اختلافات أشكال الجسور ومواد بنائها ، ويقتبس بعض الأمثلة من عصور مختلفة . فى حين أن دائرة المعارف البريطانية بعد أن عرّفت الجسر أردفت التعريف بمعلومات تتناول أشكال الجسور وتعدد نماذجها (جسور ثابتة — جسور متحركة .. الخ) كما تتناول إنشاء الجسور من ناحية تاريخية ، وتذكر أسماء الجسور المشهورة بنماذجها ، ومواد بناء الجسور ، وتصميم الجسور ، بالإضافة الى بعض الجداول والرسوم .

ولكن لأن الكلمات لا تظهر معانيها إلا بالنظر الى الأشياء التى تدل عليها فإنه من غير الممكن تأليف معجم دون الإشارة الى الأشياء الخارجية ، ودون ربط الكلمات بالموجودات التى تدل عليها .

أنواع المعاجم :

عادة ما تطلق كلمة « معجم » على المعاجم الشاملة أحادية اللغة ، أى التى تتطابق فيها لغة المدخل مع لغة الشرح .

ولكن الكلمة قد تطلق كذلك على ما يسمى بالمعاجم الخاصة ذات المجال المحدود فيقال معجم مصلحات — معجم مترادفات — معجم ألفاظ القرآن الكريم .. الخ كما تطلق على المعاجم ثنائية (أو متعددة) اللغة ، وهى المعاجم التى تختلف فيها لغة الشرح عن لغة المدخل ، وتهتم بتقديم المعلومات عن اللغة المشروحة أكثر مما تهتم باللغة الشارحة ..

معنى كلمة معجم واشتقاقها :

تفيد مادة « عجم » فى اللغة معنى الإبهام والغموض ؛ ففى اللسان : « الأعجم الذى لا يفصح ولا يبين كلامه » ، وفيه : « ورجل أعجمى وأعجم اذا كان فى لسانه عجمة » ، وفيه « سميت البهيمة عجماء لأنها

لا تتكلم » • وسمى العرب بلاد فارس بلاد العجم لأن لغتها لم تكن واضحة ولا مفهومة عندهم •

فإذا أدخلنا الهمزة على الفعل « عجم » ليصير « أعجم » اكتسب الفعل معنى جديدا من معنى الهمزة (أو الصيغة) الذى يفيد هنا السلب والنفى والإزالة • ففى اللغة أشكيت فلانا : أزلت شكايته ، وفيها : أقذيت عين الصبى : أزلت ما بها من قذى • ومثلهما « قسط » و « أقسط » حيث تفيد الأولى « ظلم » والثانية « عدل » (أو أزال الظلم) • ولهذا ذم الله القاسطين : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » ومدح المقسطين : « إن الله يحب المقسطين » •

وعلى هذا يصير معنى أعجم : أزال العجمة أو الغموض أو الإبهام • ومن هنا أطلق على نقط الحروف لفظ « الإعجام » لأنه يزيل ما يكتنفها من غموض • فمثلا حرف « ب » يحتمل أن يقرأ ب أو ت أو ث •• فإذا وضعنا النقط أى أعجمناه زال هذا الاحتمال وارتفع الغموض •

ومن هنا أيضاً جاء لفظ « المعجم » بمعنى الكتاب الذى يجمع كلمات لغة ما ويشرحها ويوضح معناها ويرتبها بشكل معين • ويكون تسمية هذا النوع من الكتب معجماً إما لأنه مرتب على حروف المعجم (الحروف الهجائية) ، وإما لأنه قد أزيل أى إبهام أو غموض منه ، فهو معجم بمعنى مزال ما فيه من غموض وإبهام •

وقد فهم من هذا أن لفظ « معجم » يعد اسم مفعول من الفعل « أعجم » ويحتمل من ناحية أخرى أن يكون مصدراً ميمياً من نفس الفعل ، ويكون معناه الإعجام أو إزالة العجمة والغموض •

جمعها :

تجمع كلمة « معجم » جمع مؤنث سالما على « معجمات » وهذا محل اتفاق بين جميع اللغويين •

وهناك جمع آخر لهذا اللفظ وهو « معاجم » الذى يعد جمع تكسير • وقد اختلف فى صحة هذا الجمع ، فالمتشددون يمنعونه قائلين : إن سيبويه قد نص على أنه لا يصح أن يجمع جمع تكسير كل ما بدىء بميم زائدة من أسماء الفاعلين والمفعولين • وغير المتشددين يسمحون به بناء على وجود ألفاظ كثيرة من هذا القبيل جمعت جمع تكسير مثل محرَّم ومحارم ، ومُرْسَل ومراسل ، ومُجْسَد ومجاسد ، ومُسْنَد ومساند ، ومُصْعَب ومصاعب ، ومهرع ومهارع [١] وقد اتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤخراً قراراً بصحة هذا الجمع •

شروط المعجم :

هناك شرطان لابد من توافرهما فى أى كتاب يجمع مفردات اللغة ويشرحها • هذان الشرطان هما :

(أ) الشمول •

(ب) الترتيب •

ويعد الشمول أمراً نسبياً تتفاوت المعاجم فى تحقيقه • أما الترتيب فلابد من توفيره ، وإلا فقد المعجم قيمته • وقد كان تعدد طرق الترتيب المعجمى عند العرب ، وتفاوت هذه الطرق صعوبة وسهولة سبباً فى موت معاجم وحياة أخرى ، وخمول بعضها وشيوع أخرى •

وظيفة المعجم :

هناك مجموعة من الوظائف يجب أن يؤديها المعجم وهى :

(أ) شرح الكلمة وبيان معناها أو معانيها ، إما فى العصر الحديث فقط أو مع تتبع معناها أو معانيها عبر العصور •

---

(١) انظر كتابنا : من قضايا اللغة والنحو ، ص ١٨١ وما بعدها .

(ب) بيان كيفية نطق الكلمة •

(جـ) بيان كيفية كتابة الكلمة •

(د) تحديد الوظيفة الصرفية للكلمة •

(هـ) بيان درجة اللفظ فى الاستعمال ، ومستواه فى سلم التنوعات اللهجية •

(و) تحديد مكان النبر فى الكلمة • والنبر باختصار هو إعطاء بروز معين لأحد مقاطع الكلمة دون المقاطع الأخرى • ولما كان النبر فى اللغة العربية الفصحى لا يؤدى انتقاله من مقطع الى مقطع الى تغيير المعنى ، فإننا نجد المعجميين العرب يهملون بيان موقع النبر فى الكلمة ، وإن كنا نرى أن بيان موضعه ضرورى لمن يريد تحقيق النطق العربى الفصيح ، كما أنه ضرورى بالنسبة لمن يريد أن يتعلم كيفية النطق الحديث للهجات العربية •

أما المعاجم الأجنبية ، وبخاصة مع اللغات التى يختلف فيها معنى الكلمة تبعاً لموقع النبر ، فقد اهتمت ببيان موضع النبر عن طريق علامة تضعها فوق المقطع المنبور • ومثال ذلك كلمة import الإنجليزية فإذا وضعنا النبر على المقطع الأول كانت اسماً ، واذا وضعناه على المقطع الثانى كانت فعلا ومثلها كلمات : Present, subject وغيرها (١) •

وبالنسبة للهجات العربية المعاصرة فإنه لابد لأى معجم لها أن يحدد موضع النبر فى الكلمة لأنه يختلف من منطقة الى منطقة • فمثلا كلمة « كتب » تنطق فى القاهرة بنبر الأول وفى منطقة الصعيد بنبر الثانى ، وكلمة « مطر » تنطق فى مصر بنبر الأول وفى ليبيا بسكون الميم وتشديد الراء •• وهكذا •

---

(١) انظر موضوع النبر فى كتابنا « دراسة الصوت اللغوى » •

الخطوات الإجرائية لإعداد المعجم :

أصبح للمعجم الحديث مواصفات عالية يجب توافرها فى كل معجم ، كما استقرت منهجيته فى جملة من الإجراءات التى أهمها :

أولا : التقديم بين يدى المعجم بمقدمة تحـدد منهجه ، وطريقة ترتيبه ، ووسائل ضبط الهجـاء والنطق فيه ، وكيفية تصنيفه المعانى والدلالات ، ووسـائل التعريف المتبعة ، وشرح الرمـوز والعلامـات والاختصارات المستعملة فى المعجم • كما تشمل المقدمة عرضـا سريعا لتاريخ اللغة وأنظمتها الصوتية والصرفية والدلالية ••

ثانيا : السير فى تأليف المعجم على الخطوات الآتية :

(أ) جمع المـادة ، ويتم عن طريق الاستخلاص من النصوص التى تقع فى دائرة اهتمام المعجمى مع وضع كل مفرد فى بطاقة • ولايهم أن تكون المـادة مكتوبة أو شفوية • ولكن ينبغى الحذر فى تسجيل المـادة الصحفية لأنها كثيرا ما تستعمل تعبيرات متكررة فى مناسبات خاصة ، كما تستخدم مفردات ابداعية سريعة ، ويندر أن تلتزم بمستوى لغوى معين • ولكن مسح النصوص الصحفية هام لأنها فى أخبارها ومقالاتها الافتتاحية تحتوى على أحـدث مادة معاصرة بالنسبة للموضوعات التى تعالجهـا •

والنص الذى يجب اقتباسه فى كل بطاقة لابد أن يشتمل على جزء السياق اللغوى الذى يسمح باستنتاج المعنى الأساسى للكلمة ، وبعض من ملامحها الدلالية ، وخصائصها النحوية • إنه يجب أن يكون مختصرا ، ولكنه يجب كذلك أن يكون واضحا •

وقد يستعان فى جمع المـادة بوسيلتين أخريين أولاهما ما يمكن أن يسمى بالدليل اللغوى Informant الذى يلجأ إليه فى تمثيل اللغة كما ينطقها ويستعملها أبناؤها ، وفى تكملة بعض الثغرات التى لم يملأهـا

المجمع اللغوى • والأخرى استشارة المعاجم الأخرى فى اللغة موضوع الدراســـة • بل قد يحدث أحيانا أن يكون أحد المعاجم هو الأســـاس لعمل المعجم الجديد •

(ب) الخطوة الثانية من عمل المعجمى اختيار المداخل أى الوحدات المعجمية التى سيتضمنها المعجم •

ويؤثر فى هذا الاختيار جملة من العوامل منها ما سبق اتخاذه من قرارات عن نمـــوذج المعجم والهدف من تأليفه • ومنهـــا حجم المعجم المقترح ، فمعجم كبير أو متوسط لا يصح أن يهمل ذكر التنوعات العامية للغة • ومعجم كبير أو متوسط يجب أن يهتم بمصطلحات العلوم والفنون وأن يذكر منها ما يشيع فى اللغة العامة • ومعجم كبير أو متوسط لابد أن يعطى إشارات لأسماء الأماكن ذات الأهمية الخاصة ، وأعلام الأشخاص اذا اشتهرت ، أو حملت معنى عاما ، أو كان لاشتقاقها أهمية خاصة •

وأهم من هذا يأتى السؤال : ماذا يأخذ المعجمى من المـــادة وماذا يترك حتى بعد أن يحدد نموذج المعجم وهدفه وحجمه ؟ فليس هناك عدد معين من المـــواد يمكن تحـــديده مسبقا بالنسبة لأحجام المعاجم الثلاثة : الصغير والمتوسط والكبير • وإن كان هناك أعداد تقريبية تطرح لكل نوع • فالصغير يبدأ من ١٢٠ ألف كلمة الى ١٥٠ ألف كلمة ، والمتوسط من نصف مليون كلمة الى مليون (وقد احتوى المعجم الوسيط على مليون كلمة أو ثلاثين ألف مادة) والكبير فى حدود ثلاثة ملايين كلمة •

وقد يلجأ المعجمى فى اختيار مداخله الى نسب تردد الكلمات حين يتيسر له ذلك (كثير من اللغات يخلو من هذه النسب) وإن كان بعضهم يشكك فى قيمة هذا العامل ، ويرى عدم الاعتماد على الإحصاء فى اختيار كلمات المداخل لأنه لا يوجد عد دقيق تحت أيدينا حتى الآن ، ولأن أى

عد يعتمد على العينات لا على مسح المـادة اللغوية ، ولأن أى عد لم يتضمن حتى الآن تجمعات الكلمات •

(جـ) أما الخطوة الثالثة من عمل المعجمى فهى تأليف المداخل أو معالجة المـادة من نواحيهـا المختلفة كالمعنى ، والنطق ، والهجـاء ، والاشتقاق ، ودرجة الاستعمال •

ويقع المعنى فى بؤرة اهتمام المعجمى ومع ذلك فهـو يمثل أكبر صعوبة تواجهه لصعوبة تحديده أولا ، ولاعتماد دقة تفسيره على جملة من القضايا الدلالية التى تتعلق بمناهج دراسة المعنى ، وشروط التعريف ، والتغير الـدلالى ، وتخصيص المعنى أو تعميمه ، والمعـانى المركزية والهامشية والإيحائية ، وصعود المعنى أو هبوطه ، والتلطف فى المخاطبة أو البدائل الدلالية المهذبة ، والاتساع المجازى ، والترادف ، والاشتراك اللفظى ، وتعدد تطبيقات الاستعمال ، وغيرها •

ويلجأ المعجمى الى طرق مختلفة لعرض المعنى أو تفسيره ، فقد يلجأ الى المرادف كأن يقول : الجود : الكرم ، السّبات : النوم • وقـد يلجأ الى ذكر المضاد كأن يفسر العدل بأنه ضد الظلم ، أو الجهل بأنه ضد العلم ، وقد يلجأ الى الشرح فى جملة أو عبارة • وهناك شروط حددها العلماء للتعريف الجيد الذى يعطى خصائص واضحة وشرحا محددا لمعنى الكلمة أو معانيها كأن يخلو الشرح من أى كلمة تعتمد على جذرها حتى لا يخرج القارىء من قراءة التعريف صفر اليدين •

وقد فسر معجم انجليزى كلمة negro بقوله of the Negro race وقد كان يقبل هـذا التعريف لو أن المعجم خصص مدخلا لـ Negro race ولكنه لم يفعل ذلك مع الأسف • وكان المطلوب فى مثل هذه الحالة إعطاء خصائص هذا الجنس كالسواد ، والمواطنية الأصلية فى إفريقيا ، والشفة الغليظة ، والشعر المجعد •• الخ •

كما يشترط فى التعريف أن يكون محددا فلا يقال مثلا عن « القَدَم » أو « المتر » إنه وحدة لقياس الطول ، بل لابد من تحديد قياسه لتحديد الفرق بينه وبين غيره من مقاييس الطول • وقد يلجأ المعجمى الى وسيلتين أخريين إضافيتين لتحديد المعنى كالاستعانة بالصور أو الرسوم ، أو الاستعانة بما يسمى « بالتعريف الظاهرى » « أو التمثيل الواقعى » الذى يعطى مثالا أو أكثر من العالم الخارجى • فبدلا من الاكتفاء فى تفسير « البياض » بأنه لون « الأبيض » كما تفعل كثير من المعاجم يتبع ذلك بقوله : وهو لون الثلج النقى ، أو ملح المائدة المكرر •

ولا يستغنى توضيح المعنى عن شيئين آخرين هما التمثيل بجمل مفيدة قصيرة ووضع الكلمة فى سياقاتها المتعددة التى تقع فيها مثل الفعل « أدرك » الذى يستعمل فى سياقات متعددة ويختلف معناه تبعا لذلك فيقال : أدرك القطارَ : اذا لحقه ، وأدرك حاجته : اذا حققها وحصل عليها ، وأدرك الصبىُّ : اذا راهق وبلغ حد البلوغ • ويمكن للتمثيل الجيد أن يوظَّف لخدمة المعنى فيقوم بتوضيح ظلال المعانى ، والمجالات التى ترد فيها الكلمة ، والصفات المصاحبة ، ونوع المفعول مع الفعل ، والمصاحبات الظرفية •• الخ • فإذا نحن عرّفنا « الجميل » بأنه ما يعطى بهجة أو رضا للعقل أو الحس فلا شك أن التمثيل سيزيد المعنى وضوحا كأن نقول : وجه جميل — زهرة جميلة — صوت جميل — طقس جميل — موسيقا جميلة •• الخ •

ولا يكتفى المعجمى بشرح المفردات بل لابد كذلك أن يشرح التعبيرات وبخاصة اذا لم يكن من الممكن فهمها من أجزائها المكونة • مثل : الكتاب الأسود ، الراية البيضاء ، ركوب الرأس ، طول اليد •

كما لابد أن يعالج الكلمات ذات الوحدات المتعددة (المركبة) مثل : الماء الثقيل — السوق السوداء — الهواء الطلق — بيضة الديك — بقرة بنى اسرائيل — قميص عثمان — كبد السماء •• الخ • ومن الممكن

فى مثل هذه الوحدات أن توضع تحت الكلمة الأولى منها ، أو تحت أسبق الكلمتين فى ترتيب المعجم ، أو تحت الكلمتين مع الربط بين الموقعين ، أو تحت أبرز الكلمتين •

وهناك قضية أخرى هامة بالنسبة للمعنى ماتزال موضع جدل بين المعجميين ، وهى معيار الحكم على كلمة بأنها ذات معنى واحد أو عـدة معان • واذا كانت ذات عدة معان أهى من باب المجاز أم من باب المشترك اللفظى ؟

ويترتب على اعتبار الكلمة ذات معنى واحد وضعها فى مدخل واحد حتى لو تعددت تطبيقاتها فى الاستعمال ، أو حملت بعض المعانى المجازية • ويكتفى فى هذه الحالة بترتيب المعانى داخليا بصورة من صور الترتيب المتفق عليها • أمـا اذا اعتبرت ذات معان متعددة فسيفرد لكل معنى مدخل ، وتتعدد المداخل بتعدد المعانى •

الفعل « شحذ » مثلا يأتى لمعنيين :

شحذ السكين : اذا أحده •

وشحذ الفقير الناس : سألهم •

فهل يمكن رد المعنيين الى معنى واحد هو « الإلحاح » و « التكرار » فيكون المدخل واحدا ؟ أو أن التماس هذا المعنى الواحد لا يتم إلا بتكلف وتمحل ولا يفطن اليه مستعمل اللغة العادى ، فيكون للفظ معنيان مختلفان فينظر إليه على أنهما لفظان مختلفان يستحق كل منهما مدخلا مستقلا ؟

ومثل هذا يمكن أن يطرح بالنسبة لكلمات مثل :

* حميم : فى قوله تعالى : « كأنه ولى حميم » مع قوله تعالى « وسقوا ماء حميما » • فالأولى بمعنى : صديق قريب والثانية بمعنى حار مغلى •

* قبيلة : فقد ذكر القاموس المحيط أنها واحـدة قبائل الرأس للقطع المشعوب بعضها الى بعض وأن منـه قبائل العرب وهم بنو أب واحد • وعلّق صاحب التاج قائلا : ظاهره أنه مجاز وصرح بعضهم بخلافه فادعى الاشتراك •

وحين ينتهى المعجمى من مشكلة المعنى تظل أمامه مشكلات أخرى أقل أهمية مثل اختيار النطق الصحيح والنص عليه (ويتم ذلك فى اللغة العربية بوسيلة من ثلاث : إما ضبط الكلمة بالشكل ، وإما النص على ضبطها بالكلمات ، وإما ذكر وزنها أو مثالها) ومثل تبيين رسم الكلمة وطريقة هجائها وبخاصة اذا كان يختلف نطقها عن رسمها (ويتعين ذلك بالنسبة للغة العربية فى أربعة أنواع من الكلمات : ما يزاد فيه حرف مثل مائة وأولو ، وما ينقص فيه حرف مثل هذا وذلك والسموات والرحمن ، وما ينتهى بألف مقصورة مثل الضحى والربا ، ومـا يشتمل على همزة متوسطة أو متطرفة) •

أما ذكر المعلومات الصرفية أو الاشتقاقية فيتوقف على حجم المعجم والغرض منه • فإذا كان المعجم موجها للمستعمل العادى فإنه يكفى فيه الاشـارات السريعة الى المعلومات الوظيفية أو العمليـة ، والتغييرات التصرفية التى تلحق الكلمة عند الإسناد • أما التتبع التاريخى لاشتقاق الكلمة أو ذكر أصله مما يدخل تحت فرع « الاتيمولوجيا » فليس موضع اهتمام المعاجم الصغيرة أو المتوسطة •

ويظل بعد ذلك أن يبين المعجمى درجة اللفظ فى الاستعمال ويحدد مستواه فى سلم التنوعات اللهجية كأن يبين ما اذا كان اللفظ قديما أو حديثا ؟ دارجا أو فصيحا ؟ من لغة الشعر أو النثر ؟ عاما أو مقيدا ؟ مهجورا أو مماتا ، نادرا أو شائعا ؟ رسميا أو عاميا ؟ محترما أو مبتذلا ؟ من لغة الكبار أو الصغار ؟ وغير ذلك •

(د) وأخيرا لا يبقى على المعجمى إلا أن يرتب مداخله بطريقة من طرق الترتيب الهجائى أو الموضوعى التى سنعرض لها فيما بعد •

أول من استخدم لفظ معجم :

لم يكن اللغويون أول من استعمل هذا اللفظ فى معناه الاصطلاحى ، وإنما سبقهم الى ذلك رجال الحديث النبوى [١] فقد أطلقوا كلمة معجم على الكتاب المرتب هجائياً الذى يجمع أسماء الصحابة ورواة الحديث . ويقال إن البخارى كان أول من أطلق لفظة معجم وصفاً لأحد كتبه المرتبة على حروف المعجم (ولد البخارى سنة ١٩٤ هـ وتوفى ٢٥٦ هـ) ووضع أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى (٢١٠ — ٣٠٧ هـ) « معجم الصحابة » ، ووضع البغوى (توفى ٣١٧ هـ) « معجم الحديث » .. وهكذا .

ويلاحظ أن اللغويين القدماء لم يستعملوا لفظ « معجم » ، ولم يطلقوه على مجموعاتهم اللغوية ، وإنما كانوا يختارون لكل منها اسما خاصاً به . فهذا « العين » ، وذاك « الجمهرة » ، وآخر الصحاح » ... وهكذا . أما إطلاقنا للفظ « المعجم » على هذه الكتب فإطلاق متأخر .

معجم وقاموس :

من استعمالات العصر الحديث اطلاق اسم « القاموس » على أى معجم سواء كان باللغة العربية أو بأى لغة أجنبية : أو مزدوج اللغة . ولفظ « القاموس » فى اللغة لا يعنى هذا ولا شيئاً قريباً من هـذا . فالقاموس هو قعر البحر ، أو وسطه ، أو معظمه . وقال أبو عبيد : القاموس أبعد موضع غوراً فى البحر [٢] ومرجع هذا المعنى الذى ألصق بلفظ « قامـوس » أن عالمـاً من علمـاء القرن الثامن ، واسمـه « الفيروزابادى » ألف معجماً سماه « القاموس المحيط » وهذا وصف للمعجم بأنه بحر واسع أو عميق . كما نسمى بعض كتبنا : الشامل ، أو الكامل : أو الوافى ، .. أو نحو ذلك .

---

(١) انظر عدنان الخطيب : المعجم العربى ، ص ٣٠ — ٣٤ .
(٢) انظر : اللسان : قمس .

وقد حقق معجم الفيروزابادى لنفسه شهرة وشيوعاً ، وصار مرجعاً لكل باحث • وبمرور الوقت ومع كثرة تردد اسم هذا المعجم على ألسنة الباحثين ظن بعضهم أنه مرادف لكلمة معجم ، فاستعمله بهذا المعنى • وشاع هذا الاستعمال ، وصار يطلق لفظ القاموس على أى معجم • وظل هذا اللفظ محل خلاف بين العلماء ، فمن مهاجم له ، ومن مدافع عنه حتى أقر مجمع اللغة العربية هـذا الاستخدام وذكره ضمن معانى كلمـة « قاموس » فى معجمه المسمى بالمعجم الوسيط • واعتبر إطلاق لفظ « القاموس »على أى معجم من قبيل المجاز ، أو التوسع فى الاستخدام [١]•

---

(١) انظر عدنان الخطيب : المعجم العربى ، ص ٤٨ — ٥٠ ، المعجم الوسيط (قمس) •

٢ — الترتيب المعجمى عند العرب

لا تعرف أمة من الأمم فى تاريخها القديم أو الحديث قد تفننت فى أشكال معاجمها ، وفى طرق تبويبها وترتيبها كما فعل العرب • وقد تعددت طرق وضع المعجم العربى حتى كادت تستنفد كل الاحتمالات الممكنة • وقد كان العرب منطقيين حينما لاحظوا جانبى الكلمة ، وهما اللفظ والمعنى ، فرتبوا معاجمهم — إجمالا — إما على اللفظ ، وإما على المعنى ، وبهذا وجد قسمان رئيسيان هما :

(أ) معاجم الألفاظ •

(ب) معاجم المعانى •

وقد كان مجال تنافسهم واضحاً بالنسبة للقسم الأول حيث وجدت فى داخله طرق متعددة بخلاف القسم الثانى حيث لم يوجـد فيه إلا طريقة واحـدة • وما أظنهم كانوا سيكتفون بهذه الطريقة الواحـدة لو أمكن — عقلا — الاهتداء الى طريقة أخرى •

وبالنسبة لمعاجم الألفاظ كان هناك عـدة أشكال لترتيب الأحرف الهجائية هى :

(أ) الترتيب الصوتى الذى يراعى التشابه الصوتى للأحرف وتدرج المخـارج •

(ب) الترتيب الألفبائى الذى يراعى التشابه الكتابى للأحرف فيضع الثلاثيات متجاورة ثم الثنائيات وينتهى بالأحرف المفردة •

(جـ) الترتيب الأبجدى وهو أقدم ترتيب عرفه العرب ، وهو ترتيب فينيقى •

ولم يستخدم العرب فى معاجمهم الترتيب الأبجدى ، وإنما استعملوا الترتيب الصوتى والترتيب الألفبائى •

وقبل أن نتنـــاول أنواع المعاجم العربية بصـــورة مفصلة نلخص مدارسها فى الشكل التالى :

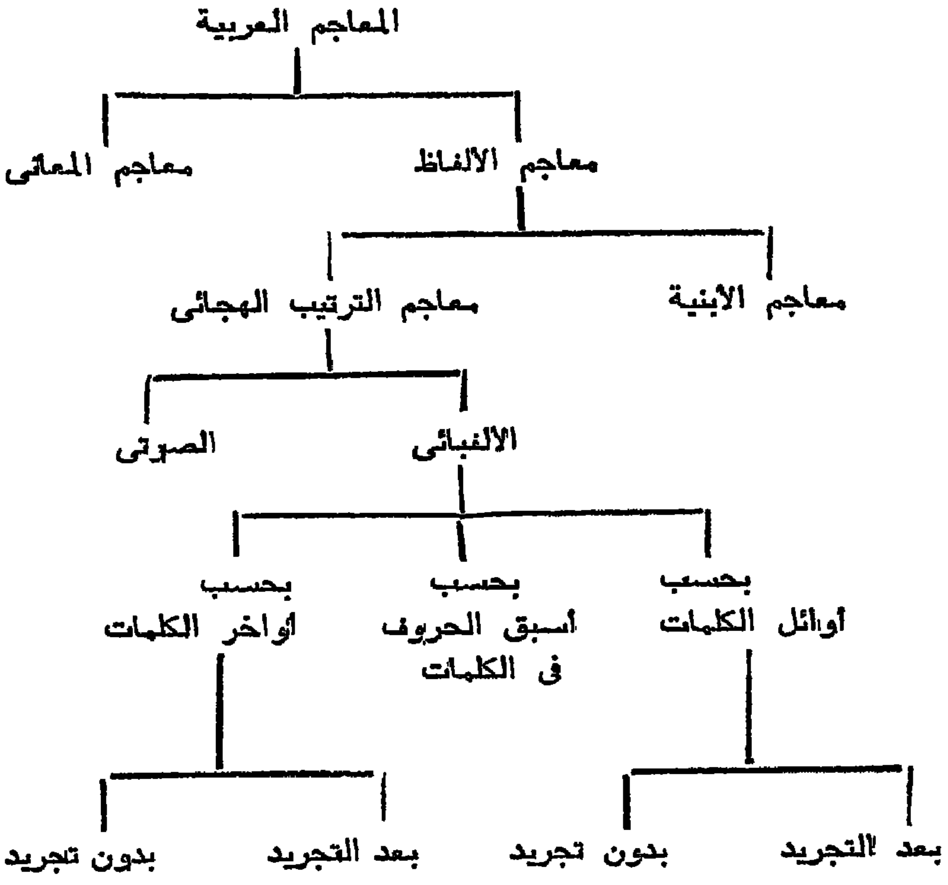
المعاجم العربية
معاجم الألفاظ
معاجم المعانى
معاجم الأبنية
معاجم الترتيب الهجائى
الألفبائى
الصوتى
بحسب أوائل الكلمات
بحسب أسبق الحروف فى الكلمات
بحسب أواخر الكلمات
بعد التجريد
بدون تجريد
بعد التجريد
بدون تجريد

القسم الأول

(معاجم الألفاظ)

سنتناول معاجم هذا النوع على الترتيب التالى :

(أ) مدرسة الترتيب الصوتى (أو المخرجى) •

(ب) مدرسة الترتيب الألفبائى •

وقد أخذت الأخيرة صورا خمسة هى :

١ — وضع الكلمة تحت أسبق حروفها الأصلية فى الترتيب الألفبائى •

٢ — وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية •

٣ — وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد •

٤ — وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد •

٥ — وضع الكلمة تحت حرفها الأصلى الأخير (الباب والفصل) •

(ج) مدرسة الترتيب بحسب الأبنية •

وإليكم تفصيل ذلك :

أ — مدرسة الترتيب المخرجى

معجم العين للخليل :

رائد هذه المدرسة هو الخليل بن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) الذى امتاز بعقلية رياضية ، وبراعة فى الموسيقى والنغم • وخبرة واسعة بأمور اللغة ومشكلاتها •

وقد صب الخليل كل خبراته هـذه فى معجمه الذى سماه « العين » ، والذى يعد أول معجم من أى نوع عرفته اللغة العربية •

وأهم ما يميز هذا المعجم ــ عدا نظامه ــ أن مؤلفه لم يجمع مفرداته عن طريق استقراء ألفاظ اللغة ، وتتبعها فى مؤلفات السابقين ، وجمعها من شفاه الرواة ، وإنما جمعها بطريقة منطقية رياضية ، حيث لاحظ أن الكلمة العربية قد تكون ثنائية وقد تكون ثلاثية وقد تكون رباعية وقد تكون خماسية • وفى كل حالة اذا أمكن تبديل حروف الكلمة الى جميع احتمالاتها (بالانتقال من حرف هجائى الى الذى يليه) وأمكن تقليب أماكن هذه الحروف الى جميع أوجهها الممكنة يكون الحاصل معجما يضم جميع كلمات اللغة من الناحية النظرية • ولكن لا توجد لغة تستخدم جميع إمكانياتها النظرية ، ولهذا كان لابد للخليل بعد الإحصاء النظرى أن يميز بين المستعمل من هذه الصور والمهمل [١] •وقد فعل ذلك ، واستفاد فى تمييز المستعمل من المهمل بثقافته اللغوية الخصبة ، وبخبرته الصوتية الباهرة ، ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها وغير المسموح بها فى اللغة العربية • وبذا حكم القوانين الصوتية الى جانب تحكيمه للمادة اللغوية المسجلة •

واذا تصورنا كيفية حصر الخليل للمـــادة اللغوية فى أبواب الثنائى والثلاثى الصحيح ، فإننا نفترض أنه قام بصنيع يشبه الجداول الآتية [٢] لجمع مواد اللغة (التوافيق) ، ثم قام بتقليب أصوات كل مادة ليحصل على الصور العقلية الممكنة (التباديل) :

---

(١) يكاد يتطابق مفهوم « المستعمل » عند الخليل مع مفهوم « المورفيم » عند المحدثين (المورفيم : أصغر وحدة ذات معنى) أما مفهوم المهمل فيشمل ما يسمى بالمصطلح الحديث « مورف » ويشمل غيره . وذلك لأن المهمل اذا كانت قوانين اللغة الصوتية تسمح به ولكن حدث بمحض الصدفة أن اهمل يسمى « مورفا » . أما اذا كانت قوانين اللغة الصوتية لا تسمح به ولا يتصور أن يستخدم فى وقت ما فلا يسمى « مورفا » ولكنه هو و « المورف » داخلان فى مفهوم المهمل عند الخليل .

(٢) اهملت العين مع الحاء والهاء والخاء والغين من الثنائى وبدأت بالعين والقاف . واهملت العين والحاء مع مايثلثهما ، وبدأت أبواب الثلاثى الصحيح بالعين والهاء والقاف .

كتاب العين من الثنائى المضعف

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م

الحرف الأول	الحرف الثانى	التقلبات المستعملة	عددها	ملاحظات
(ع)	ح	مهمل	—	١ — توافيق العين من
	هـ	مهمل	—	الثنائى = ٢٤
	خ	مهمل	—	٢ — المستعمل من صور
	غ	مهمل	—	التوافق = ٢٠
	(ق)	عق — قع	٢	(تتبع الصور المستعملة
	(ك)	عك — كع	٢	عن طريق تجميع العين
	(ج)	عج — جع	٢	كأول مع الأحرف التى
	(ش)	عش — شع	٢	بين قوسين فى العمود
	(ض)	عض — ضع	٢	الثانى)
	(ص)	عص — صع	٢	٣ — صور التباديل
	(س)	عس — سع	٢	العقلية = ٢٤
	(ز)	عز — زع	٢	٤ — كل تجمع من
	(ط)	عط — طع	٢	الثنائى ينتج صورة عن
	(د)	عد — دع	٢	طريق التوافيق وصورة
	(ت)	عت — تع	٢	أخرى عن طريق
	(ظ)	عظ	١	التباديل فيكون المجموع
	(ذ)	ذع	١	صورتين
	(ث)	عث — ثع	٢	
	(ر)	عر — رع	٢	
	(ل)	عل — لع	٢	
	(ن)	عن — نع	٢	
	(ف)	عف — فع	٢	
	(ب)	عب — بع	٢	
	(م)	عم — مع	٢	

المستعمل ٢٠ مجموع المستعمل = ٣٨

المهمل ٤ مجموع المهمل = ١٠

كتاب العين من الثلاثي الصحيح

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م

العين والهاء

الصور العقلية ٢٣ × ٦ (١) = ١٣٨

١	٢	٣	التقلبات المستعملة	عددها
(غ)	(ح ا)			
	هـ	هـ		
	خ	خ		
	غ	غ		
	ق	ق		
	ك	ك		
	ج	ج		
	ش	ش		
	ض	ض		
	ص	ص		
	س	س		
	ز	ز		
	ط	ط		
	د	د		
	ت	ت		
	ظ	ظ		
	ذ	ذ		
	ث	ث		
	ر	ر		
	ل	ل		
	ن	ن		
	ف	ف		
	ب	ب		
	م	م		

المستعمل صفر مجموع المستعمل = صفر
المهمل ٢٣ مجموع المهمل = ١٣٨

العين والهاء

الصور العقلية ٢٢ × ٦ = ١٣٢

١	٢	٣	التقلبات المستعملة	عددها
	ح			
(ع)	(هـ)			
	ح	ح		
	غ	غ		
	ق	(ق)	عهق — هقع	٢
	ك	(ك)	هكع	١
	ج	(ج)	عهج — هجع	٢
	ش	ش		
	ض	(ض)	عضه	١
	ص	ص		
	س	س		
	ز	(ر)	هزع — عزه	٢
	ط	(ط)	هطع	١
	د	(د)	عهد — عده — دهع	٣
	ت	(ت)	عته	١
	ظ	ظ		
	ذ	ذ		
	ث	ث		
	ر	(ر)	عهر — هرع — هعر	٣
	ل	(ل)	عله — عهل — لهع — هلع	٤
	ن	(ن)	عهن — هنع — نهع	٣
	ف	ف		
	ب	(ب)	هبع — عهب	٢
	م	(م)	عهم — عمه — همع	٣

المستعمل ١٣ مجموع المستعمل = ٢٨
المهمل ٩ مجموع المهمل = ١٠٤ (٢)

ملاحظة : يجب تتبع الرموز التى تقع بين الأقواس للوصول الى التقلبات المستعملة .

(١) الرقم الأول يشير الى امكانيات التوافيق في العمود الثالث والثاني الى صور التباديل .

(٢) مجموع المستعمل في تهذيب اللغة ٣٦ والمهمل ٩٦ .

كتاب العين من الثلاثي الصحيح

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م .

العين والخاء

الصور العقلية ٢١ x ٦ = ١٢٦

١	٢	٣	التقلبات المستعملة	عددها
	ح			
	هـ			
(ع)	(خ)			
	غ	ع		
	ق	ق		
	ك	ك		
	ج	ج		
	ش	(ش)	حشع	١
	ض	(ض)	خضع	١١
	ص	ص		
	س	س		
	ز	(ز)	خزع	١
	ط	ط		
	د	(د)	خدع	١
	ت	(ت)	ختع	١
	ظ	ظ		
	ذ	(ذ)	حذع	١
	ث	ث		
	ر	(ر)	خرع	١
	ل	(ل)	خلع — حمل	٢
	ن	(ن)	خنع — نخع	٢
	ف	(ف)	خفع	١
	ب	(ب)	بخع — حبع	٢
	م	(م)	خمع — خمم	١

المستعمل ١٢ مجموع المستعمل = ١٦

المهمل ٩ مجموع المهمل = ١١٠

العين والغين

الصور العقلية ٢٠ x ٦ = ١٢٠

١	٢	٣	التقلبات المستعملة	عددها
	ح			
	هـ			
	خ			
(ع)	(غ)			
	ق	ق		
	ك	ك		
	ج	ج		
	ش	ش		
	ض	ض		
	ص	ص		
	س	س		
	ز	ز		
	ط	ط		
	د	د		
	ت	ت		
	ظ	ظ		
	ذ	ذ		
	ث	ث		
	ر	ر		
	ل	ل		
	ن	ن		
	ف	ف		
	ب	ب		
	م	م		

المستعمل صفر مجموع المستعمل = صفر

المهمل ٢٠ مجموع المهمل = ١٢٠

وقد أثيرت شكوك حول كتاب العين شملت المؤلف نفسه أهو الخليل أم غيره . كما شملت احتمال وجود تأثير أجنبى على معجم العين . وسنترك قضية التأثير الأجنبى لمكانها فى الباب الثالث من هذا البحث . ونتحدث الآن عن مؤلف العين أهو الخليل أم غيره . ولن نتناول القضية بالتفصيل ، فقد سبقنا إليها الدكتور عبد الله درويش الذى خصص بابا بعنوان « الخلاف حول كتاب العين » [1] فى كتابه المعاجم العربية .

ولكننا سنكتفى بالعرض السريع المركز .

تتلخص الآراء فى مؤلف العين فيما يأتى :

١ — أن المؤلف هو الخليل .

٢ — واضع الفكرة هو الخليل والمنفذ هو الليث .

٣ — المؤلف هو الليث .

٤ — واضع الفكرة ، ومؤلف قسم منه هو الخليل . أما الذى أكمله فهو الليث .

أما من نفوا نسبة « العين » للخليل كلياً أو جزئياً — وهذا يجمع الآراء الثلاثة الأخيرة — فقد بنوا رأيهم على ما يأتى :

١ — اختفاء معجم العين منذ عصر المؤلف حتى منتصف القرن الثالث الهجرى . وحين ظهر على أيدى أحد الوراقين الخراسانيين أنكره أبو حاتم السجستانى (٢٥٥ هـ) .

٢ — وجود فجوة بين معجم « العين » وثانى معجم يظهر فى اللغة العربية وهو معجم الجمهرة لابن دريد (٣٢١ هـ) . مما يشكك فى تأليف العين فى القرن الثانى الهجرى . فلابد أن يكون مؤلفه لغوياً متأخراً .

---

(١) صفحة ٤٥ وما بعدها .

٣ — لم يذكر أحد من تلامذة الخليل أو معاصريه هذا المعجم ولم يحكه عنه ، مما يدل على أنه ليس من مصنفات الخليل •

٤ — تشكك كثير من العلماء فى نسبته للخليل أو إنكارهم هــذه النسبة • ومن هؤلاء الأزهرى (٣٧٠ هـ) الذى قال فى كتابه التهذيب : « كان الليث رجلا صالحاً عمل كتاب العين ونسبه الى الخليل لينفق كتابه باسمه ويرغب فيه » • ومن هؤلاء أبو الطيب اللغوى (ت بعد سنة ٣٠٥) الذى يرى أن ترتيب الأبواب للخليل والحشو لغيره •

٥ — استخدام العين لبعض المصطلحات الكوفية مــع أن الخليل أستاذ مدرســة البصرة • ومن ذلك إدخاله الرباعى المضعف فى باب الثلاثى المضعف •

٦ — ما يوجد من خلاف فى الترتيب الصوتى ومخارج الحروف بين ما جاء فى العين وما جاء فى كتاب سيبويه • فلو كان المؤلف هو الخليل لتطابق ما فى الكتابين لأن سيبويه حامل علم الخليل •

٧ — كثرة الأخطاء والمـآخذ فى العين •

٨ — النقل عن علماء متأخرين أو معاصرين للخليل ، والاستشهاد بالمرذول من شعر المحدثين •

٩ — نسخ العين التى عثر عليها كلها حديثة •

١٠ — لا إسناد لكتاب العين •

ويبــدو أن منكرى نســبة العين للخليل — لكى يجعلوا إنكارهم مقنعاً — قد نسجوا من خيالهم قصصاً شائقة وإن لم تكن فى جملتها مقنعة • فمن ذلك ما يحكيه ابن المعتز عن ذهاب الخليل الى خراسان ونزوله عند الليث • وقد لاقى الخليل حفاوة وترحيباً وإكراماً بالغا من الليث فقام بإهدائه معجمه « العين » • وأعجب الليث بالمعجم وانكب

عليه دراسة حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب • وطاب لليث يوما أن يشترى جارية حسناء ، مما أحفظ قلب زوجته عليه ، وهداها تفكيرها الى الانتقام منه فى أغلى شىء لديه فأحرقت نسختة من العين • ولم يتوان الليث عن التفكير فى طريقة يحيى بها الكتاب من جديد ، فأخذ يكتب مرة أخرى ما كان يحفظه من الكتاب حتى أتم نصفه تقريباً • ثم جمع بعضاً من اللغويين المعاصرين فعاونوه على إتمام الكتاب •

وقد أفاض الأستاذ الدكتور عبد الله درويش فى مناقشة هذه الأدلة وأبطلها جميعها بما ملخصه ، مع بعض إضافات لى أو لغيرى :

١ — يبدو أن عزلة الخليل ، وانصرافه عن أن يدون كتبه بنفسه قد ساعد هو وغيره على أن يختفى كتاب العين بعضاً من الوقت فلم يظهر هذا الكتاب إلا بأخرة على يد وراق من خراسان ، وربما كان مصير « العين » مثل مصير « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى ، إذ يرون أن أبا عمرو بعد أن أتم تأليفه ضن به على الناس ، ولهذا لم تكثر نسخه ، ولم يشتهر أمره بين المتأخرين من العلماء [(١)] •

٢ — أن هناك بعض معاجم ظهرت بين « العين » و « الجمهرة » ، وأشهرها « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى (٢٠٦ هـ) •

٣ — ليس من الغريب أن يروى العين عن الخليل الليث وحده ، فقد حدث ما هو أغرب من هذا بالنسبة لصحاح الجوهرى ، ومع ذلك لم يشك أحد فى نسبته ، حيث لم يروه — كما يقول القفطى — أحد من أهل خرسان •

٤ — أما إنكار الأزهرى فلا اعتبار له ، لأنه كان دائب التجريح لغيره من اللغويين ، والانتقاص من قدر الكتب التى ألفت قبله حتى يرفع من قيمة معجمه •

---

(١) دلالة الألفاظ ، ص ٢٢٣ ، المعاجم للدكتور عبد السميع ، ص ٣٨ •

٥ — أما ما يوجد من خلاف فى الترتيب الصوتى [١] بين الخليل وسيبويه أو ما يوجد من وفاق بين مصطلح الخليل ومصطلح الكوفيين ، فلا شىء يمكن أن يؤخذ منه . وقد سبق أن عرضنا فى فصل « النحو والصرف » تحت عنوان : « هل وجدت مدارس نحوية عند العرب ؟ » أمثلة كثيرة من هذا النوع فارجع إليها . بالإضافة الى أن تصنيف الكلمات التى تكرر بعض حروفها محل خلاف كبير بين اللغويين ، إذ لم يتفقوا فيه على رأى [٢] .

٦ — أما الأخطاء أو المآخذ الموجودة فى العين فلا دلالة لها كذلك حتى مع التسليم بها . وهل هناكَ من يزعم أن الخليل منزه عن الخطأ أو التصحيف أو التحريف ؟ ومَنْ مِنَ اللغويين قد سلم من أمثال هذه الهفوات ؟ ويكفى أن يراجع القارىء كتاب « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الأصفهانى (ت حوالى ٤٦٠ هـ) ليرى مصداق ذلك . وأكتفى بأن أشير الى الباب الأول من كتابه وعنوانه : « فى تصحيفات العلماء فى شعر القدماء وهم (أى العلماء) ستة وعشرون » ، ذكر منهم : أبو عبيدة ، الأصمعى ، أبو زيد ، أبو عمرو بن العلاء ، عيسى بن عمر ، الخليل بن أحمد ، سيبويه ، أبو الخطاب الأخفش .. وبالإضافة الى هذا فقد سبق أن ذكرنا أن الخليل قد وجه كل اهتمامه الى الطريقة الرياضية التى جمع بها مادته اللغوية ، وأنه لم يفعل كما فعل غيره من الرجوع الى الرواة والأعراب ليسمع منهم ويسجل لهم . وهذه طريقة ربما كانت أكثر عرضة للخطأ من غيرها ، وإن كانت أدق من الناحية الإحصائية .

---

(١) ورد فى المزهر للسيوطى ما يفسر هذا الاختلاف حيث ذكر ابن كيسان أنه سمع من يذكر أن الخليل قال : « لم ابدأ بالهمزة لانها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالالف لانها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لانها مهموسة خفية لا صوت لها . فنزلت الى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين انصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن فى التأليف ... » (المزهر ١/٩٠) .

(٢) انظر ديوان الأدب ١/٢٥ مقدمة المحقق .

٧ — أما ما عثر عليه من نقول ، سواء من المعاصرين أو المتأخرين ، فيمكن تفسيره بسهولة على النحو التالى :

(أ) ما ذكره أهلورات — حين عثر على قطعتين مخطوطتين لا عنوان عليهما — ووجد فيهما نقولا عن ثعلب (ت ٢٩١) والدينورى (ت ٢٨١) وكراع (ت ٣٠٧) والزجاج (ت ٣١٠) وغيرهم — لا قيمة له مطلقا لأن القطعتين ليستا من كتاب العين كما زعم وإنما من كتاب المحكم لابن سيده كما حقق الدكتور عبد الله درويش •

(ب) أما نقوله عن المعاصرين فلا شىء فيها ، وقد كانت هذه طريقة القدماء ، يجلس أحدهم الى من يجد عنده علما دون نظر الى سنه أو بلده ولا نظن أن نقل المؤلف عمن هو أصغر منه سناً — مادام فى سن تسمح بالأخذ عنه — يعد أمراً غريباً ، أو شيئاً مثيراً للشبهة •

(جـ) وأمـــا نقوله عن المتأخرين فتفسيرنا لها أنها كانت أول الأمر بمثابة حواش أو تعليقات كتبها أحد التلامذة على نسخته من العين • وبمرور الوقت أدخلت هذه الزيادات فى صلب الكتاب بفعل النساخ • وقد حدث هذا لكثير من الكتب ، فليس « العين » بدعا من بينها •

٨ — وأما الزعم بأن كتاب العين ظل بلا إسناد ولا رواية فليس من الواقع فى شىء فعندنا ثلاث سلاسل لإسناد الكتاب وهى :

(أ) السلسلة الموجودة فى النسخة التى طبعت وهى : قال أبو معاذ عبد الله بن عائذ ، حدثنى الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما فى هذا الكتاب •••

(ب) سلسلة ذكرها ابن فارس فى أول المقاييس ، وهى عن على بن إبراهيم القطان عن أبى العباس أحمد بن إبراهيم المعدانى ••• عن الليث عن الخليل •

(جـ) سلسلة ذكرها السيوطى فى المزهر وهى عن أبى على الغسانى عن أبى عمر بن عبد البر عن عبد الوارث بن سفيان عن القاضى منذر بن سعيد عن أبى العباس أحمد بن محمد بن ولاد النحوى عن أبيه ، عن أبى الحسن على بن مهدى عن أبى معاذ عبد الجبار بن يزيد عن الليث عن الخليل • وقراءة كتاب العين على ابن ولاد ثابتة فى عدة مراجع • بل إن الروايات نفسها تتحدث عن وجود نسخة أخرى من العين عند أبى جعفر النحاس (وهو معاصر لابن ولاد) كان يقرئها لمن يحب من تلاميذه • وتمضى الروايات قائلة : إن المنذر بن سعيد حينما ذهب الى مصر قصد أبا جعفر النحاس أولا ، ولكن نشـأ بينهما نوع من الجفوة نتيجـة تصحيح منذر بن سعيد خطأ وقع فيه النحاس (١) ، ولذلك أبى النحاس أن يقرىء منذر بن سعيد معجم العين ، فانتقل ابن سعيد من مجلس النحاس الى مجلس ابن ولاد وقرأ عليه ونسخ من نسخته كتاب العين •

وننتهى من هذا الى أن معجم « العين » من عمل الخليل — جزئيا على الأقل — وإن كان الأرجح أنه كله من عمله • ويبدو أن الدكتور إبراهيم أنيس — برغم تشككه فى نسبة العين — يميل مع الرأى الذى ينسبه الى الخليل وهو يدعم رأيه بقوله : « وفى رأينا أن مثل هذا الترتيب الصوتى الموسيقى لا يمكن أن يقوم به إلا الخليل الذى عرف أنه موسيقى وعنى عناية خاصة بالأصوات • والدليل اختراعه علم العروض وتأليفه كتبا فى الموسيقى • فمثله يمكن أن يعنى بهذا الترتيب المخرجى » •

وقد طبع الجزء الأول من العين عام ١٩٦٧ ، وقام بتحقيقه الدكتور عبد الله درويش على ثلاث نسخ مخطوطة • ولكنه توقف عن تحقيقه فتقدم لهذه المهمة الدكتوران إبراهيم السامرائى ، ومهدى المخزومى • وقد

---

(١) راجع معجم الادباء ١٤/١٨٣ ، ٤/٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقفطى ١/١٠٣ ، والزبيدى ص ٢٤ •

نشرا الجزء الأول عام ١٩٨٠ ثم تتابع نشر بقية الأجزاء حتى اكتمل المعجم فى ثمانية أجزاء ظهر آخرها عام ١٩٨٥ •

أما ترتيب الخليل للعين فقد أخذ الصورة الآتية :

١ — رتب كلمات معجمه على الحروف ترتيبا مخرجيا • وقد وجد أعمق الحروف هى حروف الحلق فبدأ بها • ولم يكتف بذلك ، بل رتب حروف الحلق فيما بينهما فوجدها ذات مخارج ثلاثة هى : الهمزة والهاء — ثم العين والحاء — ثم الغين والخاء — وقد كان من المتوقع إذن أن يبدأ الخليل معجمه بحرف الهمزة وأن يسمى كتابه بـ « الهمزة » ، ولكنه عدل عن ذلك وبدأ بحرف العين وسمى كتابه « العين » ، والسر فى ذلك أن الخليل قد وجد — بحسه الصوتى — أن الهمزة صوت معرض للتغييرات مثل التسهيل أو الحذف ، فلم يشأ أن يبدأ بها ، ووجد أن الهاء صوت مهموس خفى فلم يشأ أيضاً أن يبدأ بها • وانتقل الى الحيز الثانى من حروف الحلق فوجد فيه العين والحاء فبدأ بالعين لأنها « أنصع » أى أوضح لأنها مجهورة •

٢ — كان يلتزم تجريد الكلمة من زوائدها ، ثم يضعها فى مكانها بعد ذلك • ومعنى ذلك أنه بنى معجمه على « الجذور » أو « الأصول » وأهمل حروف الزيادة • وقد ظل هذا دأب معظم معاجمنا حتى الآن •

٣ — رتب الأصوات على الوجه الآتى :

ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ى [1] •

---

(١) نظمها بعضهم فى قوله :

العين والحاء ثم الهاء والخاء — والغين والقاف ثم الكاف أكفاء

والجيم والشين ثم الضاد يتبعها — صاد وسين وزاى بعدها طاء

٤ — خصص لكل حرف كتابا أسماه باسمه • فالمعجم عبارة عن كتب بعدد حروف الهجاء هى كتاب العين — كتاب الحاء — كتاب الهاء ••• وهكذا •

٥ — وفى كل كتاب كان يضع الكلمات التى تشتمل على الحرف الذى يحمل الكتاب اسمه أيا كان موضع هذا الحرف فى الأول أو الوسط أو الآخر •

٦ — حين يتناول كلمة ما كان يقلبها على جميع أوجهها الممكنة • وكان فى كثير من الأحيان يلتزم ببيان الأوجــه المستعملة ، والأوجــه المهملة • فكلمة مثل « قد » تقرأ بوجهين إما مع البدء بالقاف أو مع البدء بالدال • وكلمة مثل « عند » اذا قلبت على أوجهها تنتج ست صور هى ع ن د — ع د ن — ن ع د — ن د ع — د ع ن — د ن ع • ولتوضيحها بالنسبة للثلاثى رسم ابن دريد مثلثاً وضع عند كل زاوية منه حرفا من الحروف الثلاثة للجذر وتحرك من كل زاوية فى الاتجاهين ، فحصل على التقليبات الستة :

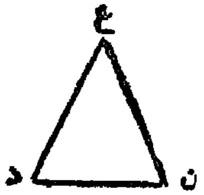

ولتوضيحها بالنسبة للرباعى رسم الدكتور محمد ســالم الجرح جدولا ذا قوائم أربعة • فإذا وضعنا فى القائمة الأولى أحد الأصول جاز لنا أن نضع فى الثانية كلا من الثلاثة الباقية • ويتبادل مع كل واحد من حروف القائمة الثانية الحرفان الباقيان فى الثالثة والرابعة • أى أننا نحصل على ست صور فى القائمة الرابعة مع حرف بعينه فى القائمــة

=

والدال والتاء ثم الظاء متصــل ... بالظاء ذال وثاء بعدهــا راء
واللام والنون ثم الفاء والباء ... والميم والواو والمهمــوز والياء

الأولى • فإذا ضربنا ذلك فى الاحتمالات الأربعة بالنسبة للحرف الأول حصلنا على ٢٤ صورة • فإذا كان الأصل الرباعى مثلا هو دحرج كان الجدول كما يأتى :

١	٢	٣	٤	الصور
د	ح	ر	ج	دحرج ١
		ج	ر	دحجر ٢
	ر	ج	ح	درجح ٣
		ح	ج	درحج ٤
	ج	ر	ح	دجرح ٥
		ح	ر	دجحر ٦

وتتكرر نفس العملية مع كل من الحاء والراء والجيم بوضعها فى القائمة الأولى مكان الدال •

فإذا كان الجذر خماسيا ضرب هذا الرقم فى خمسة فتبلغ صور الخماسى العقلية ١٢٠ تقليبا •

وقد طبق الخليل التقليبات مع جميع كلمات الثنائى والثلاثى وكان ينص على المستعمل من هذه الصور والمهمل • ولكن مع الرباعى والخماسى وجد أن العملية طويلة والاحتمالات كثيرة والصور المستعملة فعلا — بالنسبة للمهملة — قليلة جدا ، ولذا اكتفى بالتقليبات العملية فقط لا الممكنة عقلا •

٧ — نتيجة لنظام التقليبات فإن كل كتاب لا يشتمل على كلمات فيها حروف سابقة : فكتاب « الحاء » لا يشتمل على أى كلمة فيها « عين » ، لأن جميع الكلمات التى تشتمل على حرف العين قد سبقت فى كتاب العين ، وكتاب الهاء لا يشتمل على أى كلمات فيها عين أو حاء لأنهما سبقت •• وهكذا • ومعنى هذا أن الكتب الأولى أكبر من الكتب المتأخرة • وكلما تأخرنا قلت كلمات الكتاب • ولهذا فإن كتاب العين يعد أكبر كتب المعجم وحين نصل الى كتاب الميم نجده لا يتجاوز بضع عشرة صفحة ،

لأنه لم يبق لهذا الحرف ليوفق معه إلا أحرف العلة الثلاثة . أما كتاب الحروف المعتلة وهو آخر الكتب فلم يتجاوز بضع صفحات .

٨ — خضع تبويب الكلمات لنظام الكمية . فمثلا فى باب العين نجد الكلمات مسجلة بحسب التقسيم الآتى :

الثنائى — الثلاثى الصحيح — الثلاثى المعتل — اللفيف — الرباعى — الخماسى . أما الثنائى فقد قصد به الخليل ما وجد فيه حرفان من الحروف الصحيحة ، ولو مع تكرار أحدهما فى أى موضع طبقا لنظرية العناصر ، فيشمل مثل قدْ وقدّ وقدقد . كما يشمل مثل ددن وقلق وجلل . ولذلك يقول ابن القطاع : الثنائى ما كان على حرفين من حروف السلامة ، ولا تبال أن تتكرر فاؤه أو عينه » [1] وواضح أن اصطلاح الخليل هذا ناتج عن نظام التقليبات الذى اتبعه . لأن مثل ددن وقلق وجلل ستتماثل فى صورة من صور تقليباتها وتشترك فى موضع التكرير فيها . أما سائر اللغويين ممن لم يتأثروا ، فيعتبرون مثل قدّ وجلل من مضعف الثلاثى ، ويعتبرون مثل قدقد من مضعف الرباعى ، ويعتبرون مثل قلق من السالم [2] .

وأما الثلاثى الصحيح فهو عنده — كما عند غيره — ما اجتمع فيه ثلاثة حروف صحيحة . وأما الثلاثى المعتل فما وجد فيه حرفان صحيحان وحرف علة واحد سواء جاء أولا (مثال) أو وسطا (أجوف) أو آخرا (ناقص) . وأما اللفيف فقد عنى به ما وجد فيه حرفا علة سواء كانا مفروقين مثل وعى ، أو مقرونين مثل كوى .

أما طريقة الكشف فى العين فتقتضى أولا تجريد الكلمة من زوائدها لتحديد الجذر ، ثم يبحث عن أعمق أصواتها لتحديد الكتاب . فإن كان من بينها « ع » أيا كان موضعها فإن مكان الكلمة كتاب العين وإن لم

(١) أبنية الأسماء والمصادر ، ص ١٢ .

(٢) شرح الشافية ٣٤/١ .

يكن بها « ع » ووجد بها « ح » فمكانها كتاب الحاء ... ولهذا لابد أن يعرف الباحث الترتيب المخرجي للحروف ، ويفتش عن أقصى حرف فى المخرج . فإذا حددنا الكتاب الذى سنبحث فيه عن الكلمة نظرنا الى ناحية الكم ، وحددنا نوع الكلمة أهى من الثنائى أم الثلاثى الصحيح أم الثلاثى المعتل .. وبذا نضيق دائرة البحث . وبعد ذلك نحدد مادة الكلمة عن طريق إعادة ترتيبها صوتيا . وأخيرا نقوم بالتقليبات الممكنة ، وسنجد جذر الكلمة المطلوبة ضمن هذه التقليبات .

تهذيب اللغة للأزهرى :

كان الأزهرى محظوظاً فى مقدمة معجمه فنشرت أكثر من مرة ، قبل أن تتعهد المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر بتحقيق المعجم بأكمله ونشره . ويرجع الاهتمام بالمقدمة الى أنها — كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون — « من أهم الوثائق فى تاريخ التأليف اللغوى وتاريخ المدارس اللغوية الأولى » (١) .

ويبدو أن الأزهرى — وقد امتد به العمر من ٢٨٢ الى ٣٧٠ هـ — قد ألف معجمه هذا بعد السبعين كما يفهم من عبارة له وردت فى المقدمة (٢) وأنه حشد له خبرات هذه الأعوام الطوال ، وأمده بكثير مما سجله وقيده وسمعه سواء من الأساتذة أو الأعراب أو القوم الذين وقع فى أسرهم ، وكانوا عربا عامتهم من هوازن .

وقد ذكر الأزهرى فى مقدمة معجمه أن من الروافد التى أمدت معجمه :

١ — تقييد نكت حفظها ووعاها من أفواه الأعراب الذين شاهدهم وأقام بين ظهرانيهم سنيات . إذ كان ما أثبته كثير من أئمة اللغة فى الكتب لا ينوب مناب المشاهدة ، ولا يقوم مقام الدربة والعادة .

---

(١) مقدمة المحقق ، ص ١٧ .

(٢) يقول : وكنت منذ تعاطيت هذا الفن فى حداثتى الى ان بلغت السبعين مولعا بالبحث فى المعانى والاستقصاء فيها وأخذها من مظانها ...

٢ — المادة التى جمعها حين وقع فى أسر القرامطة • وكان القوم الذين وقع فى سهمهم عربا عامتهم من هوازن ، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد • وقد كانوا قوما « لا يكاد يقع فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش » • وقد أقام بينهم — على حد تعبيره — دهرا طويلا واستفاد من مخاطباتهم ، ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ونوادر كثيرة أوقع أكثرها مواقعها فى الكتاب (١) •

ومن يراجع تهذيب اللغة بأجزائه الخمسة عشر يجد مئات الأمثلة لهذه المادة التى رواها الأزهرى عن طريق المشافهة والنقل المباشر • ولهذا فنحن لا نقر الدكتور عبد الله درويش على تشككه فى قيمة المادة المسجلة من هذا الطريق ، ووصفه لها بالندور (٢) • ومن أمثلة هذه المشافهة :

١ — وسمعت الأعراب من بنى عقيل يقولون : جارية فارهة وغلام فاره اذا كانا مليحى الوجه • (٢٧٩/٦) •

٢ — وخطأ بعض الناس قول القائل : فلان يستأهل أن يكرم بمعنى يستحق الكرامة • قال ولا يكون الاستئهال إلا من الإهالة ، وأجاز ذلك كثير من أهل الأدب • وأما أنا فلا أنكره ، ولا أخطىء من قاله لأنى سمعته • وقد سمعت أعرابيا فصيحا من بنى أسد يقول لرجل أولى كرامة : أنت تستأهل ما أوليت ، وذلك بحضرة جماعة من الأعراب فما أنكروا قوله (٤١٨/٦) •

٣ — سمعت صبيا من بنى عقيل يقول : وجهى زين ووجهك شين أراد أنه صبيح الوجه وأن الآخر قبيحه •• والتقدير : وجهى ذو زين ، ووجهك ذو شين (٢٥٥/١٣) •

---

(١) المصدر نفسه ٦ ، ٧ •
(٢) المعاجم العربية ، ص ٢٩ •

ولم يكن للأزهرى طريقة معينة فى تسجيل مشافهاته :

١ — فتارة يعتمد على الدليل السلبى (أى عدم سماعه عن العرب) فى نفى وجود اللفظ أو التعبير • ومن ذلك قوله :

(أ) ولم أسمعهم يقولون فى الغراب نعق ولكنهم يقولون نعب (٢٥٧/١) •

(ب) لم أسمع الوصع فى شىء من كلامهم (٨٤/٣) •

٢ — وتارة ينص على القبيلة أو الجماعة اللغوية التى سمع منها • وأكثر من سمع عنهم •

* بنو تميم (١٢٩/١ ، ٢٦٣/٣ ، ١٦٩/٥ ، ٢٢٨/٩ ، ٥٦٢/١٠)
* بنو عقيل (٣٢٧/٤ ، ٢٧٩/٦ ، ٢٥٥/١٣)
* بنو كلاب — الكلابيون (٢٣٨/٢ ، ٤٤٦/١٥ ، ٦٥٠)
* بنو كليب (٣٧٦/١ ، ١٤٤/٧)
* بنو نمير (١٥٨/١٣ ، ٦٥٠/١٥)
* بنو سعد (٢١٩/٢ ، ١٧٨/٧) •
* قيس (٣٢٦/٣ ، ٥٦٢/١٠) •
* بنو أسد (٩٤/١٠ ، ١١٠) •

ثم طيىء (٣٥٩/١٤) ، وبنو مضرس (١٢٤/١٥) ، وبنو فزارة (١٥٥/١١) ، وبنو سليم (٥٤٦/١٠) ، والهجريون (٣٤٤/١) ، والبحرانيون (٦٢/١) •

٣ — وهو فى معظم حالاته يسجل سماعه دون أن ينسبه ومن ذلك :

(أ) سمعت بعض العرب (٧٤/١ ، ١٠٦ ، ١٢٥/٢ ، ٢٨٤ ...)

(ب) سمعت العرب (١١٣/١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ٣٠٨ ، ٣٢٨ ...)

(جـ) سمعت غير واحد من العرب (٢١٢/١ ، ٢٦٧ ...)

(د) سمعت أعرابيا يقول (٢٤١/١ ، ٣٧٧ ...)

(هـ) هذا سماعى من العرب (٢٦٣/١ ...)

(و) سمعت امرأة من العرب (٥٨/٣ ...)

(ز) هكذا سمعت من العرب (٣٣١/٣ ...)

ومهما يكن من شىء فإن « تهذيب اللغة » يعد تابعا فى منهجه « للعين » تبعية كاملة ، بل بلغ من اتخاذه نموذجا له أن نقل مقدمة العين فى مقدمته نقلا يكاد يكون حرفيا ، بعد أن اعترف أن هذه المقدمة — بإجماع اللغويين — من عمل أبى عبد الرحمن الخليل بن أحمد [١] .

أما من ناحية المادة اللغوية فحجم التهذيب ضخم جداً بالنسبة لحجم العين . وقد أبدى الأزهرى كذلك اهتماماً كبيرا بأسماء البلدان والأماكن والمياه . واهتم بإيراد الشواهد من القرآن والحديث بالإضافة الى الشعر ، كما عنى بإيراد القراءات المختلفة فى مكانها المناسب [٢] .

البارع للقالى :

مؤلف هذا المعجم أبو على إسماعيل بن القاسم القالى المولود عام ٢٨٠ هجرية والمتوفى عام ٣٥٦ هجرية بالزهراء ضاحية من ضواحى قرطبة .

ويعد البارع أول معجم أندلسى ، وإن لم يكن له من الأندلسية إلا مكان التأليف .

وقد دخلت نسخة من كتاب « العين » الأندلس ، ولم تكن موثقة فأوعز الحاكم الأموى الى مجموعة من العلماء منهم « القالى » بمقابلة

---

(١) تهذيب اللغة ٤١/١ .
(٢) الجرح ، ص ٤٦ .

الكتاب ولم يكن القالى يطمئن قبل ذلك الى صحة نسبة العين للخليل ، ولكنه بعد المقابلة اقتنع بصحة نسبته ، ولم ينسبه لليث كما فعل غيره ، ولا تحفظ فقال « صاحب العين » كما فعل آخرون •

ويقول الأستاذ هاشم الطعان محقق البارع : « ولقد أتيح لى وأنا أحقق النص الذى بين يدى من (البارع) أن أقارن ما ورد فيه عن الخليل وهو أعظم الكتاب بنسختين مخطوطتين من العين فإذا بالكتابين متطابقين حذو القذة بالقذة •• وبهذا يكون البارع أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب العين » (ص ٦٦) •

وقد أدخل القالى بعض زيادات وأجرى بعض تعديلات فى كتاب العين « فقدم لكل مادة لغوية بما ورد عنها فى مروياته • وارتأى أن يخالف فى ترتيب الحروف بعض الشيء ، وأضاف بعض ما ظنه مهملا ، ونسب الشواهد غير المنسوبة الى قائليها — متى استطاع الى ذلك سبيلا — وأكمل الشواهد المبتورة فكان من ذلك كله البارع • فالبارع إذن ليس إلا كتاب العين (موصولا) » • (مقدمة المحقق ص ٦٥ ، ٦٦) •

والى جانب هذه التعديلات والزيادات نجد خلافين آخرين أحدهما يتعلق بترتيب الأصوات ، والآخر يتعلق بالأبواب • فترتيب الخليل قد سبق ذكره ، أما ترتيب القالى فهو : هـ ح خ غ ق ك ض ج ش ل ر ن ط ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و أ ى •

أما اختلاف الأبواب فيتمثل فى تسمية القالى اللفيف : الحواشى أو الأوشاب وفى إطلاقه على الثنائى اسم : الثنائى فى الخط والثلاثى فى الحقيقة • والخلاف كما يبدو خلاف لفظى لا حقيقى •

ولم يطبع « البارع » كله لأن المحقق لم يعثر على نسخة كاملة منه ،

وإنما عثر على قطعتين إحداهما فى المتحف البريطانى والأخرى فى مكتبة بباريس ، وهما قطعتان مختلفتان • ومازال هناك أمل فى العثور على نسخة كاملة فى إحدى خزائن الشمال الإفريقى •

مختصر العين للزبيدى :

والكتاب كما هو واضح من عنوانه اختصار لمعجم العين مع تعديلات طفيفة وتصرف ليس بالكثير • ومؤلفه فى غنى عن التعريف فهو مؤلف طبقات النحويين واللغويين ، ولحن العامة ، والاستدراك على أبنية سيبويه والواضح فى علم العربية ، وجميعها قد طبع وحقق [1] •

وقد اطلعت على الجزء الأول من المطبوع ويقع فى ثمانين صفحة ، وهى تعادل ست عشرة صفحة من مخطوطة بغداد البالغ عددها ٢٣٢ صفحة • وقام بتحقيق هـذا الجزء علال الفاسى ، ومحمد بن تاويت الطنجى ، ونشر التحقيق فى السلسلة اللغوية التى تصدرها وزارة الدولة فى المملكة المغربية •

وأهم ما قام به الزبيدى فى مختصر العين :

(أ) التنظيم والتبويب : وقـد شمل ذلك زيادة باب « للمضاعف الثنائى المعتل » وهو عند الخليل مدمج فى باب « اللفيف » • كما شمل فصل أحرف العلة والهمزة وعـدم دمجها كما فعل الخليل • وقد بدأ الزبيدى بالهمزة يليها الياء فالواو •

(ب) تصحيح ما ورد من خلل أو تصحيف فى العين مثل : جاء فى

---

(١) حقق الطبقات الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ونشره بمصر • أما لحن العامة فقد حققه كل من الدكتور رمضان عبد التواب وعبد العزيز مطر • وأما الاستدراك فقد طبع فى روما عام ١٨٩٠ • وأمـا الواضح فقد حققه الدكتور أمين السيد ونشرته دار المعارف عام ١٩٧٥ • وقد توفى الزبيدى عـام ٣٧٩ هـ •

العين : رجل عقيم ورجال عقماء • فصوب الزبيدى هذا الجمع بقوله : ورجال عقمى •

ومثل إيراد الزبيدى كلمة « الفقاعى » وهو الأحمر يخالطه بياض فى مادة (فقع) وكانت فى كتاب العين فى مادة (قفع) لتصحيفها •

(ج) الاختصار : وذلك عن طريق حذف الصيغ القياسية كالمصادر والأفعال المضارعة والجموع القياسية ، وحذف القواعد والأحكام اللغوية وأسماء اللغويين والرواة • وإسقاط الشواهد كلها نثرية وشعرية (فيما عدا بعض الشواهد القرآنية القليلة ، وما فيها من قراءات) •

(د) الاستدراك : وذلك بزيادة بعض الألفاظ التى أهملها الخليل وهى فى اللغة ، أو إضافة بعض المعانى التى تركها للكلمة • إلا أن الزبيدى — كما ذكر فى خاتمة الكتاب — « لم يستقص جميع ما أهمله العين لأنه اكتفى بكتابه الذى خصصه لهذا الموضوع ، ولأنه أراد أن يكون المختصر صورة موجزة لما فى الأصل من مواد » (١) •

المحيط للصاحب بن عباد :

شهد القرن الرابع معجما رابعاً يسير على طريقة الخليل وهو معجم « المحيط » للوزير الأديب المشهور الصاحب بن عباد (٣٢٤ — ٣٨٥ هـ) • وقد ظل هذا المعجم فى زوايا النسيان حتى قام الشيخ محمد حسن آل ياسين بتحقيق بعض أجزاء منه • وقد رجع المحقق الى نسختين اثنتين إحداهما نسخة المتحف البريطانى والأخرى نسخة كربلاء • وتوجد أجزاء متناثرة منه فى مكتبات أخرى من العالم (٢) •

---

(١) أبو بكر الزبيدى وآثاره فى النحو واللغة ص ٤٦٤ — ٤٨٢ •

(٢) انظر راى الصغانى فى هذا المعجم بعد ، حين عرضنا لمعجم العباب له •

المحكم لابن سيده :

وهو من معاجم القرن الخامس الهجرى ومؤلفه أشهر علماء اللغة فى الأندلس فى هذا القرن • وبرغم أنه كان كفيفا فقد ألف هذا المعجم وألف معجما آخر ضخما سيرد فيما بعد وهو « المخصص » • ولم يتح للمحكم أن يطبع جميعه بعد ، فقد أصدر معهد المخطوطات بالقاهرة جزءه الأول عام ١٩٥٨ وتتابعت الأجزاء حتى صدر السابع عام ١٩٧٣ ووصل الى مادة (ش ص م) •

ونظام المحكم هو هو نظام العين مع فروق طفيفة ، مثل إدماج الخليل الهمزة فى حروف العلة ، وإفراد ابن سيده الهمزة بالذكر ، ومثل احتساب الخليل الألف اللينة حرف علة ، وتجاهلها من ابن سيده تماما ، لأن الألف المدودة فى العربية ترد — اذا كانت أصلية — إما الى الواو أو الياء •

ويعتز صاحب المحكم بأنه حذف منه أمورا لا غناء فيها ، ونبه فيه على أشياء لابد من التنبيه عليها •

(أ) فقد حذف مثلا المشتقات القياسية لاطرادها •

(ب) وميز بين المشتبهات كالجمع واسم الجمع وجمع الجمع •

ومات ابن سيده عام ٤٥٨ هـ •

مثالان تطبيقيان على معاجم الترتيب الصوتى :

المثال الأول : اذا أردنــا أن نبحث عن كلمة « مريد » فى قوله تعالى : « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » نسير على الخطوات الآتية :

الجــذر : مرد •

الكتاب : الدال •

القسم : الثلاثى الصحيح •

المــادة : درم •

التقليبات : د ر م ــ د م ر ــ ر د م ــ ر م د ــ م د ر ــ م ر د

المثال الثانى : اذا أردنا ترتيب عدد من الكلمات فى معجم العين أو أحد توابعه فإننا نسير على الخطوات التالية حين يكون المراد ترتيب الكلمات الآتية :

(أ) غربال ــ رفرف ــ ظنين ــ تلّ ــ تروية ــ فدان ــ دبابة ــ موءودة ــ دندنة ــ غيم •

١ ــ نحدد أعمق الأصوات فى كل كلمة ونكتبه فوقها (بعد تجريدها من الزوائد) :

غ ر ظ ت ر د د د

غربل ــ رفرف ــ ظنن ــ تلل ــ روى ــ فدن ــ دبب ــ وأد ــ

د غ

دندن ــ غيم •

٢ ــ تقسم الكلمات الى مجموعات حسب أعمق الأصوات هكذا :

مجموعة الغين [غربل ــ غيم] •

مجموعة الدال [فدن ــ دبب ــ وأد ــ دندن] •

مجموعة التاء [تلل] •

مجموعة الظاء [ظنن] •

مجموعة الراء [رفرف ــ روى] •

٣ — ترتب كل مجموعة تشتمل على أكثر من كلمة حسب القسم :

الغين : غيم / غربل .

الدال : دبب / دندن / فدن / وأد .

التاء : تلل .

الظاء : ظنن .

الراء : رفرف / روى .

٤ — اذا وجد لفظان ينتميان الى نفس القسم يرتبان حسب المادة .
وينطبق ذلك على لفظى دندن ودبب اللذين يقعان فى قسم الثنائى .
وبالحصول على المادة وهى دن ودب نجد دندن تسبق ذبب .

وعلى هذا يكون الترتيب النهائى على النحو التالى :

غيم — غربال — دندن — دبابة — فدان — موءودة — تل — ظنين — رفرف — تردية .

(ب) دائرة — غضنفر — براثن — دريئة — تمثال — غرنوق — فرند — ورم — ثلاثة — تأييد — غاية .

الترتيب : (غ) غاية — غرنوق — غضنفر .

(د) دائرة — دريئة — تأييد — فرند .

(ث) ثلاثة — تمثال — براثن .

(ر) ورم .

والترتيب النهائى : (١) غاية (٢) غرنوق (٣) غضنفر (٤) دائرة (٥) دريئة (٦) تأييد (٧) فرند (٨) ثلاثة (٩) تمثال (١٠) براثن (١١) ورم .

(ب) مدرسة الترتيب الألفبائى

١ — وضع الكلمة تحت أسبق حروفها (١) :

الجمهرة لابن دريد :

سار ابن دريد فى معجمه الجمهرة على الترتيب الألفبائى العادى ، ووضع الكلمات تحت أسبق حروفها فى الترتيب الهجائى ولكن عقد نظامه أن المؤلف اتبع المنهج الآتى :

١ — قسم أبنية الكلام الى ثنائى وثلاثى ورباعى وخماسى وسداسى (٢) ولفيف ، وبدأ بهذا التقسيم • ولم يكتف بهذه القسمة السداسية فعقد الموضوع بتقسيمات فرعية ، فالثنائى تحته :

(أ) ثنائى صحيح مثل أبب وأزز •

(ب) ثنائى ملحق ببناء الرباعى وهو المكرر أو الذى ضعف فيه حرفان مثل زل زل •

(ج) ثنائى معتل وما تشعب منه مثل باء وثوى (اعتبر الهمزة من حروف العلة) • والثلاثى تحته :

(أ) ثلاثى صحيح مثل ب ك ل •

(ب) ثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلا ن ب ت ت •

(ج) ثلاثى عين الفعل منه أحد حروف اللين مثل باب •

(د) ثلاثى معتل الآخر ب ت (و — ا — ى) •

وهكذا • وقد تتبع الدكتور عبد السميع أبواب الجمهرة فحصرها فى سبعة عشر بابا (٣) •

---

(١) أسبق حروفها فى الترتيب الهجائى مهما كان موضعه فى الكلمة .

(٢) عبر عنه بقوله : هذه أبواب الحقت بالخماسى بالزوائد التى فيها — وبقوله : الملحق بالسداسى — وبقوله : السداسية وان كان الأصل غير ذلك . وذكر له الأمثلة الآتية : سحنكك ومبرنشق .. الخ •

(٣) المعاجم العربية ، ص ٥٥ •

٢ — رتب الكلمات تحت كل باب على الترتيب الهجائى العادى . لأنه اعتبر الترتيب الصوتى مسلكا وعرا لا يقدر على السير فيه إلا المتخصصون ، يقول : « وقد ألف أبو عبد الرحمن بن أحمد الفرهودى كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته ، وعنى من سما الى نهايته ، ... ولكنه رحمه الله ألف كتابه مشاكلا لثقوب فهمه وذكاء فطنته وحدة أذهان أهل دهره وأملينا هذا الكتاب والنقص فى الناس فاش » (١) ، ويقول : « وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة ، إذ كانت بالقلوب أعبق ، وفى الأسماع أنفذ ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة » (٢) .

٣ — اتبع نظام التقليبات كالخليل . ومعنى هـذا أننا لا نجـد الكلمة تحت حرفها الأول ، وإنما تحت أسبق حروفها فى الترتيب الهجائى مهما كان مكان هذا الحرف . فكلمة عبد توجـد فى الباء لأنها أسبق الحروف فى الترتيب ، وكلمة سمع توجد تحت السين وهكذا .

ويوجد بين العين والجمهرة وجها شبه رئيسيان هما :

١ — التقسيم الكمى .

٢ — التقليب .

كما يوجد بينهما وجها خلاف رئيسيان هما :

١ — الترتيب الصوتى فى العين ، والهجائى فى الجمهرة .

٢ — بدء العين بمرحلة الترتيب الهجائى (الصوتى) ثم تقسيم كل حرف تقسيما كميا ، أما الجمهرة فتبدأ بالتقسيم الكمى ، ثم تقسم كل نوع الى أبواب بعدد حروف الهجاء .

وهناك جملة مآخذ أخذت على ابن دريد منها :

١ — التكرار حيث جعل قسما للثنائى الصحيح ، وهو ما ضعف فيه الحرف الثانى مثل أزز ، ثم جعل قسما للثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلان فى أى موضع ، وذلك يشمل الثنائى الصحيح وزيادة .

---

(١) الجمهرة ١/٣ .

(٢) المرجع السابق .

٢ — اعتباره الهمزة من أحرف العلة •

٣ — من أبوابه باب سماه اللفيف [١] وهو يضم الكلمات التى جاءت على أوزان قليلة • وقد حشدها بدون ترتيب وبعضها سبق توزيعه على الأبواب •

٤ — فى أبواب الثلاثى الصحيح نجده يذكر أمثلة للثلاثى المعتل مثل : ب ن و — ب و ه مع أن للمعتل بابا خاصا به •

٥ — اعتباره تاء التأنيث أحيانا من بنية الكلمة وعدها ضمن حروفها ومن ذلك ذكره كلمة « عجة » فى مادة ج ع ه وقال : « العجة ضرب من الطعام عربية صحيحة » • وحقها أن تذكر فى الثنائى الصحيح • والغريب أن ابن دريد ذكرها مرة ثانية فى « باب من الثلاثى يجتمع فيه حرفان مثلان فى أى موضع » • ومن ذلك ذكره كلمة « ثبرة » فى الرباعى وتعليله ذلك بأن الهاء لازمة • بل ذكره كلمات ثلاثية لا تلزمها التاء فى قسم الرباعى مثل « جلبة » و « جنبة » [٢] •

٦ — مناقضته اسم معجمه وما نبه عليه فى المقدمة من إيثاره للجمهور من كلام العرب ، وتجاهله للوحشى والمستنكر ، فأكثر من الألفاظ الغريبة ، حتى انفرد بأشياء لم ترد فى معاجم غيره • ويتضح ذلك من مراجعة المادة اللغوية التى احتواها المزهر للسيوطى فى الفصل الخاص بمعرفة الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات ، فمعظمها مأخوذ من الجمهرة [٣]

---

(١) قال : وسميناه لفيفا لتصر أبوابه والتفاف بعضها الى بعض .

(٢) هذه المآخذ وردت فى المعاجم العربية للدكتور عبد السميع ص ٥٩ وما بعدها . وجلبة الجرح القطعة الرقيقة من الجلد التى تركبه عند البرء . أما الجنبة فهى علبة تتخذ من جلد جنب البعير .

(٣) الجرح : ص ٤٣

٧ — وأخطر من هذا ، تلك التهمة التى ألصقها به الأزهرى وذلك فى قوله : « وممن ألف فى عصرنا الكتب فوسم بالافتعال وتوليد الألفاظ .. وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد وتصفحت كتاب الجمهرة له فلم أره دالا على معرفة ثاقبة وعثرت منه على حروف كثيرة أنكرتها ولم أعرف مخارجها » (١) .

٨ — ويبدو أن معظم أخطاء ابن دريد قد نتجت عن عدم خبرته بعلم الصرف وفى ذلك يقول ابن جنى : « وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضاً من اضطراب التصنيف وفساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هـذا الأمر . ولمـا كتبته وقعت فى متونه وحواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته . ثم إنه لمـا طال على أو مأت الى بعضه وأضربت ألبتة عن بعضه » (٢) .

ويبدو أن ابن دريد كان يحس بالنقص فى عمله ويعتذر بأنه أملى الكتاب ارتجالا « لا عن نسخة ، ولا تخليد فى كتاب قبله . فمن نظر فيه فليخاصم نفسه بذلك فيعذر إن كان فيه تقصير أو تكرير » (٣) .

ولكننا من ناحية أخرى نجد من العلماء من يشهد له ويقدمه على منافسيه . يقول المسعودى : « وكان ابن دريد ببغداد ممن برع فى زماننا هـذا فى الشعر ، وانتهى فى اللغة ، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها ، وأورد أشـياء فى اللغة لم توجـد فى كتب المتقدمين » (٤) . ويقول

---

(١) ٣١/١ .
(٢) المزهر ٩٣/١ نقلا عن الخصائص .
(٣) الجمهرة ٢٦٨/٣ .
(٤) وفيات الأعيان ٤٤٨/٣ .

أبو الطيب اللغوى : « هو الذى انتهى إليه علم لغة البصريين • وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما وأقدرهم على الشعر • وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى خلف الأحمر وابن دريد » (١) • ويدافع عنه السيوطى قائلا : « معاذ الله هو برىء مما رمى به ، ومن طالع الجمهرة رأى تحريه فى روايته • ولا يقبل فيه طعن نفطريه لأنه كان بينهما منافرة عظيمة » (٢) •

وكانت وفاة ابن دريد عام ٣٢١ هـ عن نيف وتسعين سنة • وكان قد أصيب بالفالج على رأس التسعين ثم شفى ثم أصيب به مرة ثانية •

وقد طبع معجم الجمهرة فى حيدر آباد بالهند عام ١٣٤٤ هـ فى ثلاثة مجلدات ألحق بها مجلد خاص للفهارس • وقد قام على تصحيحه رجلان هما الشيخ محمد السورتى والمستشرق الألمانى فريتس كرنكو •

ويبدو أن تعقد منهج الجمهرة • وتمسك ابن دريد بنظام التقليبات برغم طرحه لترتيب الخليل الصوتى كانا من أسباب انصراف المعجميين عن اتباع نظام الجمهرة ، ولذا يقف ابن دريد وحده دون أتباع أو مريدين (٣) •

---

(١) مراتب النحويين ص ٨٤ •

(٢) المزهر ١/٩٣ •

(٣) ولكن هذا لم يمنع تأليف بعض الكتب حوله مثل : فائت الجمهرة لأبى عمر الزاهد ، وجوهرة الجمهرة للصاحب بن عباد ، وشرح شواهد الجمهرة لأبى العلاء المعرى •

مثالا تطبيقيان على معجم الجمهرة :

المثال الأول : البحث عن كلمة « ربابة » فى الجمهرة :

الجذر : ربب •

القسم : الثنائى •

الباب : الباء •

المـــادة : ب ر •

التقليبات : ب ر — ر ب •

المثال الثانى : ترتيب الكلمات الآتية حسب ورودها فى معجم الجمهرة :

علقم — سبابة — ابتلاء — توبيخ — دلال — عصفور — دقيق — انبثاق — ركود — شتيمة •

١ — **مجموعة الثنائى بعد التجريد :** [سبب — دلل — دقق] •

مجموعة الثلاثى الصحيح : [بثق — ركد — شتم] •

مجموعة الثلاثى المعتل : [بلو — وبخ] •

مجموعة الرباعى : [علقم — عصفر] •

٢ — ترتيب كل مجموعة حسب أسبق الحروف :

(أ) سبب — دلل — دقق •

(ب) بثق — شتم — ركد •

(جـ) بلو — وبخ •

(د) عصفر — علقم •

٣ — ترتيب ما اتفق أسبق الحروف فيه حسب المـــادة :

(أ) ب س — د ق — د ل •

(ب) ب ث ق — ت ش م — د ر ك •
(جـ) ب خ و — ب ل و •
(د) ر ص ع ف — ع ق ل م •

٤ — الترتيب النهائى :

سبابة — دلال — دقيق — انبثاق — شتيمة — ركود — ابتلاء — توبيخ — عصفور — علقم •

٢ — وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية :

ظهر هذا النوع من المعجم منذ وقت مبكر لا يتجاوز النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى • وأقدم معجم سلك هذا النظام هو :

معجم الجيم لأبى عمرو الشيبانى :

وتوجد من المعجم نسخة مصورة فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة • كما قام المجمع بطبعه فى ثلاثة أجزاء حقق الأول منها إبراهيم الإبيارى (١٩٧٤) والثانى عبد العليم الطحاوى (١٩٧٥) والثالث عبد الكريم العزباوى (١٩٧٥) وألحق بالمعجم جزء رابع يشتمل على الفهارس (١٩٨٣) •

ويعد الشيبانى من المعمرين فقد ولد قبل الخليل (٩٤ هـ) ، وتوفى بعده (٢٠٦ هـ) • ولهذا يطرح بعضهم احتمال أن يكون الشيبانى سابقا للخليل فى وضع معجمه [١] •

وأبو عمرو راوية كوفى أخذ اللغة مشافهة عن الأعراب ورحل الى البادية ، وكانت له مشاركة فى رواية الحديث •

---

(١) انظر : فى علم اللغة العام لشاهين ، ص ١٩٧ • وانظر فى ذكر الخلاف حول مولده ووفاته : مقدمة المحقق لكتاب الجيم ، ص ١٠ وما بعدها • ويختار ديم ان يكون مولده حوالى سنة ١٢٠ ووفاته سنة ٢١٣ (ص ١٩،١٨) •

ويقولون : إن مؤلف الجيم كان ضنينا به ، ولم ينسخ فى حياته ، ففقد بعد موته إلا يسيرا • وحين أراد مجمع اللغة العربية تحقيقه لم يعثر إلا على نسخة واحدة ومع ذلك يقول المحقق عن الكتاب : « ولكنه لاشك ليس على صورته النهائية التى أرادها له واضعه ، كما أنه لا يحمل مقدمة تعرف بمنهجه وتعلل تلك التسمية » ويقول أيضاً : « هذا الى أن ورود بعض الأبواب مبتورة يكاد يؤكد لنا أن الكتاب لم يتم استصفاء على يدى صاحبه أبى عمرو وأن الموت عجل به عن ذلك » [١] •

ويبدو أن عدم تداول الكتاب جعل العلماء يظنون أن سبب التسمية أنه انتهى بحرف الجيم كما ذكر كرنكو أو أنه بدأ بها كما ذكر كثيرون لكن قال أبو الطيب اللغوى : « وقفت على نسخة منه فلم نجده مبدوءا من الجيم » • وكلام أبى الطيب حق ، فالمعجم لا يبدأ من الجيم وإنما يسير على الترتيب الهجائى العادى بحسب أوائل الكلمات بعد تجريدها من الزوائد ، ولكنه لم يدخل فى الترتيب ثوانى الكلمات وثوالثها • ولهذا نجد كلمات حرف الألف تتتابع هكذا : أوق — ألب — أفق — أزح — أنف — أرب — أخذ الخ •

وربما كانت أهم ميزة لهذا المعجم أن ألفاظه خلاصة استصفاء لشعر شعراء قبائل تربى على الثمانين يكاد جل شعرهم يكون مجهولا يعز تتبعه فى المراجع التى بين أيدينا • كما أن هذه الكلمات تحمل شروحا لا تنطوى عليها معاجمنا ، وتكاد تكون غريبة عليها [٢] •

ولهذا فإن كتاب الجيم يمكن تسميته معجما على سبيل التجوز ، لأنه يهتم بالألفاظ الغريبة التى لا يكاد يعرفها غيره ، والتى تنسب الى قبائل معينة قديمة ، ويبدو أن المؤلف — لجريه وراء الغريب — قد أطلق على معجمه لفظا وأراد به معناه الغريب • فالجيم فى اللغة الديباج ،

---

(١) ص ٣٥ ، ٤٦ •

(٢) مقدمة المحقق ص ٤٧ ، وفرنر ديم ص ٥٧ •

وهذا هو المعنى الذى ربما عناه المؤلف تشبيها لعمله بالديباج لحسنه [١]. ولكن يعكر على هذا التخريج أن تفسير الجيم بالديباج لم يرد فى معجم الجيم نفسه .

وهناك احتمال آخر هو أن يكون المؤلف قد بدأ معجمه بالجيم فعلا ، ولكن جاء بعده من أعاد ترتيب الكتاب على الترتيب الهجائى المعروف ويبقى السؤال : لماذا اختار الجيم على هذا الاحتمال ؟ الإجابة يلخصها الأستاذ إبراهيم الإبيارى محقق الكتاب فى قوله :

(أ) إما لأنه كره أن يبدأ بالباء أول الحروف لأنه لابد معها من النص على نقطها حتى لا تلتبس بالتاء والثاء . وهذا يطول العنوان ، ولذا بدأ بالجيم الذى لا يلتبس فى اسمه بحرف آخر .

(ب) أو لأن الجيم أحد حروف خمسة تجمع بين الجهر والشدة [٢].

وقد كان أول من نوه بمعجم الجيم وأشار الى أهميته المستشرق ف . كرنكو ولكنه هو ومن جاء بعده من المستشرقين أخفقوا فى تحقيقه .

وفى عام ١٩٦٨ صدرت أول دراسة علمية مفصلة عن المعجم برسالة أعدها فرنر ديم لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة لودفيك مكسيميليان فى ميونيخ . وترجم بحث فرنر ديم الى العربية ونشر عام ١٩٨٠ . وقد أثبت ديم أن كثيرا من مادة « الجيم » لم يرد فى المعاجم الأخرى ، وأن علماء اللغة المتأخرين لم يأخذوا منه إلا قليلا . كما ذكر أن فى الجيم

---

(١) هذه المعلومات مأخوذة من بغية الوعاة — كشف الظنون — الأعلام للزركلى — دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم انيس (ص ٢٢٣) — محاضرات فى علم اللغة للمؤلف (ص ٢٠٧) .

وقد ذكر الدكتور عدنان الخطيب أن لأبى عمرو الشيبانى معجما سماه « الحروف » رتبه على الترتيب الهجائى العادى (المعجم العربى ، ص ٢٩) . وراجع ما ذكره فى ص ٣٢ ، ٣٣ كذلك .

(٢) مقدمة الجيم ص ٣٨ ، ٤٠ .

عددا ضخما من الشواهد الشعرية التى يصعب العثور عليها فى مراجع أخرى • وهذا وذاك يعطى المعجم أهمية كبيرة (١) •

المقاييس لابن فارس :

ولد ابن فارس (أحمد بن زكريا القزوينى) وعاش ومات فى القرن الرابع الهجرى قرن النهضة المعجمية الشـاملة • وكانت ولادته عام ٣٢٩ هـ (٢) ووفاته عام ٣٩٥ هـ • وآثار ابن فارس اللغوية عديدة منها « الصاحبى فى فقه اللغة » ومنها « المجمل » بالإضافة الى معجمه مقاييس اللغة الذى معنا • وقد أقيم نظام المقاييس على أساسين هما :

١ — اتباع الترتيب الهجائى العادى • ولكنه لم يكن يبدأ ثوانى الكلمات من أول الألفبائية ولكن من الحرف الذى يلى الحرف الأول • وحينئذ فقوله : باب الحاء وما بعدها يعنى به الحاء مع الخاء ، ثم يسير الى نهاية الألفبائية ، ويبدأ من الهمزة ويقف عند الجيم • وقد شرح الدكتور عبد الله درويش الفكرة قائلا : فإذا تصورنا أن الأبجدية منتظمة فى شكل دائرة فإن الترتيب يبدأ من الحرف المعين مبتدئا بتأليفه مع

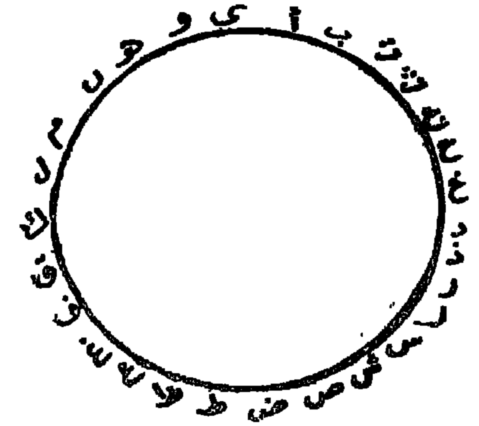

(١) ديم ص ١٤٨ ، ١٥٨ •

(٢) ذكر ذلك عدنان الخطيب ص ٣٩ ، وأكد الأستاذ هلال ناجى انه ولد سنة ٣١٢ والأرجح انه ولد خلال العقد الأول من القرن الرابع أو بداية العقد الثانى (مقدمة التحقيق لمجمل اللغة) •

ما يليه فى الدائرة ثم ينتقل الى الحرف الثانى وهكذا حتى تعود الدائرة من حيث بدأت وهكذا :

وفعل مثل ذلك فى الحروف الثالثة [١] • وعلى هذا فكلمة مثل « عبد » توضع فى المقاييس بعد كلمة « عقد » لأن القاف تلى العين بحرفين أما الباء فلا يأتى دورها إلا بعد الانتهاء من جميع حروف الهجاء ثم البدء بالهمزة ثم الباء [٢] •

٢ — تقسيم كل حرف من حروف الهجاء أقساما ثلاثة (إن وجدت الثلاثة) أو بعضها (إن لم توجد كلها) • وهـذه الأقسـام هى : (أ) المضاعف • (ب) الثلاثى الأصول • (جـ) ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف •

وأهم ما يميز المقاييس الى جانب ذلك شيئان :

١ — محاولة ربط المعانى الجزئية للمعانى بمعنى عام يجمعها أو معان عامة • وخير مثال لذلك مادة « جن » التى ردها الى معنى الستر والتستر ، وفرع على ذلك : الجنة لأنها ثواب مستور عنهم اليوم — والجنة بمعنى البستان لأن الشجر بورقه يستر — والجنين الولد فى بطن أمه — والجنان القلب — والمجن الترس ، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة — والجنة المجنون ، وذلك أنه يغطى العقل — وجنان الليل سواده وستره الأشياء — والجن سموا بذلك لأنهم مستترون •• [٣] •

٢ — مذهبه الخاص فى الرباعى والخماسى الذى شرحه بقوله :

---

(١) المعجم العربى ص ١٢٤ •

(٢) يبدو أن ابن فارس أخذ فكرته البدء فى الثوانى بما يلى الأوائل وفى الثوالث بما يلى الثوانى — أخذهـا عن معاجم التقليبات • ولكن معاجم التقليبات فعلت ذلك تجنبا للتكرار ، ولا حكمة فى صنيع ابن فارس •

(٣) ١/٤٢١ ، ٤٢٢ •

« اعلم أن للرباعى والخماسى مذهبا فى القياس يستنبطه النظر الدقيق . وذلك أن أكثر ما تراه منحوت . ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ . والأصل فى ذلك ما ذكره الخليل من قولهم : حيعل الرجل اذا قال حى على .. فعلى هذا الأصل بنينا ما ذكرناه من مقاييس الرباعى فنقول : إن ذلك على ضربين : أحدهما المنحوت الذى ذكرناه . والضرب الآخر الموضوع وضعاً لا مجال له فى طرق القياس .. » (١) .

ومن يراجع مادة المقاييس يجد ابن فارس يضيف الى هذين الضربين ضربا ثالثا وهو : « ما يجىء على الرباعى وهو من الثلاثى على ما ذكرناه لكنهم يزيدون فيه حرفاً لمعنى يريدونه من مبالغة » (٢) .

وأمثلة هذه الأنواع الثلاثة كما يلى :

١ — بحتر : القصير المجتمع الخلق من بتر وحتر : فالأول كأنه حرم الطول فبتر خلقه ، والثانى لأنه ضيق عليه ولم يعط ما أعطيه الطويل .

٢ — أما ما وضع وضعا فمثل له بالبخنق والبرغز والبرذن والبرشم (٣) .. الخ .

٣ — أما ما زيد فيه حرف فمثاله بلعوم من البلع ، وبرقع ، بزيادة الباء ، وبلسم بزيادة الميم وبلقع بزيادة اللام .

وقد طبع معجم مقاييس اللغة فى مصر بتحقيق الأستاذ الكبير عبد السلام هارون فى ستة مجلدات وزود بفهارس دقيقة وافية .

---

(١) ١/٣٢٩ .
(٢) ١/٣٣٥ .
(٣) البخنق : برقع يغشى العنق والصدر . والبرغز : ولد البقرة الوحشية . والبرشم : البرقع .

مجمل اللغة لابن فارس :

عده بعضهم أفضل ما ألف ابن فارس وأشهره ، وقد قام بتأليفه — كما ذكر فى مقدمته — ليتلافى تعقيدات المعاجم السابقة مثل العين والجمهرة . ولذا ألفه مختصرا قريبا ، قليل اللفظ ، كثير الفوائد [١] .

ويكشف عنوان الكتاب عن منهجه ، وهو الإجمال الشديد ، والتقليل من الشواهد والتصاريف . كما أن المؤلف يكشف عن جوانب أخرى من المنهج فى مقدمته حين يصف المعجم بصغر الحجم وحسن الترتيب . وفى أوائل الأحرف قد يتحدث المؤلف عن جوانب أخرى من منهجه كقوله فى أول حرف الجيم : « هذا باب الجيم من مجمل اللغة وقد ذكرنا فيه الواضح من كلام العرب والصحيح منه دون الوحشى المستنكر . ولم نأل جهدا فى اجتباء المشهور الدال على غريب آية أو تفسير حديث أو شعر . والمتوخى من كتابنا هذا من أوله الى آخره : التقريب والإبانة عما ائتلف من حروف اللغة فكان كلاما ، وذكر ما صح من ذلك سماعا ، ومن كتاب لايشك فى صحة نسبه » [٢] .

أما ترتيبه فهو نفس ترتيب المقاييس أى الترتيب الهجائى مع بدء الثانى مما يلى الأول والثالث مما يلى الثانى والتقسيم الكمى الى مضاعف وثلاثى وما زاد على ثلاثة أحرف .

بين المقاييس والمجمل :

رغم اتفاق المعجمين فى الترتيب فهما يختلفان فى عدة جوانب منها :

١ — يقوم المقاييس على جملة من الأقيسة تتعلق بالثلاثى والرباعى كما سبق أن ذكرنا أما المجمل فمعجم عادى همه إيصال معانى الألفاظ الى القارىء .

---

(١) مقدمة التحقيق للمجمل ص ٩٦ .
(٢) مجمل اللغة ١/٣٨٢ .

٢ — ينفرد المجمل بذكر مواد كثيرة لم يشر إليها فى المقاييس [1] .

وقد طبع المجمل طبعتين محققتين ، أولاهما بتحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، فى أربعة أجزاء ، والأخرى بتحقيق هادى حسن حمودى فى خمسة أجزاء ، من منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت .

مثالان تطبيقيان على معجمى المقاييس والمجمل :

المثال الأول : البحث عن كلمة « متكلف » فى أحد المعجمين :

الجذر : كلف

البـاب : الكاف .

القسم : الثلاثى .

المـادة : الكاف واللام ومايثلثهما .

المثال الثانى : ترتيب الكلمات الآتية حسب ورودها فى أحد المعجمين :

بهو — حيتان — أتان — تدبير — درهم — بثور — أزيز — صيام — صنبور — برزخ — دخان — صحراء — دهان .

(أ) تقسم الكلمات الى مجموعات حسب حرفها الأول بعد التجريد :

* أتن — أزز .
* بهو — بثر — برزخ .
* حـوت .
* دبر — درهم — دخن — دهن .
* صوم — صنبر — صحر .

---

(١) مقدمة التحقيق للمجمل ص ١١٥ .

(ب) ترتب كلمات كل حرف حسب حجمها :

* أزز / أتن •
* بهو — بثر / برزخ •
* حـوت •
* دبر — دخن — دهن / درهم •
* صوم — صحر / صنبر •

(جـ) ترتب كلمات كل قسم حسب الثوانى والثوالث :

* أزز — أتن •
* بثر — بهو — برزخ •
* حـوت •
* دهن — دبر — دخن — درهم •
* صوم — صحر — صنبر •

فيكون الترتيب النهائى :

أزيز — أتان — بثور — بهو — برزخ — حوت — دهان — تدبير — دخان — درهم — صيام — صحراء — صنبور •

أساس البلاغة للزمخشرى :

ولد الزمخشرى عام ٤٦٧ ، وتوفى عام ٥٣٨ • وهو أول من اكتمل على يديه نظام الترتيب الألفبائى • وقد ذكر فى سبب اختياره له مايأتى : « وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا ، وأسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب على طلبته — موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع »• ونظام الزمخشرى هو النظام الحديث الذى ينظر الى الأوائل فإذا اتفقت ينظر الى الثوانى فإذا اتفقت ينظر الى الثوالث •• ويشرح الزمخشرى

خطته قائلا : « من خصائص هـذا الكتاب تخير مـا وقع فى عبارات المبدعين وانطوى فى استعمالات المفلقين من التراكيب التى تملح وتحسن ..

« ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف .. بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا ..

« ومنهـا تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح .. » [1] .

ولعل أهم ما يميز الكتاب ــ الى جانب سهولة ترتيبه ــ ما التزمه المؤلف من التفريق بين المعانى الحقيقية والمعانى المجازية للكلمة ، وبدئه بالمعنى الحقيقى . ومن أمثلة ذلك قوله :

١ ــ سيف وسِنان ذَرِب .. وفيه ذَرَب وذَرابة : حدة .. ومن المجاز : لسان ذرب .. وسم ذرب ..

٢ ــ مَجّ الماء من فيه . وشيخ وبعير ماجّ : هرم لا يمسك ريقه .. ومن المجاز : مزج الشراب بمجاج المزن وبمجاج النحل .. وهذا كلام تمجه الأسماع .. واذا كان الزمخشرى قد وفق فى الأمثلة السـابقة وغيرها فهو لم يوفق فى بعض آخر مثل :

١ ــ .. يقال أشد من وخز الإبر .. ومن المجاز : إبرة القرن لطرفه .

٢ ــ .. أرتج الباب : أغلقه إغلاقا وثيقا .. ومن المجاز : أرتجت الناقة : حملت فأغلقت رحمها على المـاء .. وأرتجت الدجاجة : امتلأ بطنها بيضا .

٣ ــ كتب الكتاب .. انتسخه .. ومن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه .. وكتب البغلة وكتب عليها اذا جمع بين شفريها بحلقة .. وكتب النعل والقربة : خرزها بسيرين .

---

(١) مقدمة المؤلف ص ٨ .

وأهم ما نلاحظه على هذه الاقتباسات شيئان :

(أ) أنه ثبت المعانى الحقيقية والأخرى المجازية مع أن المجاز والحقيقة فى حركة دائبة ويتبادلان مراكزهما •

(ب) أنه عكس الوضع بالنسبة لكلمات « إبرة » و « أرتج » و « كتب » فاعتبر المجاز حقيقة والحقيقة مجازا •

المصباح المنير للفيومى :

وهو من المعاجم الموجزة ، ومؤلفه من علماء القرن الثامن الهجرى [١] • وقد اهتم فيه المؤلف بالاصطلاحات الفقهية ، لأنه هدف من تأليف معجمه الى شرح ألفاظ « شرح الوجيز » الذى كتبه الرافعى [٢] على « الوجيز » [٣] للغزالى وفيه أكثر من الاستشهاد بالحديث النبوى [٤] •

والكتاب — كما ذكر الفيومى فى خاتمة معجمه — قد جمع أصله من نحو سبعين كتابا ما بين معاجم وموسوعات وكتب تفسير ونحو ودواوين شعر • ويزيد فى قيمة المعجم أن المؤلف ألحق بكتابه دراسة موجزة ضمت قواعد من النحو والاشتقاق والتصريف والمصادر والجموع والتذكير والتأنيث والتفضيل والنسب •

---

(١) لم تحدد المراجع تاريخ مولده ، واستنتج بعضهم أن يكون قد ولد قبيل عام ٧٠٠ . أما تاريخ وفاته فقيل فى حدود ٧٦٠ وقبيل ٧٧٠ هـ •

(٢) هو امام الدين عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الرافعى القزوينى (٥٥٧ — ٦٢٣ هـ) وشرح الوجيز يسمى كذلك : « الشرح الكبير » و « وفتح العزيز فى شرح الوجيز » •

(٣) الوجيز كتاب فى فقه الشافعية .

(٤) من ذلك قوله فى مادة « ثنى » : « اثنيت عليه خيرا وبخير واثنيت عليه شرا وبشر .. وفى الصحيحين : مروا بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال عليه الصلاة والسلام وجبت . ثم مروا بأخرى فاثنوا عليها شرا فقال عليه الصلاة والسلام وجبت » •

ملاحظة : سارت معاجم هذه المدرسة على اعتبار الأوائل ثم الثوانى ثم الثوالث ، ولكن هناك طريقة غريبة سار عليها أبو حيان فى معجمه « تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب » حيث اعتبر الأوائل ثم الثوالث [1] .

٣ — وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد :

لم تظهر — فى الحقيقة — معجمات قديمة كاملة اتبعت هذا النظام . وإنما ظهرت مجموعة من الكتب اللغوية التى اهتمت بنوع معين من المفردات وأهم هذه الكتب هو :

١ — « المقصور والممدود » لابن ولاد المصرى المتوفى عام ٣٣٢ هـ . وهو معجم يحصر كلمات المقصور والممدود فى اللغة العربية ، وسار فيه المؤلف على النحو التالى :

١ — وضع الكلمات تحت أوائلها بدون تفريق بين الأصلى والزائد .

٢ — اتباع نظام الترتيب الهجائى العادى وطرح نظام الخليل الصوتى .

٣ — عدم إعطاء أى اعتبار لثوانى الكلمات أو ثوالثها .

وقد طبع كتاب ابن ولاد حتى الآن طبعتين غير محققتين ، إحداهما بإشراف الدكتور بول برونل فى لندن — ليدن عام ١٩٠٠ ، والأخرى بإشراف السيد محمد بدر الدين الحلبى فى القاهرة عام ١٩٠٨ — وكلتاهما مليئة بالتحريفات والأخطاء .

(ب) « غريب القرآن » لأبى بكر محمد بن عزير السجستانى المتوفى عام ٣٣٠ هـ .

---

(١) انظر مقدمة المحققين ص ٧ — ٨ .

(جـ) وقد لاقى هذا النظام رواجا بصفة خاصة بين المؤلفين فى غريب القرآن وغريب الحديث ، لأن عملهم فى الحقيقة كان يخاطب الجمهور المسلم قبل المتخصصين فى البحث اللغوى ، ولا شك أن هذا النظام أيسر على القارىء العادى . ونشير بوجه خاص الى « المفردات فى غريب القرآن » للراغب الأصفهانى ، و « النهاية فى غريب الحديث والأثر » لابن الأثير .

(د) كذلك سلك الجواليقى هذا السبيل فى كتابه عن الكلمات المعربة فى اللغة العربية والذى يحمل اسم « المعرب » .

والسر فى عدم شيوع هذا النظام بين المعجميين القدماء أنه يمزق كلمات المادة الواحدة ، ويفرقها فى أماكن متعددة . فمادة « كتب » مثلا ستوزع مشتقاتها على النحو الآتى :

كتاب وكتاب و ... فى الكاف

مكتب ومكتوب و ... فى الميم

تكاتب ... و ... فى التاء

اكتتاب ... و ... فى الألف وهكذا

وبذلك ضحى المعجميون بالسهولة فى سبيل لم المتفرق وجمع الشمل .

٤ ــ وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد :

التقفية فى اللغة :

مؤلف هذا المعجم أبو بشر اليمان بن أبى اليمان البندنيجى ، الذى ولد عام ٢٠٠ هـ وتوفى عام ٢٨٤ هـ . والبندنيجى نسبة الى بلد يدعى بندنيجين على طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد فى أرض السواد ، قرب الحدود العراقية الإيرانية .

رتب المؤلف كتابه على حسب أواخر الكلمات ، بغض النظر عن كونها حروفا أصلية أو زائدة ، مع أخذه فى الاعتبار قوافى الشعر وكيفية ترتيبها هجائياً • ومن أجل هذا — ولأن المؤلف هدف الى خدمة الشعراء — لم يرتب الكلمات داخل القافية أى نوع من الترتيب ، وإنما اكتفى بتجميع الكلمات تحت الحرف الأخير (حرف الروى فى القافية) ، مع ما يسبقه حين يكون التزامه ضرورياً فى القافية •

ومما يدل على أن هــدف المؤلف لفظى يتمثل فى تقديم القوافى المتماثلة — أنه كثيراً ما كان يسرد الكلمات سرداً متتابعاً دون توضيح معانيها ، وتكراره الكلمة فى أكثر من موضع بحسب ما يلحقها من زوائد تغير القافية • « فكبير » فى قافية و « كبيرة » فى قافية أخرى •• وهكذا • وقد أفصح المؤلف عن هذا حين قال إنه « اختار الكلام الفصيح الذى لا يجهله العوام » ، وحين أطلق على الفروع داخل الحرف الواحــد « قافية » •

ولنمثل لذلك بباب الراء • فقــد بدأ بكلمات : المجر — النجر — البشر — العسر ••• ثم قال : « قافية أخرى » اشتملت على كلمات مثل : الميرة — كبيرة — صغيرة — جبيرة ••• ثم « قافية أخرى » اشتملت على كلمات مثل : قماطر — عذافر — تضافر — تظاهر ••

ومما يؤكد سيطرة فكرة القافية على تقسيمات المؤلف أنه قسم حرف الألف الى : باب الألف الممدودة مثل : أباء — خباء — هباء — حرباء — شتاء •• ثم باب الألف المهموزة مثل : نبأ — ظمأ — كلأ ••• وتحت هذا الباب فروع متنوعة • ففرع يشمل : الظماءة — الفناءة — الجراءة •• وفرع يشمل : اللألأة — الصأصأة — الدأدأة •• وأخيرا ذكر باب الألف المقصورة ويشمل كلمات مثل : القفا — البلى — الطلى — العلى ••

ومادام هدف المؤلف تقديم القوافى للشعراء ، وليس هدفه تقديم

العون لمن يريد ضبط كلمة أو معرفة معناها فإنه لم ير أى داع لترتيب الكلمات داخل القافية الواحدة • لأن من يبحث عن قافية معينة لا يهمه ترتيب الكلمات تحت هذه القافية إذ لابد له أن يقرأ كلمات القافية المرادة كلها • وهذا هو السر فى أن المؤلف لم يرتب الكلمات أى ترتيب آخر على الأوائل أو الثوانى مثلا • ولهذا فلا معنى لقول محقق « التقفية » : « فلم يدر بخلده ارتضاء ترتيب هجائى يوفر على المراجع الجهد ، مما يدل على عدم اختمار المسألة فى ذهنه » (انظر ص ٢٤ من المقدمة) •

وقد طبع المعجم عام ١٩٧٦ باسم « التقفية فى اللغة » وقام بتحقيقه الدكتور خليل إبراهيم العطية ، ونشر فى العراق بمساعدة وزارة الأوقاف•

٥ — وضع الكلمة تحت حرفها الأصلى الأخير •

رائد هذه الطريقة التى يطلق عليها نظام الباب والفصل أو الترتيب بحسب القافية هو الفارابى اللغوى وعنه أخذها تابعون كثيرون •

ومن الباحثين من ينسب الريادة للبندنيجى مؤلف « التقفية » ومن هؤلاء محقق التقفية الدكتور خليل العطية وكذلك الدكتور عبد الصبور شاهين [١] • وفى رأيى أن كتاب التقفية لا يمكن اعتباره من معاجم الباب والفصل لما يأتى :

(أ) أنه مرتب بحسب الأواخر دون تجريد من الزوائد •

(ب) أنه لم تعتبر فيه الأوائل فى حال اتفاق الأواخر •

(جـ) أن مهمته تختلف عن مهمة المعجم ، لأنها تتركز فى عرض كلمات اللغة مبوبة على حسب تقسيمات القافية فى الشعر العربى • أما مهام المعجم الأساسية التى تتلخص فى شرح الكلمات وضبطها بالشكل

---

(١) انظر : فى علم اللغة العام ، ص ٢١٥ •

وبيان كيفية كتابتها وتحديد وظيفتها الصرفية .. فتكاد تختفى من هذا الكتاب .

صحاح الجوهرى :

يعد الجوهرى تابعاً لطريقة الفارابى ، ولكنه أدخل تعديلا جوهرياً عليها إذ اطرح الخطوات الكثيرة التى سارت عليها معاجم الأبنية ، واختار من منهج الفارابى المعقد فكرة الباب والفصل وحدها وأدار عليها معجمه . ولذا فإن مزيته — على حد تعبير المستشرق الألمانى كرنكو — « تنحصر فى أنه رتب المادة اللغوية برمتها فى ترتيب هجائى واحد » .

والاسم الكامل لمعجم الجوهرى هو « تاج اللغة وصحاح العربية » ولكنه اشتهر باسم « الصحاح » . وتضبط إما بكسر الصاد جمع صحيح وإما بفتح الصاد فتكون مفردا بمعنى صحيح مثل براء وبرىء . وأفضل طبعة للصحاح تلك التى حققها الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار .

وقد سار كتاب الصحاح فى الآفاق وبلغ فى الشهرة مبلغاً عظيما ، ويقول القفطى : إنه لما دخلت نسخة منه مصر نظرها العلماء فاستجودوا قرب مأخذها . ويقول إن أهل مصر يروون كتاب الصحاح عن ابن القطاع الصقلى متصل الطريق الى الجوهرى ، ولا يرويه أحد من أهل خراسان [١] .

وفى رأيى أن كتاب « الصحاح » نال من الشهرة أكثر مما يستحق ، وأن الجهد الحقيقى يعود الى الفارابى لا الى الجوهرى ، وأن أصابع الاتهام تشير الى الجوهرى بالأخذ والاغتراف من « ديوان الأدب » بدون أن يشير الى ذلك أو يلمح حتى إليه .

ولما كانت هذه التهمة خطيرة وتمس مكانة الجوهرى العلمية فسنعطيها شيئاً من البسط حتى يتضح فيها وجه الحق .

---

(١) مقدمة العطار لتهذيب الصحاح للزنجانى ، ص ٤٢ .

بين الصحاح وديوان الأدب : كان كرنكو [١] أول من تنبه الى العلاقة بين الصحاح وديوان الأدب ، وأشار الى وجود التشابه بل التماثل بينهما ولكنه تحدث عن ذلك فى إيجاز شديد وسطحية ظاهرة ، إذ قال إنه عقد مقارنة بين المعجمين « وكم كانت دهشتى أن أكتشف أن الجوهرى لم يكتف بأن عب من ديوان الأدب ، بل وجـدت — قدر ما استطعت الاستقراء والمقابلة — أن الصحاح لا يحتوى على أى شىء لا يوجد فى ديوان الأدب » .

ولم يحاول أحد من الباحثين منذ نشر المقال (عام ١٩٢٤) حتى الآن أن يتوفر على درس القضية ويناقشها مناقشة واعية فكل ما وجه إليها ما قاله الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار : « ولقـد أسرف كرنكو فى دعـواه ولا سند لـه . فديوان الأدب للفارابى وصحاح الجـوهرى موجودان .. والفارق بين المعجمين كبير . وبعد كل هذا نجـد عمل الجوهرى أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابى » ، وما قاله : « والتقاء الفارابى والجوهرى فى نقطة أو نقاط ليس دليلا على أن الثانى سطا على الأول » [٢] . وحاول الدكتور عبد السميع محمد فى أسطر قليلة أن ينفى عن الجوهرى دعوى السرقة من خاله الفارابى ، وكان أهم ما اعتمد عليه عدم تحدث أحد من العلماء عن دعوى النقل هذه [٣] .

أما نحن فيتلخص رأينا فيما يأتى :

١ — هناك اتفـاق بين المؤرخين على أن هناك صلة نسـب بين الجوهرى والفارابى . فمعظم المؤرخين على أن الفارابى خال الجوهرى ، وروى بعضهم رواية أخـرى ضعيفة تقول إن الجـوهرى هـو خال الفارابى [٤] .

---

(١) فى مقال له بعنوان The Beginning of Anabic lexicography

(٢) مقدمة الصحاح ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) المعاجم العربية ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انباه الرواة ٥٢/١ ، ومعجم الأدباء ٦١/٦ وما بعدها ، ونزهة الألباء ، وبغية الوعاة وغيرها .

٢ — كما أن من المتفق عليه تاريخيا وجود صلة علمية بين الفارابى والجوهرى ، فقد ذكر المؤرخون أن الجوهرى تتلمذ على خاله الفارابى ، بل منهم من ذهب الى تعميق هذه الصلة وقال إنها هى السبب فى تسمية الجوهرى بالفارابى ، وأنه سمى بذلك نسبة الى خاله وأصله هـو من فارس [1] .

٣ — من الروايات التاريخية الموثقة أن الجوهرى قرأ ديوان الأدب على خاله ، وأنه كان يحتفظ بنسخـة منه عنده كتبها بخطه . بل أكثر من هذا يقول ياقوت : إنه بعد أن قرأه على مؤلفه بفاراب أعاد قراءته على أبى السرى محمد بن إبراهيم الأصبهانى بأصبهان ، ثم عرضه على أستاذه أبى سعيد السيرافى ببغداد فقبله ولم ينكره فصـار عنده من صحاح اللغة [2] .

فكل هذه العوامل تجعلنا نقول إن الجوهرى قد استفاد ولا شك من ثقافة خاله وعلمه ، وإنه تأثر بشخصيته اللغوية ، واستعان بكتاب « ديوان الأدب » فى تأليف معجمه الصحاح .

ولكن الى أى حـد بلغ هذا التأثر ؟

والى أى مدى استفاد الجوهرى من ديوان الأدب ؟

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه الآن :

١ — وأول شىء ثابت لا يقبل النقاش أن الجوهرى أخذ عن ديوان الأدب نظام الباب والفصل . وهذه قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها أو ينكرها . فأمامنا ديوان الأدب وأمامنا الصحاح . ولا شك أن ديوان الأدب أسبق فى التأليف من الصحاح ، ولاشك أن الفارابى هو السابق بهذا النظام .

---

(١) معجم الأدباء ٦٢/٦ ، وبغية الوعاة ، واضاءة الراموس ٤٥/١ .
(٢) معجم الأدباء ٦٣/٦ .

وهذه نقطة التقاء هامة لأنها النقطة الجوهرية التى حققت للصحاح الشهرة وأنزلته من المعاجم منزلا حسنا . ومعظم صفات المدح التى وصف بها الصحاح ترجع الى هذا النظام ، مثل وصفه بأنه قريب التناول — حسن الترتيب — سهل المطلب لما يراد منه .

ولا أظن أن الأستاذ العطار [1] على حق حين يصر على نسبة الفضل فى هذا النظام للجوهرى مع اعترافه بأن الفارابى هو السابق . ولا أفهم كيف يمكن التوفيق بين قوله : « ولعل من الحق والإنصاف أن نذكر أن بين الفارابى والجوهرى نقطة التقاء وهى تقسيم الكتاب الى أبواب وفصول » ، وقوله : « والذى نراه أن منهج الجوهرى فى ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تيسير الأمر على الشعراء والكتاب .. أما المنهج الذى اتبعه فهو من ابتكاره (! !) وهداه إليه علمه الواسع بالصرف واشتغاله به » (! !) .

٢ — أما المادة اللغوية ، فلتحقيق صلة الصحاح فيهما بديوان الأدب لجأت الى ثلاثة طرق :

أولها : أنى رتبت بعض مواد ديوان الأدب على ترتيب الصحاح ثم قارنت بين النوعين من المادة .

ثانيها : أننى قابلت مادة ديوان الأدب على الصحاح لأرى مدى اتفاقهما فى معالجة الألفاظ ، وطريقة تناولها ، وبيان معانيها ، وأقف على ما زاده أو نقصه كل منهما عن الآخر .

وثالثها : أنى عقدت موازنة بين الكتابين شملت أعلام العلماء وأسماء المراجع ، والأبحاث النحوية ، والشواهد ، والمآخذ اللغوية .

وأظننا — بعد هذه الموازنات — نستطيع أن نصدر حكمنا ونحن مطمئنون :

---

(١) مقدمة الصحاح ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ .

أولا

تحليل بعض المواد اللغوية

مادة حبب :

الصحاح	ديوان الأدب
١ — الحبة واحدة حب الحنطة ، ونحوها من الحبوب .	١ — الحبة واحدة الحب من كل الحبوب .
٢ — وحبة القلب سويداؤه ويقال ثمرته وهو ذاك .	٢ — وحبة القلب ثمرته .
٣ — والحبة السوداء والحبة الخضراء .	٣ — وهى الحبة الخضراء والحبة السوداء .
٤ — والحبة من الشىء القطعة منه	٤ — ....
٥ — ويقال للبرد حب الغمام وحب المزن وحب قر .	٥ — ....
٦ — ابن السكيت : وهذا جابر ابن حبة اسم للخبز وهو معرفة .	٦ — ....
٧ — والحبة بالكسر بزور الصحراء مما ليس بقوت . وفى الحديث : « فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل » والجمع حبب .	٧ — والحبة بزور الصحراء .
٨ — والحبة بالضم : الحب . يقال نعم وحبة وكرامة .	٨ — ....
٩ — والحب : الخابية فارسى معرب . والجمع حباب وحببة .	٩ — والحب : الخابية ، والجمع حباب .
١٠ — والحب المحبة وكذلك الحب بالكسر . والحب أيضا الحبيب مثل خدن وخدين .	١٠ — فلان حبى أى حبيبى ، كما تقول خدن وخدين . والحب أيضا لغة فى الحب (انظر ٣٣) .

الصحاح

١١ — يقال أحبه فهو محب وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب ، قال الشـــاعر :

أحب أبا مروان من أجل تمره
وأعلم أن الرفق بالمرء أرفق
ووالله لولا تمـــره مـــا حببته
ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

وهذا شاذ لأنه لا يأتى فى المضاعف يفعـــل بالكسر الا ويشركه يفعل بالضم اذا كان متعديا ما خلا هذا الحرف .

١٢ — ويقال : ما كنت حبيبا ، ولقد حببت بالكسر أى صرت حبيبا

١٣ — الأصمعى : قولهم حب بفلان معناه ما أحبه الى . وقال الفراء معناه حبب بضـــم الباء ثم أسكنت وادغمت فى الثانية . وقال ابن السكيت فى قول ساعدة :

هجرت غضوب وحب من بتجنب
وعدت عواد دون وليك تشعب

اراد حبب فأدغم ، ونقل الضمة الى الحاء لأنه مدح . ومنه قولهم : حبـــذا زيد . فحب فعل ماض لايتصرف وأصله حبب على ما قال الفراء ، وذا فاعله . وهو اسم مبهم من أسماء الاشارة ، جعـــلا شيئا واحدا فصار بمنزلة اسم يرفع ما بعده . وموضـعه رفع بالابتداء ، وزيد خبره فلا يجوز أن يكون بدلا من ذا لأنك تقول : حبذا المراة ولو كان بدلا لقلت :

حبذه المراة قال الشاعر جرير :

ديوان الأدب

١١ — ذكر فى باب فَعَل يفعل : يقال حببته بمعنى أحببته . وهذا شاذ لأنه لا يأتى يفعل — بالكسر — فى المضـــاعف وهو واقع الا أن يشركه يفعل .

١٢ — ....

١٣ — ....

الصحاح

وحبذا نفحات من يمانيه
تأتيك من قبل الريان أحيانا

١٤ — وتحبب اليه تودد .

١٥ — وتحبب الحمار اذا امتلأ من الماء ، وشربت الابل حتى حببت اى تملأت ريا .

١٦ — وامرأة محبة لزوجها ، ومحب لزوجها أيضا عن الفراء .

١٧ — الاستحباب كالاستحسان .

١٨ — وتحابوا اى أحب كل واحد منهم صاحبه .

١٩ — الحباب بالكسر المحابة والموادة .

٢٠ — الحباب بالضم الحب قال الشاعر :

فوالله ما ادرى وانى لصادق
أداء عرانى من حبابك أم سحر

٢١ — الحباب أيضا الحية . وانما قيل الحباب اسم شيطان لأن الحية يقال لها شيطان . ومنه سمى الرجل .

٢٢ — وحباب الماء بالفتح معظمه قال طرفة :

يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

ويقال أيضا حباب الماء : نفاخاته التى تعلوه وهى اليعاليل .

٢٣ — وتقول أيضا : حبابك أن تفعل كذا أى غايتك .

٢٤ — والاحباب البروك .

ديوان الأدب

١٤ — تحبب اليه أى تودد .

١٥ — وتحبب الحمار اذا امتلأ من الماء .

١٦ — ....

١٧ — استحبه عليه أى آثره واستحبه أى أحبه .

١٨ — تحابوا أى أحب كل واحد منهم صاحبه .

١٩ — والحباب الحبيب .

٢٠ — ....

٢١ — الحباب : الحية . ومنه سمى الرجل الحباب . وانما قيل الحباب اسم شيطان لأن الحية يقال لها شيطان .

٢٢ — حباب الماء معظمه والحبابة واحدة حباب الماء .

٢٣ — ويقال حبابك أن تفعل كذا أى غايتك .

٢٤ — والاحباب هو البروك .

الصحاح

٢٥ — والاحباب فى الابل كالحران فى الخيل ، قال الشاعر :

ضربت بعير السوء اذ أحبا

ابو زيد : يقال بعير محب . وقد أحب احبابا ، وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح من مكانه حتى يبرأ أو يموت ، وقال ثعلب :

يقال أيضا للبعير الحسير : محب وأنشـد :

جبت نساء العالمين بالسبب
فهن بعـد كلهن كالمحب

٢٦ — وأحب الزرع والب اذا دخل فيه الأكل ، وتنشأ فيه الحب والب .

٢٧ — الحبب بالتحريك تنضد الأسنان قال :

واذا تضحك تبدى حببا .

٢٨ — الحباب اسم رجل بخيل كان لا يوقد الا نارا ضعيفة مخافة الضيفان فضربوا بها المثل حتى قالوا نار الحباحب لما تقدحه الخيل بحوافرها .

قال النابغة يذكر السيوف :

تقد السلوقى المضاعف نسجه
وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وربما قالوا : نار أبى حباحب ، وهو ذباب يطير بالليل كانه نار ، قال الكميت :

يرى الراءون بالشفرات منها
كنار أبى حباحب والظبينا

وربما جعلوا الحباحب اسما لتلك النار ، قال الكسعى :

ما بال سهمى يوقد الحباحبا

ديوان الأدب

٢٥ — ويقال للبعير محب اذا كان لا يبرح موضعه من كسر أو مرض .

٢٦ — ....

٢٧ — حبب الأسنان تنضدها .

٢٨ — نار الحباحب النار التى توريها الخيل بحوافرها من الحجارة . ويقال الحباحب اسم رجل كان بخيلا جدا .

الصحاح	ديوان الأدب
قد كنت أرجو أن يكون صائبا	
٢٩ — حبان بالفتح اسم رجل موضوع من الحب .	٢٩ — حبان من أسماء الرجال .
٣٠ — الحباحب بالفتح الصغار، الواحد حبحاب ، قال الهذلى : دلجى اذا ما الليل جن على المقرنة الحباحب يعنى بالمقرنة الجبال التي يدنو بعضها من بعض .	٣٠ — الحبحاب الصغير الشأن الحقير .
٣١ — حبى على فعلى اسم امرأة ، قال هدبة بن خشرم : فما وجدت وجدى بها أم واحد ولا وجد حبى بابن أم كلاب	٣١ — ....
٣٢ —	٣٢ — الحب الخشبات الأربع التى توضع عليها الجرة ذات العروتين .
٣٣ — انظر رقم ١٠	٣٣ — المحبة الحب .
٣٤ —	٣٤ — هو الحبيب .
٣٥ —	٣٥ — يقال أتانا زمن الحباب أى زمن تلقيح النخل .
٣٦ —	٣٦ — حبان من أسماء الرجال.
٣٧ —	٣٧ — حببت الرجل اذا أطعمته الحب .
٣٨ —	٣٨ — حبب الله اليه الايمان وهو نقيض التكريه .

ومن هذه الموازنة نخرج بالنتائج الآتية :

١ — توجد فى الصحاح زيادات ليست فى ديوان الأدب مثل الفقرات ٥ ، ٦ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٣١ ومثل الزيادات التى نجدها داخل الفقرات على سبيل الشرح أو التفصيل أو الاستشهاد .

ونلاحظ أن بعض هــذه الزيادات يحتاج الى نقل عن مرجع آخر كالفقرة رقم ١٣ وهى موجــودة فى تهذيب اللغة ، وبعضها موجود فى العين ، وكالفقرة رقم ٢٦ رلم أجدها فى العين ولا الجمهرة ولا تهذيب اللغة . كما أن بعضها من قبيل التطبيق أو الشرح والتفصيل الــذى لا يحتاج الى مرجع .

٢ — كما توجد فى ديوان الأدب زيادات ليست فى الصحاح مثل الفقرة رقم ٣٢ وهى موجودة فى التهذيب والعين ، والفقرتين رقم ٣٥ ، ٣٧ ولم أجدهما لا فى العين ولا التهذيب ولا الجمهرة .

٣ — ولكننا الى جانب ذلك نلمح شبها كبيراً وأحيانا تماثلا بين بعض الفقرات مثل :

(أ) الفقرة رقم ٣ ، فالعبارة هى العبارة ، والغمرض فى العرض هو الغمرض . والعبارة — بعد هذا — لم ترد فى العين ولا التهذيب ولا الجمهرة .

(ب) ومثل رقم ٩ ، وتفســير الحب بالخابية لم يرد فى العين ولا الجمهرة ولا التهذيب . وعبارة الخليل : الحب الجرة الضخمة . وعبارة الجمهرة : الحب الذى يكون فيه المــاء . وعبارة التهذيب هى عبارة الخليل .

(ج) ومثل الفقرة رقم ١٨ ، ولم ينص فى العين ولا فى الجمهرة ولا فى التهذيب على هذا المعنى لأنه مفهوم من الصيغة . ولكننا نجده عند الصحاح بعبارة ديوان الأدب . ولو لم يكن قد أخذ العبارة منه لوجدنا اختلافاً بين العبارتين . وقد كان فى إمكان الجوهرى أن يقول مثلا : أى أحب بعضهم بعضا ، أو أحب كل واحد منهم أخاه ، أو أحب كل منهم الآخر .

ثانيا

مقابلة المادة اللغوية

بمقابلة مادة ديوان الأدب على الصحاح يتبين ما يأتى :

١ — اتفاق المعجمين اتفاقا تاما فى معالجة كثير من الصيغ والألفاظ مما يدل على وجود صلة بينهما . ويظهر ذلك من النماذج الآتية :

العين	الجمهرة	ديوان الأدب	الصحاح
وأما حسب مجزوم فمعناه كما تقول حسبك هذا أى كفاك	حسبى كذا وكذا أى يكفينى	ويقال حسبك درهم أى كفاك ويقال هذا رجل حسبك من رجل وهو مدح للنكرة	وحسبك درهم أى كفاك وهو اسم . وهذا رجل حسبك من رجل وهو مدح للنكرة
السقب لغة فى الصقب والسقيبة عمود الخباء قال : كسقب خباء خَرّ فوقَ السقائب والسقب ولد الناقة . وأسقبت الناقة أى أكثرت وضعها الذكور	السقب بالسين والصاد حوار الناقة وبالسين اكثر والصقب بالصاد ... عمود من عمد البيت .	السقب ولد الناقة الذكر والسقب لغة فى الصقب من نعت الشيء الطويل مع ترارة والسقب عمود البيت الأطول	السقب الذكر من ولد الناقة .. والسقب الطويل من كل شىء مع ترارة .. والسقب والصقب عمود الخباء

العين	الجمهرة	ديوان الأدب	الصحاح
الشجب والمشجب خشبات موثقة تنصب وتنشر عليها الثياب .	الشجاب والمشجب واحد ، ويقال الشجب ايضا ويسمون الثلاث الخشبات التى يعلق عليهـا الراعى سقاءه ودلوه الشجب .	المشجب الخشبة التى تلقى عليها الثياب .	المشجب الخشبة التى تلقى عليها الثياب
الجلوبة ما يجلب للبيع نحو الناب والفحل والقلوص ... وعبد جليب وعباد جلباء اذا كانوا جلبوا من أيامهم وسنتهم .	الجليب والمجلوب الأعجمى يجلب من بلده الى بلاد الاسلام وعبد جليب ومجلوب .	الجلوبة ما يجلب للبيع . الجليب الذى يجلب من بلده الى غيره . أجلبه اى أعانه .	الجلوبة ما يجلب للبيع . والجليب الذى يجلب من بلد الى غيره . أجلبه اى أعانه .
		انجابت السحابة اى انكشفت	انجابت السحابة انكشفت

٢ — ولكننا من ناحية أخرى نجد اختلافا كبيرا بين المعجمين فى معالجة الفاظ أخرى وشرحها وبيان ضبطها كما يبين من النماذج الآتيـــة :

ديوان الأدب	الصحاح
١ — الكتر (بالفتح) : السنام .	١ — الكتر بالكسر السنام .
٢ — كل صانع اسكاف عند العرب .	٢ — وقول من قال : كل صانع عند العرب اسكاف فغير معروف .
٣ — الهادر اللبن اذا خثر أعلاه وأسفله رقيق .	٣ — الهادر اللبن اذا خثر أعلاه وأسفله .
٤ — الأطلس من الذئاب الذى تساقط شعره .	٤ — ذئب أطلس وهو الذى فى لونه غبرة الى السواد .
٥ — السمع ولد الضبع من الذئب .	٥ — السمع ولد الذئب من الضبع .
٦ — البردان اسم موضع .	٦ — البردان بالتحريك موضع .
٧ — يوم سخنان (بفتح السين) اى حار .	٧ — يوم سخنان (بضم السين) أى حار .

٨ — وضع الفارابى « تولج » فى السالم الرباعى الملحق بواو بعد الفاء (تلج) ، ووضعها الجوهرى فى باب الجيم فصل الواو لأن التاء منقلبة عن واو .

٣ — كما نجد زيادات كثيرة فى الصحاح ليست فى ديوان الأدب . ولسنا فى حاجة الى ضرب الأمثلة على ذلك ، فهو واضح من الموازنة السابقة بين مادة حيب فى ديوان الأدب والصحاح ، كما يتضح من المقارنة بين حجمى المعجمين ، فحجم الصحاح يبلغ مثلى ديوان الأدب ، ولذلك جاء أكثر ألفاظا وأوفر مادة .

٤ — ونجد أيضاً زيادات فى ديوان الأدب ليست فى الصحاح ، ولكنها قليلة بالنسبة لزيادات الصحاح قلة ظاهرة . وقد جمعت هذه الزيادات فلم تزد على بضع صفحات (١) .

ثالثا

دراسة الظواهر المشتركة

١ — اذا قارنا بين المعجمين من حيث الأعلام نجد الجوهرى مكثرا من ذكر أسماء العلماء والرواة بخلاف الفارابى الذى كان مقلا جداً .

٢ — ومن حيث المراجع ، لم يذكر الفارابى اسم أى مرجع من المراجع التى رجع إليها فى حين أن الجوهرى كان أحياناً يذكر اسم المرجع ومن هذه المراجع : الإبل للأصمعى ، والهمز لأبى زيد ، والكتاب لسيبويه ، والفرق للأصمعى ، والغريب المصنف لأبى عبيد ، والفرس للأصمعى .

٣ — ونجد الأبحاث النحوية كثيرة فى الصحاح ، وتفوق نظيرتها فى ديوان الأدب .

---

(١) راجع رسالتنا للماجستير عن الفارابى اللغوى ، ص ٣١٢ .

٤ — أما الشواهد فتفوق فى الصحاح عددها فى ديوان الأدب ، سواء كانت قراءات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أمثالا أو أبياتاً شعرية . وهناك شواهد لم ينسبها الفارابى ونسبت فى الصحاح ، أو جاءت ناقصة فى ديوان الأدب ورواها الجوهرى كاملة كما أن هناك أشياء خالف فيها الصحاح ديوان الأدب [١] .

٥ — وأما المآخذ اللغوية التى أخذها العلماء على الصحاح فنجد كثيراً منها مشتركاً بين الصحاح وديوان الأدب ، وبعضاً منها ينفرد بها الصحاح ، مما يدل على أن الجوهرى لم يأخذها من ديوان الأدب . ومن أمثلة المـآخذ المشتركة بينهما :

(أ) قال الفارابى : الشَّبَرَ العطية وأصله بالتسكين .

قال العجاج : الحمد لله الذى أعطى الشَّبَرَ .

وقال الجوهرى : ومصدره الشبر (بالسكون) إلا أن العجاج حركه فقال :

الحمد لله الذى أعطى الشبر .

قال ابن برى : وقول الجوهرى إن الأصل فيه الشبر بسكون الباء ... وهم لأن الشبر مصدر شبرته اذا أعطيته والشبَر اسم للعطية .

(ب) ذكر الفارابى كلمة « اللفاء » فى الناقص لا المهموز ، وكذلك فعل الجوهرى .

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى المرجع السابق ، ص ٣١٣ — ٣٢٣ .

قال الصغانى ، والمهموز موضعه .

(جـ) ذكر الفارابى « الزرجون » فى باب فعلول على اعتبار أن نونها أصلية . وكذلك فعل الجوهرى إذ ذكرها فى باب النون فصل الزاى .

قال الصغانى : وموضعه « زرج » لأن وزنه فعلون والجيم لام الكلمة .

(د) قال الفارابى فى باب مفعل : منعج اسم موضـــع . وكذلك ضبطها الجوهرى (بالفتح) .

قال الصغانى : والصواب فيه كسر العين ، ولعله نقله من كتاب الفارابى .

(هـ) قال الفارابى : وسالم من أسماء الرجال . وقال بعضهم : يقال للجلدة التى بين العين والأنف سالم . ومثل هذا فى الصحاح .

قال الصغانى : وهذا غلط وقد تبع خاله الفارابى فى أخذ اللغة من معنى الشعر .

(و) قال الفارابى : غضبى مائة من الإبل وهى معرفة لا تدخلها الألف واللام . ومثل هذا قاله الجوهرى .

وقال الفيروزابادى : قول الجوهرى تصحيف والصـــواب غضيا بالمثناة تحت . وغير ذلك كثير وكثير .

ويتضح من هذا كله وجـــه الشبه الكبير فى المـــادة اللغوية بين الصحاح وديوان الأدب ، فما معنى هذا ؟ وما تفسيره ؟

قد يقال إن الجوهرى لم يأخذ تلك المـــادة من الفارابى ، وإنمـــا أخذها من أصوله ومراجعه الأولى .

ولكن الذى يبدو أن الجوهرى قد استعان بديوان الأدب مباشرة

وأنه أخذ منه كثيراً من مادته اللغوية مما أدى الى هذا التشابه أو التماثل فى بعض الأحيان • ويبدو أيضا أن كثرة ما أخذه الجوهرى عن خاله كانت السبب فى إغفاله ذكر اسمه فى معجمه جميعه إغفالا تاما ، وإلا فلو حرص على ذكر اسمه فى كل موضع لتكرر اسمه فى كل صفحة ولسجل الجوهرى على نفسه الحكم بالتبعية ، وهو ما حاول أن يخفيه ويطمس معالمه • وإلا فكيف نعلل تسجيل الجوهرى أسماء العلماء الذين نقل عنهم (وأسماء المراجع فى بعض الأحيان) ومنهم من نقل عنه مرة واحدة أو مرتين ، وفى مسائل غير ذات بال ، ومنهم من لا يتمتع بمثل شهرة الفارابى وطيب سمعته [1] ؟ ولو أن الجوهرى كان حسن النية ، أو لو أنه لم يأخذ كل هذه المادة المشتركة من « ديوان الأدب » مباشرة لذكر اسمه ولو مرة واحدة • واذا كان الجوهرى قد أحس بالحرج من كثرة تردد اسم خاله فى كل صفحة ، فلا أقل من أن يشير الى اسمه فى مقدمة معجمه ويشيد بفضله •

ولكننا مع هذا لا نوافق كرنكو فى قوله : « إنه ليس فى الصحاح شىء لا نجده فى ديوان الأدب » فالصحاح أوسع مادة وأكثر كماً من ديوان الأدب ، وهو يحتوى على زيادات كثيرة لا نجدها فى ديوان الأدب كما سبق أن ذكرنا ، وأظنه لو عكس القضية فقال : « ليس فى ديوان الأدب شىء إلا نجده فى الصحاح » لكان أقرب الى الصواب وأدنى الى الحقيقة ، وإن كان هذا الحكم كذلك ليس على إطلاقه •

والخلاصة أن الصحاح متأثر بديوان الأدب فى نظامه ، وفى مادته اللغوية ، وأنه استفاد منه كثيراً — مباشرة وبالواسطة — وإن اشتمل

---

(١) ممن نقل عنهم الجوهرى مثلا ابو الغوث (فى عجين انبجان) • والجوهرى ينقل فى صحاحه عن اساتذته المباشرين — من طبقة الفارابى — كابى على الفارسى وابى سعيد السيرافى • ويبدو أن الجوهرى كان من دأبه اغفال أهم الأسماء التى اعتمد عليها ، فقد فعل نفس الشىء بالنسبة لابن قتيبة ، فقد أغفل ذكر اسمه اغفالا تاما برغم كثرة ما اخذه عنه وكثرة اشاراته الى العلماء بشكل ملحوظ •

على زيادات كثيرة ليست فيه • وقد أحس بهذه الاستفادة الصغانى من قبل فنبه فى أكثر من موضع من كتابه « التكملة » على ذلك كما سبق أن ذكرنا • كذلك أدركها الفيومى فأشار إليها أكثر من مرة فى معجمه المصباح المنير [١] •

الأعمال التى دارت حول الصحاح :

لاقى الصحاح اهتماما كبيراً من الطلاب والباحثين منذ ظهوره وكتبت عليه شروح وتعليقات عديدة ، كما قام أكثر من عالم باختصاره • وقد أخذت الأعمال التى دارت حول الصحاح أشكالا خمسة هى :

١ — التوهيم
٢ — الدفاع
٣ — التذييل والتعليق
٤ — الاختصار
٥ — الترجمة

وأشهر ما ألف فى توهيم الصحاح كتابان هما :

أولا : التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح ، الذى يعرف كذلك بحواشى ابن برى ، وقد نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة باسم : كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح بتحقيق الأستاذين مصطفى حجازى وعبد العليم الطحاوى (١٩٨٠ — ١٩٨١) •

وهذا الكتاب يعد من أسبق التعليقات النقدية على الصحاح لأن مؤلفه عبد الله بن برى المصرى قد ولد عام ٤٩٩ هـ وتوفى عام ٥٨٢ هـ • فإذا علمنا أن الصحاح قد دخل مصر على يد ابن القطاع المتوفى

---

(١) انظر مثلا مادة سدد وشوش •

عام ٥١٥ هـ أدركنا مدى حرص ابن برى منذ نشأته على الاشتغال بهذا الكتاب والنظر فيه ، وتتبع ما فيه « محصياً غلطاته ومخرجاً سقطاته » •

ولا ترجع أهمية حواشى ابن برى (التنبيه والإيضاح) الى قدمها فقط ، وإنما الى جملة أمور ، من بينها :

١ — أنها أحد الأصول الخمسة التى وثق فيها ابن منظور (مؤلف لسان العرب) ، وبنى عليها معجمه •

٢ — أنها من كتب اللغة القلائل التى توفر لمؤلفيهـا عمق النظرة ، ودقة الرواية ، وكثرة المحفوظ ، وسعة الاطلاع — الى جانب العنـاية الفائقة بالنحو والتصريف •

وقد عرف ابن برى بهذه الصفات فلفت الأنظار إليه وهو فى سن مبكرة ، ووقع عليه الاختيار وهو فى الحادية والعشرين من عمره ليتولى التصفح فى ديوان الإنشاء بمصر « فكان لا يصدر كتاب عن الدولة الى ملك من ملوك النواحى إلا بعـد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفى » •

وقد جمع ابن برى الى علمه أدباً جما ولساناً عفاً ، فكان — كما يقول محقق الكتاب — « لا يسارع الى التخطئة ، ولا يتَّهم بالغفلة أو الجهل • وهذه سمة العلماء ، يعرفون فضل المتقدم ويحترمون اجتهاد غيرهم ••• » • ويعجب الزبيدى بأدب ابن برى فيقارن بين عبارته : « وليس كما ذكر » ، وعبـارة الفيروزابادى : « وأخطأ الجوهرى فى الإطلاق » ، ويقول : « ولكن ما أحلى تعبيره بقوله : وليس الأمر كما ذكر • فانظر أين هذا من قولة [الفيروزابادى] : أخطأ ، على أنه لا خطأ » •

ولهذا جاءت تعليقات الذين أرخوا لحياته حافلة بعبارات التقدير وألفاظ الثناء • فالسيوطى يقول : « إنه لم يكن فى الديار المصرية مثله •

وكان قيّما بالنحو واللغة والشواهد ثقة » . والقفطى يقول : « كان جمّ الفوائد ، كثير الاطلاع ، عالمـاً بكتاب سيبويه وعلله ، وبغيره من الكتب النحوية ، قيما باللغة وشواهدها .. وكانت كتبه فى غاية الصحة والجودة .. وأكثر الرؤساء بمصر استفادوا منه وأخـذوا عنه » . ويصفه ابن خلكان « بالإمام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية ، علاّمة عصره ، وحافظ وقته ، ونادرة دهره » .

وهناك إشارة فى بعض المراجع القديمة الى أن ابن برى لم يكمل حواشيه على الصحاح وأنه وقف عند مادة « وقش » ، لكن الأستاذ مصطفى حجازى يرجح إتمام الكتاب وبلوغ ابن برى بحواشيه آخر الصحاح . ويتوقع الأستاذ حجازى إمكانية الحصول على نسخة كاملة من حواشى ابن برى عن طريق استخلاص ما فى لسان العرب لابن منظور من نقول عن ابن برى بعد مادة « وقش » (١) .

دراسة تحليلية لكتاب ابن برىّ :

نقرر بادىء ذى بدء أن ابن برى لم يستوعب فى حواشيه كل ما يمكن أن يوجه الى الصحاح من نقد . وقد وجدنا — فى حدود المـادة التى وصلتنا من حواشى ابن برى — أن ابن برى قد أغفل بعض المآخذ التى وردت عند غيره كالصاغانى والفيروزابادى . ونكتفى بذكر المثالين التاليين :

١ — ذكر الجوهرى أن الأتان تسمى البيدانة . وقد نقل ابن برى هذه التسمية دون أن يعقب عليها بالرفض كما فعل الصاغانى . ففى التكملة (٢/٨) : « أتان بيدانة تسكن البيداء ، وهى غير ما قيل : البيدانة الأتان . ففى هذا القول نظر » . وتقييد البيدانة بساكنة البيداء سبق به الخليل فى العين ونقله عنه الأزهرى فى تهذيب اللغة .

ولكن ابن برى يذكر للبيدانة تفسيرين هما : التى تسكن البيداء

---

(١) راجع مقدمة المحقق ص ٥ وما بعدها .

(فتكون النون زائدة) أو العظيمة البدن (فتكون النون أصلية) ، ولا يوجه أى نقد لعبارة الصحاح •

٢ — ذكر الجوهرى فى فصل (ثعلب) بيتاً شاهداً على أن الثُّعْلُبان : ذكر الثعالب ، وهو :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبان برأسه لقد هان من بالتْ عليه الثعالبُ

ولم يعقب ابن برى على هذا بأكثر من قوله : « هذا البيت مختلف فى قائله فبعضهم يرويه لغاوى بن ظالم ، وبعضهم يرويه لأبى ذر الغفارى ، وبعضهم يرويه للعباس بن مرداس » •

وأمامنا تعليق كل من الصاغانى والفيروزابادى على الشاهد :

(أ) قال الصاغانى : والصواب الثَّعْلبان : تثنية ثعلب (التكملة ١ / ٢٠) •

(ب) وقال الفيروزابادى : واستشهاد الجوهرى بقوله : أرب يبول الثعلبان برأسه غلط صريح •• والصواب فى البيت فتح الثاء لأنه مثنى •

فإذا أردنا أن نحلل تعليقات ابن برى على الصحاح تحليلاً موضوعياً نجدها تدور حول ما يأتى :

١ — نسبة الجوهرى الى الخطأ الصرفى الذى أدى الى وضع الكلمة فى غير موضعها الصحيح • ومن ذلك وضعه « الأباءة » لأجمة القصب فى المعتل مع أن همزتها أصلية ، ووضعه « اختتأ » بمعنى استتر خوفاً أو حياء فى (ختأ) مع أنها من ختا يختو ، فحقها أن توضع فى المعتل • ومن ذلك وضعه « الفئة » بمعنى الطائفة فى (فيأ) مع أن أصلها فِئْو ، فالهمزة عين ، والمحذوف لامها وهى الواو ، وكذلك وضعه « حبنطأ » فى (حبطأ) وصوابه فى (حبط) لأن الهمزة زائدة •

٢ ـ الاستدراك على ما ساقه من شواهد ، وهذا يشمل :

(أ) نسبة الشاهد الى قائله ، ومن ذلك نسبته البيت :

ثنيانـنـا إن أتاهم كان بَدْأهم   وبدؤهـم إن أتانـا كان ثنيانا

لأوس بن مغراء السعدى (١/٦) ، والبيت :

اذا الأرطى توسَّـد أبرديه   خـدودُ جوازئٍ بالرمـل عين

للشماخ بن ضرار (١/٩) .

(ب) تصحيح نسبة الشاهد ، ومن ذلك نسبة الجوهرى بعض بيت وهو : .. قتيل التجوبىّ ..

نسبته للكميت ، وهو للوليد بن عقبة (١/٥٥) ، ونسبته :
والقَصْب مضطمر والمتن ملحوبُ

لامرئ القيس ، وهو لإبراهيم بن عمران الأنصارى (١/١٢٩) ، ونسبته :

جرَتْ عليها كلُّ ريحٍ رَيْدة
هوجاءَ سـفواءَ نَؤوج الغدْوة

لهميان بن قحافة ، والقائل هو علقمة التيمىّ (٢/٢٤)

(جـ) تكملة الشاهد ، ومن ذلك استشهاد الجوهرى بنصف البيت :

ولو تعادَى ببكءٍ كلُّ محلوب

وقد عقب ابن برى قائلاً : صدره :

يقال محبسها أدنى لمرتعها (١/٧)

وكذلك استشهاد الجوهرى بعجز بيت لامرئ القيس وهو :

كمشى أتانٍ حلِّئت عن مناهل

قال ابن برى : صدره :

وأعجبنى مشىُ الحزُقّة خالد (١/ ١٢)

(د) إضافة شـــواهد جديدة ، ومن ذلك أن الجوهرى قد ذكر أن الإسوار لغة فى السوار نقلاً عن أبى عمرو • وقد عقب ابن برى بقوله : « وحقه أن يذكر شاهداً على الإسوار لغة فى السوار لئلا يظن أن الإسوار فى السوار قول انفرد به أبو عمرو • وشاهده قول الأحوص :

غادة تغرث الوشـــاحَ ولا يغــ ـــرث منهـا الخلخـــال والإسوار

وقال حميد بن ثور •• وقال المعرندس الكلابى •• وقال المرار بن سعيد الفقعسى •• » (٢/ ١٣٥) •

(هـ) الاعتراض على مكان وضع الشـــاهد ، فقد قال الجوهرى : « قِراب السيف : جفنه ، وهو وعاء يكون فيه السيف بغمده وحمالته ، وفى المثل : إن الفرار بقراب أكيس » ، وقـــد عقب ابن برى قائلاً : « صواب الكلام أن يقول — قبل المثل — والقراب : القرْب ، ويستشهد بالمثل عليه ، لأن هذا المثل •• الخ » (١/ ١٢٧) •

(و) التعليق على الشاهد بتفسير غامضه أو بيان مناسبته أو توجيهه أو ذكر أصله ومضربه إن كان مثلاً • وأكتفى باقتباس الأمثلة الآتية :

* عقب على رواية بيت عدى بن زيد :

أجْلَ أنّ الله قد فضّلكم فـــوق ما أحـــكى بصلب وإزار

قائلاً : « هذه الرواية تحتاج الى تفسير ، لأنه أراد بالصلب هاهنا الحسب ، وبالإزار العفاف • أى فضلكم الله بحسب وعفاف فوق ما أحكى أى : أقول •• » •

* عقب على قول الجوهرى إن الرجز الآتى لامرأة ترقص ابنها :

أشــبه أبــا أمِّك أو أشــبه عمــلْ
ولا تكــونن كهِلَّوْفٍ وكَلْ
يصبح فى مضجعه قد انجــدلْ
وارْقَ الى الخيرات زنئاً فى الجبلْ

عقب قائلاً : « البيت [اقتبس الجوهرى البيت الأخير] لقيس ابن عاصم المنقرى ، وكان أخذ صبياً من أمه يرقصه ، وأمه منفوسة بنت زيد الفوارس ، والصبى هو ابنه واسمه حكيم .. وزعم الجوهرى أن الرجز لأمه قالته وهى ترقصــه ، وليس بصحيح ، وإنما الذى قالته رادّة على أبيه هو :

أشبه أخى أو أشبهن أباكا
أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر أن تناله يداكا »

* عقب ابن برى على اقتباس الجوهرى المثل : « أساء سمعاً فأساء جابة » بقوله : « ولم يذكر أصله . وأصله — على ما ذكر الزبير بن بكار — أنه كان لسهل بن عمرو ابنٌ مضعوف ، فقال له : إنسانٍ : أين أمك ؟ أى قَصْدك ، فقال : ذهبت تشترى دقيقاً ، فقال أبوه : أساء سمعاً فأساء جابة » .

(ز) تصحيح الرواية أو الضبط . والأمثلة على هذا كثيرة منها :
* روى الجوهرى البيت التالى بنصب « ملجأ » :

وملجــأ مهروثين يلْفَى به الحيا إذا جلّفت كَحْلٌ هو الأم والأب

فعقب ابن برى قائلاً : « صوابه : وملجأ بكسر الهمزة لأن قبله ...»
* روى الجوهرى صدر بيت شاهدا .. وهو :

والخيلُ تمزع غرْباً فى أعنتها

فعقب ابن برى قائلاً : « وصواب إنشاده : والخيلَ بالنصب لأنه معطوف على المـائة من قوله :

الواهــب المائــة الأبــكار زيَّنها سَعْدانُ توضحَ فى أوبارها اللبدُ»

* ذكر الجوهرى فى فصل (ميد) صدر بيت لأبى ذؤيب شاهداً على « مايد » بالياء المثناة اسم جبل هو :

يمانية أحيالهـا مَظٌّ مايد

وقد عقب ابن برى قائلاً : « صوابه : مابد بالباء المعجمة بواحدة . وحقه أن يذكر فى فصل مبد .. » .

وغيره كثير ..

٣ — إهماله بعض المواد ، أو الكلمات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) قال ابن برى : « وذكر فى فصل (برأ) : برِئتُ أبْرَأ ، وبَرَأتُ — أيضاً — أبْرَأ ... ولم يذكر بَرَأت أبرُؤ — بالضم فى المستقبل — وقــد ذكره سيبويه وأبو عثمان المـازنى وغيرهمـا من البصريين .. » .

(ب) قال ابن برى : « وقد أهمل من هذا الفصل [بوب] قولهم : بابة ، والجمع بابات ، وهى تستعمل فى الحساب والحدود والكتاب . قال الأصمعى : بابات الكتاب : وجوهه ، وقال غيره : طرقه .. » .

٤ — التعليقات الصرفية والنحوية ، وهذا يشمل :

(أ) أخطاء للجوهرى ، كما حدث فى مادة (ش ى أ) حين معالجته لكلمة « أشياء » ، وفى مادة (ن ب أ) حين حديثه عن تصغير « نبىّ » ، وفى مادة (ز ر ر) حين حديثه عن ضبط الراء فى الأمر : « زُرَّه » ، وفى مادة (ن ص ب) حين حديثه عن النسبة الى « نصيبين » ، وفى مادة (ق د د) حين حديثه عن نون الوقاية ...

(ب) إضافات واستطرادات ، كإثباته أن أصل الألف فى « آءة » واو ، وقوله إن « الذُرِّيّة » فُعْلِيَّة من الذَّر أو فُعْلولة .. ، وكتفصيله الحديث عن « أمس » فى الصفحات ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ...

٥ — عدم الدقة فى التعبير ، كقول ابن برى : « وقول الجوهرى : إن البوادر من الإنسان اللحمة .. ليس بصحيح ، وصوابه أن يقول : إن البوادر جمع بادرة للحمة التى بين المنكب والعنق .. » . ومثله قول ابن برى : « أما قول الجوهرى : الحمارة تنصب حول الحوض ، وتنصب أيضاً حول بيت الصائد ، فصوابه أن يقول : الحمائر : حجارة تنصب على الحوض ، الواحدة حمارة ، وهو كل حجر عريض » .

٦ — ضبط كلمة أو تصحيح ضبطها ، أو إزالة ما لحقها من تصحيف . ومن أمثلة ذلك :

(أ) قال الجوهرى : البَدْأَة : النصيب من الجزور .

وقال ابن برى : ذكر أبو عبيد فى باب الميسر من غريب المصنف : البُدْأة بالضم النصيب من أنصباء الجزور ..

(ب) قال الجوهرى : والاسم الجُشَأَة ، مثال الهُمَزَة .

وقال ابن برى : الذى ذكره أبو زيد الأنصارى : الجُشْأَة ساكنة الشين ويقوى قوله قول الراجز :

فى جُشْأَة من جُشَآت الفجر .

(ج) روى الجوهرى فى فصل (س ع ب) بيتا لابن مقبل هو :

يعلون بالمردقوش الـورد ضاحيةً على سعابيب ماء الضالـة اللجز

وقد عقب ابن برى قائلاً : « هذا تصحيف تبع فيه ابن السكيت . وإنما هو اللجن بالنون ، وقبله :

من نسوةٍ شُمُسٍ لا مكرهٍ عُنُفٍ ولا فواحشَ فى سرٍّ ولا علن

٧ — التعقيب برأى آخر ، ومن ذلك :

(أ) ذكر الجوهرى فى فصل (ج ن ب) قولهم : فلانٌ لا يطور بجَنَبَتِنا . وقد عقب ابن برى قائلاً : « هكذا قال أبو عبيدة وغيره بتحريك النون . وكذا رووه فى الحديث : وعلى جَنَبَتَى الصراط أبواب مفتحة . وقال عثمان بن جنى : قد غرِىَ الناس بقولهم : أنا فى ذكراك وجنبتك — بفتح النون — والصواب إسكان النون .. » .

(ب) ذكر الجوهرى فى فصل (س ر ب) قولهم : فلان آمنٌ فى سرْبه أى فى نفسه . وقد عقب ابن برى قائلاً : « هذا القول الذى قاله هو قول جماعة من أهل اللغة . وأنكر ابن درستويه قول من قالوا : آمن فى سربه أى فى نفسه ، قال : وإنما المعنى آمن فى أهله وماله وولده ..»

٨ — توجيه النقد لغير الجوهرى . وممن نقدهم ابن برى :

(أ) **الحريرى** : يقول ابن برى : « وفى هـذا البيت شاهد على صحة السلّ لأن ابن الحريرى ذكر فى كتابه : درة الغواص أنه من غلط العامة ، وصوابه عنده السّلال . ولم يصب فى إنكاره السلّ لكثرة ما جاء فى أشعار الفصحاء ، وقد ذكره سيبويه فى كتابه أيضاً .. » (١/١١٢) .

(ب) **ابن القطّاع** : يقول ابن برى : « وذكر الجوهرى شاهدا على حَلَبَة جمع حالب وهو قولهم : شتى تؤوب الحلبة ، وغيّره ابن القطاع فجعل بدل شتّى : حتى .. والمعروف هو الذى ذكره الجوهرى ، وكذلك ذكره الأصمعى وأبو عبيد .. » (١/٦٨) .

(ج) **المحدّثون** : قال ابن برى : « وأهمل أن يذكر بعد هذا الفصل (حنطب) وهى لفظة قد يصحفها بعض المحدّثين فيقول حنظب ، وهو غلط .. » (١/٦٥) .

(د) **أبو عبيد** : قال ابن برى : « لم يذكر السَّبْحَة بالفتح وهى الثياب من الجلود ، وهى التى وقع فيها التصحيف ، فقال أبو عبيد :

هى السَّبْجة بالجيم وضم السّين • وغلط فى ذلك إنما السبجة : كساء أسود • واستشهد أبو عبيد على صحـة قوله بقول مالك بن خويلد الهذلى وهو :

اذا عاد المسارح كالسِّباج

فصحف البيت أيضاً ، وهذا البيت من قصيدة حائية ••»(١/٢٤٤)•

(هـ) الأصمعى : قال ابن برى : « وذكر فى فصل (ش ت ت) شتّان ماهما •• قال : وقال الأصمعى : لا يقال : شتان ما بينهما ، وقول الشـاعر :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغـر بن حاتم

ليس بحجة ، إنما هو مولّد » ، وقد عقب بقوله : « وأما ما حكاه عن الأصمعى أنه لا يقال : شتان ما بينهما ، فليس بشىء ؛ لأنه قد جاء ذلك فى أشعار الفصحاء من العرب ، ومن ذلك قول أبى الأسود الدؤلى •• ومنه قـول البعيث •• وقـال آخـر •• وقـال الأحوص •• » (١/١٦٦ ، ١٦٧) •

ثانيا : نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ ، وتوجد منه نسخة مصورة بمكتبة مجمع اللغة العربية بالقاهرة • وقد تتبع الصفدى الجوهرى فى أوهامه الصرفية والاشتقاقية والتصحيف وسوء التعبير والخطأ فى التفسير • ويبدو أن معظم مآخذ الصفدى منقولة عن ابن برى ولذلك يقول بعضهم : « قلد فيه ابن برى ، فلا يكاد يذكر مسألة من عنده إلا بعض أدبيات والاستدلال ببعض الأبيات » [١] •

اما كتب الدفاع فأشهرها الوشاح وتثقيف الرماح فى رد توهيم

(١) انظر حسين نصار : المعجم العربى ٢/٥٢٦ ، ٥٢٧ •

المجـد الصحاح لعبد الرحمن بن عبد العزيز المغربى نزيل مكة وأحـد مدرسيها [١] •

وأما التذييل والتعليق فقد تمثلا أحسن تمثيل فى كتاب الحسن بن محمـد بن الحسن الصغانى [٢] فى كتابـه المسمى « التكملة والذيل والصلة » ، وقد طبعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة • وذكر المؤلف فى مقدمته ما نصه : « هذا كتاب جمعت فيه ما أهمله أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى رحمه الله فى كتابه وذيلت عليه وسميته كتاب التكملة والذيل والصلة غير مدع استيفاء ما أهمله واستيعاء ما أغفله » • ويتلخص جهد الصغانى فى هذا الكتاب فى النقاط الآتية :

١ ـــ إيراد المواد التى أهملها الجوهرى •

٢ ـــ إيراد الصيغ والألفاظ والمعانى التى أهملها الجوهرى فيما ذكره من مواد •

٣ ـــ تكملة الشواهد الشعرية أو إصلاح مابها من خلل أو تصحيف أو تصويب اسم قائل الشاهد الشعرى •

٤ ـــ نقد الاستشهاد ببعض الأحاديث الضعيفة •

٥ ـــ تصحيح الأخطاء المتعلقة بالتصرف أو التفسير [٣] •

وأما **المختصرات** فمنها :

(أ) ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح للزنجانى (ت ٦٥٦ هـ) ووقع حجمه موقع الخمس من الصحاح •

---

(١) وقد طبع على هامش الصحاح (طبعة بولاق ١٢٩٢ هـ) •
(٢) توفى عام ٦٥٠ هـ •
(٣) انظر المعجم العربى لحسين نصار ٥١٣/٢ وما بعدها •

(ب) تهذيب الصحاح للمؤلف السابق • قال فى مقدمته : « ثم نظرت نظرا ثانيا فرأيت همم بنى الزمان ساقطة •• فأوجزته إيجازا ثانيا حتى وقع حجمه موقع العشر من كتاب الجوهرى [1] • وقد طبع الكتاب بتحقيق الأستاذين هارون والعطار •

(ج) مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من علماء القرن السابع الهجرى • قال فى مقدمته : « هذا مختصر فى علم اللغة جمعته من كتاب الصحاح •• لما رأيته أحسن أصول اللغة ترتيبا وأوفرها تهذيبا وأسهلها تناولا وأكثرها تداولا •• واقتصرت فيه على ما لابد لكل عالم فقيه أو حافظ أو محدث أو أديب من معرفته وحفظه » •

وقد أعيد ترتيبه على نظام أساس البلاغة مؤخرا وحذف منه مالا يناسب الطلاب • وقام بإعادة ترتيبه وتهذيبه الأستاذ محمود خاطر وراجعه الشيخ حمزة فتح الله •

أما ترجمات الصحاح فسنتحدث عنها فى الباب الثالث : قضية التأثير والتأثر •

العباب للصغانى (العباب الزاخر واللباب الفاخر) :

هذا ثانى [2] عمل معجمى يقدمه الصغانى ، وقد سبق الحديث عن « التكملة » • ويتميز هذا العمل باستقلاله وتحرره من صحاح الجوهرى • وقد ألفه فيما بين سنتى ٦٤٣ و ٦٥٠ ، ومات المؤلف دون أن يتمه إذ وصل الى مادة « بكم » [3] فقط •

---

(١) مقدمة تهذيب الصحاح للزنجانى ، ص ٤ •

(٢) ترك الصغانى عملا لغويا ثالثا هو « مجمع البحرين » فى ١٢ مجلدا جمع فيه بين الصحاح والتكملة •

(٣) ومع ذلك تذكر بعض المراجع أنه فى عشرين مجلدا •

وقد ظل العباب حبيس خزائن الكتب حتى تصدى لتحقيقه ونشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، فنشر حرف الهمزة عام ١٩٧٧ ثم حرف الطاء عام ١٩٧٩ ثم حرف الغين عام ١٩٨٠ ••• وقد علل المحقق لجوءه الى نشر قطع متفرقة من الكتاب باختلاف قطع الكتاب المتفرقة وأشلائه الموزعة بين :

(أ) ما كتب بخط المؤلف ، ويتصف بالدقة والإتقان والضبط الكامل •

(ب) ما نقل من أصل المؤلف وعليه خطه وتصويباته •

(ج) ما خط بأقلام عدد من الناسخين الذين لم يسلموا من الوقوع فى الغلط •

ولهذا رأى أن يبدأ « بنشر القطع المكتوبة بخط المؤلف » ولم يجد ضيرا فى انعدام التسلسل « مادامت كل قطعة منها تشكل حرفا مستقلا » •

وقد احتل عباب الصغانى مكانة عالية بين المعاجم حتى اعتبر أحد المعاجم اللغوية الرئيسية التى لا يستغنى الباحث والدارس عن الرجوع إليها • فقد اعتبر الفيروزابادى فى مقدمة معجمه « القاموس » محكم ابن سيده وعباب الصغانى غرّتى الكتب المصنفة فى هذا الباب • ويرى السيوطى أن أعظم الكتب اللغوية بعد الصحاح : المحكم والعباب •

وقد قدم المؤلف لمادة معجمه بمقدمة تحدثت عما يأتى :

١ — اشتمال الكتاب على ما تفرق فى كتب اللغة المشهورة والتصانيف المعتبرة المذكورة وما بلغه مما جمعه علماء هذا الشأن والقدماء الذين شافهوا العرب العرباء وساكنوها فى داراتها ، وسايروها فى نقلها من مورد الى مورد ومن منهل الى منهل •

٢ — استشهاده بالقرآن والحديث النبوى والفصيح من الأشعار والسائر من الأمثال •

٣ — ذكره أسامى جماعة من أهل اللغة لا غنى بممارس هذا الكتاب وسائر كتب اللغة عن معرفتها .

٤ — تفاخره بدقته وبنخله الكتب المتداولة ، ونقده للغويين السابقين مثل الأزهرى والجوهرى وابن فارس وابن السكيت والصاحب بن عباد . وقد قسا المؤلف على الأخير منهم قائلا : « وأما الصاحب بن عباد فإن كتابه المسمى بالمحيط لو قيل إنه أحاط بالأغلاط والتصحيفات لم يبعد عن الصواب . وكأن علماء زمانه خافوا أنهم لو نطقوا بشىء منها قطع رسومهم وتسويغاتهم فلبوا نداءه ، وأمنوا على دعائه ونجوا بالصمت » .

لسان العرب لابن منظور :

يعد لسان العرب من أضخم المعجمات العربيـــة — إن لم يكن أضخمها — على الإطلاق ومؤلفه هو عبد الله محمد بن مُكَرَّم بن على ابن أحمد الأنصارى ، من نسل رويفع بن ثابت . وتتنازع ابن منظور أقطار عربية هى تونس وليبيا ومصر . وقد حققت فى بحث لى حول ابن منظور أن صلة ابن منظور بليبيا تنحصر فى أن جده الأعلى رويفع بن ثابت الصحابى ولى طرابلس إبان حــكم معاوية وغزا منهـــا إفريقية سنة ٤٧ هـ . أما النسبة « الطرابلسّى » التى وردت فى بعض المراجع فهى نسبة الى طرابلس الشـــام (لا طرابلس الغرب) فقد ولى ابن منظور القضاء فى هذه المدينة بعد أن استردها السلطان قلاوون من أيدى الصليبيين عام ٦٨٨ .

ومن الثابت تاريخيا أن ابن منظور ولد بمصر وترعرع بها ، ومن الثابت كذلك أنه ولى ديوان الإنشاء بمصر مدة طويلة عبر عنها المؤرخون بقولهم « طول عمره » ، كما كانت وفاة ابن منظور بمصر . ولذا فإن من الأقرب اعتباره مصريا اذا أصررنا على نسبته الى إقليم بعينه ، والأفضل

نسبته الى أفريقية [١] ومصر كما جاء فى كتب التراجم « الإفريقى المصرى » ، أو عدم نسبته الى إقليم بعينه لكثرة أسفاره وتنقلاته على عادة العلماء فى ذلك العصر •

وقد اعتمد ابن منظور أكثر ما اعتمد على مصادر خمسة هى تهذيب اللغة للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهرى ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير • وذكر فى مقدمة معجمه أن كتابى الأزهرى وابن سيده وعرا المسلك عسرا المطلب ، وأنه لذلك فضل أن يرتب معجمه ترتيب الصحاح فى الأبواب والفصول ، لسهولة منهجه وبساطة ترتيبه •

وليس هناك ما يميز معجم ابن منظور عن غيره من المعاجم التى سلكت فى ترتيبها نظام الباب والفصل سوى توسعه فى الشرح وإفاضته فى ذكر أسماء الرواة والعلماء واللغويين والنحويين ، وكثرة شواهده وتنوعها •

وقد ولد ابن منظور سنة ٦٣٠ هـ ، وتوفى عام ٧١١ هـ ، وطبع معجمه عدة طبعات أولاها فى بولاق بمصر عام ١٣٠٠ هـ ، وتقع فى عشرين مجلداً ، والثانية فى لبنان وتقع فى ٦٥ جزءاً صغيراً • ثم قامت دار لسان العرب ببيروت بإصدار طبعة من لسان العرب بعد أن أعيد ترتيبها على حسب الأوائل ، وأضيف إليها المصطلحات العلمية التى أقرتها المجامع العلمية والجامعات العربية ، وزودت بالصور والرسوم والخرائط ، واختارت لهذه الطبعة اسم « لسان العرب المحيط » • وقد قام بإعداد هذه الطبعة وترتيبها السيدان : يوسف خياط ونديم مرعشلى •

---

(١) افريقية كانت تطلق على ما يطلق عليه اليوم — بالتقريب — تونس • وانظر مؤلفنا : النشاط الثقافى فى ليبيا ص ٢٢٧ — ٢٨١ — ومقالنا : ابن منظور اللغوى (مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد ١٨ — ٧٤ / ١٩٧٥) •

وما زلنا نطمح فى مزيد من الاهتمام بهذا المعجم فيتقدم أحد لإعادة ترتيب مادته داخلياً ، وإعداد فهارس متنوعة لمـادته [1] .

القاموس المحيط للفيروز آبادى :

أما الفيروز آبادى فهو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المولود بقرية كارزين قرب شيراز . وقد عرف باسم الفيروز آبادى نسبة الى قرية فيروز آباد من قرى فارس ومنها والده وجده . وكان مولده عام ٧٢٩ هـ ووفاته عام ٨١٦ أو ٨١٧ هـ .

وقد ذكر الفيروز آبادى فى مقدمة معجمه السبب فى وضعه هـذا المعجم وأهم مميزاته فقال : « وكنت برهة من الدهر ألتمس كتابا جامعا بسيطا .. ولمـا أعيانى الطلاب شرعت فى كتابى الموسوم باللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب [2] .. وضممت إليهما زيادات .. غير أنى خمنته فى ستين سفرا يعجز تحصيله الطلاب . وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام . فصرفت صوب هذا القصد عنانى ، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد .. ولخصت كل ثلاثين سفراً فى سفر ، وضمنته خلاصة ما فى العباب والمحكم ، وأضفت إليه زيادات منّ الله تعالى بها .

نظامـه :

١ — رتبه المؤلف على نظام الباب والفصل ، وقد اشتمل على ٢٨

---

(١) نشر الدكتور ياسين الأيوبى (١٩٨٠) معجما لشعراء لسـان العرب ، وطبعته دار العلم للملايين ، وأصدرت دار المعارف بمصر الجزء الأول من فهارس اللسان (١٩٨٤) . ويقوم الدكتور خليل عمايرة باعداد فهارس تفصيلية للسان باستخدام الكومبيوتر . كما قدم الدكتور على حلمى موسى احصاءات بمواد لسان العرب .

(٢) المحكم لابن سيده ، والعباب للصغانى .

بابا (١) غير أنه قدم باب الهاء على باب الواو والياء . وأما فى الفصول فالواو مقدمة على الهاء وهى قبل الياء .

٢ — التزام الاختصار والتركيز ما أمكن . وفى سبيل ذلك :

(أ) حذف الشواهد إلا ما ندر .

(ب) حذف أسماء الرواة واللغويين .

(جـ) استخدم الرموز الآتية :

(ع) وتعنى موضع ، و (د) وتعنى بلد ، (ة) وتعنى قرية ، و (ج) وتعنى جمع ، و (جج) وتعنى جمع الجمع ، و (م) وتعنى معروف ، و (و) وتعنى واوى ، و (ى) وتعنى يائى .

(د) ترك القياسى والمطرد .

(هـ) لم يذكر المؤنث مرة ثانية بعد ذكر المذكر بل اكتفى بقوله : وهى بهاء أى أنثى هذا المذكر بهاء .

(و) ترك النص على عين المضارع اذا كان الفعل من باب فعَل يفعُل (بفتح فضم) واكتفى بذكر الماضى .

(ز) ما كان مفتوح الأول جرده من الضبط وما جمع الى ذلك فتح الثانى وصفه بقوله : محركة .

٣ — تخليص الواو من الياء — وهذا قسم على حد تعبير الفيروزابادى — يسم المصنفين بالعى والإعياء .

٤ — أنه لم يكن — زيادة فى الضبط — يكتفى بذكر الحركة وإنما يذكر المثال كقوله : « رأب الصدع كمنع أصلحه » ، فهى كمنع فى الضبط

---

(١) ضم الفيروزابادى الواو والياء فى باب واحد وعقد بابا للألف اللينة وضع تحته كلمات مثل اذا — الى — الا ...

لا فى المعنى • وكقوله « والقبقب البطن ، وبالكسر صدف بحرى ، وكغراب أطم (١) بالمدينة •• وككتاب ع بسمرقند » •

بين الفيروزابادى والجوهرى :

من يقرأ مقدمة القاموس يحس بأن الفيروزابادى وضع نصب عينيه صحاح الجوهرى ، وأنه أراد أن يتفوق عليه ، وأن ينتزع الإعجاب الذى ناله الصحاح منذ ظهوره وعلى امتداد أربعة قرون • ولهذا جعل الفيروزابادى من أهدافه فى معجمه :

١ — زيادة مادته على مادة الصحاح ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهرى — وهو جدير بذلك — غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر إما بإهمال المادة ، أو بترك المعانى الغريبة النادة — أردت أن يظهر للناظر بادىء ذى بدء فضل كتابى هذا عليه ، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه •• ولم أذكر ذلك إشاعة المفاخر ، بل إذاعة لقول الشاعر : كم ترك الأول للآخر » (٢) •

٢ — تصويب أخطاء الجوهرى ورد أوهامه ، وعبر عن ذلك بقوله : « ثم إنى نبهت فيه على أشياء ركب فيها الجوهرى رحمه الله خلاف الصواب غير طاعن فيه ، ولا قاصد بذلك تنديدا له ، وإزراء عليه ، وغضا منه بل استيضاحا للصواب ، واسترباحا للثواب ••• واختصصت كتاب الجوهرى من بين الكتب اللغوية مع ما فى غالبها من الأوهام

---

(١) الأطم : الحصن والبيت المرتفع •

(٢) ومع ذلك استدرك العلماء على الفيروزابادى كثيرا من المادة ، يقول السيوطى : فاته أشياء ظفرت بها فى أثناء مطالعتى حتى هممت أن أجمعها فى جزء : ويقول آخر انه هناك من يعتقدون أن « القاموس قد أحاط باللغة » ولذا أراد « التنبيه على بطلان هذا الزعم بذكر شىء مما فاته » (انظر : ابن الطيب الفاسى للبواب ، ص ١٢٣) • وسيأتى ذكر لتكملة الزبيدى لقاموس الفيروزابادى •

الواضحة ، والأغلاط الفاضحة ، لتداوله واشتهاره بخصوصه ، واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه » .

أما بالنسبة لزيادات الفيروزابادى فقد استعاضت المطبعة عن الحمرة بخط ممتد يوضع فوق المادة الزائدة . وتبدو الزيادات كثيرة من النظرة السريعة لكثرة الخطوط وشمولها معظم الصفحات ، وتكررها فى كثير منها .

ولم يقم أحد من الباحثين بإحصاء يبين عدد الجذور التى يحتويها القاموس المحيط لمقارنتها بجذور معجم الصحاح وتحديد نسبة الزيادة ، ولكن قدم الدكتور على حلمى موسى الإحصاء التالى المتعلق بالصحاح واللسان وتاج العروس ، كما قدم الدكتور محمد مصطفى رضوان إحصاء بمجموع مواد القاموس . وهما كما يأتى [١] :

المعجم	ثلاثى	رباعى	خماسى	المجموع
التاج	٧٥٩٧	٤٠٨١	٣٠٠	١١٩٧٨
اللسان	٦٥٣٨	٢٥٤٨	١٨٧	٩٢٧٣
الصحاح	٤٨١٤	٧٦٦	٣٨	٥٦١٨
القاموس المحيط	—	—	—	١٠٣٤٣

ولا يغرب عن البال أن زيادات المواد أو الجذور ليست هى كل زيادات القاموس على الصحاح ، لأن التوسع فى الشرح ، وذكر معان جديدة للجذر يمثل نسبة كبيرة من زيادات الفيروزابادى .

ويكفى لبيان فضل الفيروزابادى فى هذا أن أشير الى أن بعضا من مادة القاموس لم يرد حتى فى لسان العرب برغم اعتبار الأخير واحدا من أضخم المعاجم العربية على الإطلاق . ويكفى أن أمثل بالمثال الآتى — وقد

---

(١) ايظر احصاءات جذور معجم لسان العرب ص ٩٣ ودراسات فى القاموس المحيط صفحتى ٩٦ ، ٩٧ .

عثرت عليه بطريق المصادفة — فقد أهمل ابن منظور فى مادة (لجن) ذكر كلمة « لجنة » ومعناها ، وقد ورد فى القاموس ما نصه : « واللجنة الجماعة يجتمعون فى الأمر ويرضونه » •

وأما بالنسبة لمآخذ الفيروزابادى على الجوهرى فبعضها يسلم له ، وبعضها يسلم للجوهرى ، وبعضها لا يعد أحد الرأيين فيه أفضل من الآخر • وقد تتبع كثير من العلماء هذه الأوهام بالتعليق والدراسة ، ويبدو أن تعاطفهم كان متجها الى الجوهرى ولذا ألفت الكتب فى الانتصار له ، ولا أعرف كتابا واحدا ألف للانتصار للفيروزابادى •

فمما أخذه الفيروزابادى على الجوهرى ولا يمكن الدفاع فيه عن الجوهرى •

١ — قال فى القاموس (شاد) : « شاد الحائط يشيده طلاه بالشيد وهو ما طلى به حائط من جص ونحوه • وقول الجوهرى : من طين أو بلاط — بالباء — غلط ، والصواب ملاط بالميم لأن البلاط حجارة لا يطلى بها وإنما يطلى بالملاط وهو الطين » •

٢ — قال فى القاموس (صعر) : « والصيعرية اعتراض فى السير ، وسمة فى عنق الناقة لا البعير ، وأوهم الجوهرى بيت المسيب الذى قال فيه طرفة لما سمعه : قد استنوق الجمل » •

وقد حاول ابن الطيب الفاسى أن يعتذر عن الجوهرى بقوله : إنه أراد بالبعير الأنثى [1] ، والتكلف واضح فى هذا الدفاع •

أما بيت المسيب الذى أشار إليه الفيروزابادى فهو :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

---

(١) اضاءة الراموس ٣/١٠٩ •

٣ — قال فى القاموس (نوف) : « وأناف عليه زاد كنيّف • وأفرد الجوهرى له تركيب (ن ى ف) وهْماً • والصواب ما فعلنا لأن الكل واوى » •

ومما أخذه الفيروزابادى على الجوهرى دون وجه حق :

١ — جاء فى القاموس (بهت) « وقول الجوهرى : فابهتى عليها أى فابهتيها لأنه لا يقال بهت عليه — تصحيف ، والصواب فانهتى عليها بالنون لا غير » •

والفيروزابادى يشير الى قول أبى النجم :

سبى الحماة وابهتى عليها ثم اضربى بالود مرفقيها

وقد تكفل صاحبا « إضاءة الراموس » و « الوشاح » بالرد على الفيروزابادى •

فقال الأول : إن كانت الرواية فابهتى ثابتة فلا يلتفت لدعوى التصحيف لأنها فى مثله غير مسموعة •• وإن لم تثبت الرواية كما قال وصحت الرواية معه ثبت هذا التصحيف حينئذ بالنقل لا لأنه لا يقال •• وليس عندى جزم فى الرواية حتى أفصل قوليهما •• وإنما ادعاء التحريف بمجرد أنه لا يتعدى « بهت » « بعلى » دعوى خالية عن الحجة (١) •

وقال الثانى : قوله بالنون لا معنى له هنا لأن نهت لازم لايتعدى ولا بحرف الجر ، يقال نهت ينهت •• والنهيت الزئير • وقد أقر ابن برى كلام الجوهرى ولم يتعقبه من جهة المعنى وقال : إنما عدى بعلى لأنه بمعنى افترى (٢) •

٢ — جاء فى القاموس (كتب) : « والكتاب » كرمان : الكاتبون •

(١) اضاءة الراموس ٧٧/٢ •
(٢) الوشاط ص ٣٦ والتنبيه لابن برى — مادة « بهت » •

والمكتب كمقعد موضع التعليم • وقول الجوهرى : الكتاب والمكتب واحد غلط » •

وما جاء فى الصحاح صحيح ، فقد قال الخليل : المكتب بضم الميم : المعلم ، والكتاب مجمع صبيانه • وذكر الأزهرى أن الكتاب اسم المكتب الذى يعلم فيه الصبيان •

وقال صاحب الوشاح : العبارة فى غاية الصواب •• وفى مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قرأت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة فى الكتاب (١) •

٣ — جاء فى القاموس (مزج) : « المزج الخلط والتحريش ، وبالكسر اللوز المر كالمزيج والعسل • وغلط الجوهرى فى فتحه أو هى لغية » •

وقد تكفل الفاسى بنقض ذلك فقال : لا غلط فى الفتح ، فهو الذى جزم به غيره وصرح به الفيومى ، وقال : سمى العسل مزجا لأنه يخلط بالشراب • وبالفتح روى بيت أبى ذؤيب :

وجاءوا بمزج لم ير الناس مثله هو الضحك إلا أنه عمل النحل

وهو الذى قاله أبو حنيفة وغيره ، فلا معنى لقوله : أو هى لغية به هى لغة مكبرة صحيحة ثابتة نقلها الأثبات (٢) • وقد اقتصر الخليل فى العين على الفتح •

وقد رد بعضهم مافى الصحاح من أوهام الى أن الجوهرى مات وترك الكتاب مسودة فبيضه تلميذه أبو إسحاق الوراق بعد موته فغلط فيه فى عدة مواضع • وسئل الميدانى عن الخلل الواقع فى الصحاح فقال :

---

(١) انظر العين ، والتهذيب ، واضاءة الراموس ٣/٢ ، والوشاح ص ٣٤

(٢) اضاءة الراموس ٢١٩/٢ •

إنه قرئ عليه الى باب الضاد فحسب وبقى أكثر الكتاب على سواده • ولم يقدر له تنقيحه ولا تهذيبه • قال ومن زعم أنه سمع من الجوهرى شيئا من الكتاب زيادة على باب الضاد فقد كذب (١) •

إضاءة الراموس (٢) لابن الطيب الفاسى (٣) :

يعد إضاءة الراموس موسوعة لغوية فريدة ، ومع ذلك ما يزال مخطوطا لم ير النور بعد برغم تعدد نسخه فى مكتبات العالم • ومؤلفه ابن الطيب الفاسى من أعلام المغرب ، وقد ولد عام ١١١٠ هـ من أسرة متمسكة بالدين حريصة على العلم ، وتوفى عـــام ١١٧٠ هـ فى المدينـــة المنورة حيث دفن •

ويفصح المؤلف منذ البداية عن استنكاره لموقف الفيروزابادى من الجوهرى ويصرح بأن الدفاع عن الجوهرى كان من أسباب تأليف هذا الكتاب : « وفى أثناء القراءة والإقراء •• رأيت المجد الشيرازى يكثر فى قاموسه من الاعتراضات على الصحاح •• ويتابع فى الرد ، ويأتى بالتنديد الذى لا يحمله ســـد ، ورأيت بعض المدعين يقلدونه فى كلامه ، ويعتقدون — لقصورهم — تصويب اعتراضاته عليه وملامه •• فلما رأيته أكثر من التنديد عليه ، وبالغ فى عزو الأوهام إليه ، انتصرت لأبى نصر •• وجعلت أرد ما يورده مشروحا فى شرحى لمصنفات اللغة وأتعقبه فى الدروس أكمل التعقيب وأبلغه • فلمـــا وقف على ذلك أشياخنا الأساتذة وأصحابنا الجهابذة تاقت نفوسهم الى جمع ذلك فى تعليق مستقل » •

وقد بدأ المؤلف متحمسا فى الأبواب الأولى من كتابه (الهمزة الى

---

(١) انظر شرح ديباجة القاموس للشيخ نصر الهورينى ، ص ٣٨ •

(٢) الراموس : القبر • ويعرف الكتاب كذلك باسم شرح القاموس أو حاشية القاموس •

(٣) اعتمدنا فى كتابة هذه النبذة على رسالة الدكتوراه (مخطوطة) المعنونة : ابن الطيب الفاسى وأثره فى المعجم العربى للدكتور على حسين البواب •

الراء) فتوسع واستفاض فى الشرح والتعقيب ، ولم يهمل أى فصل من فصول القاموس ، ثم فتر حماسه بعد ذلك حتى اكتفى فى القسم الأخير بتعليقات بسيطة ، واقتصر على أقل الألفاظ .

وقد لخص الدكتور على البواب جهود ابن الطيب الفاسى فى النقاط الآتيـــة [١] :

١ — الشرح بمعناه الواسع الذى يشمل الضبط والتفسير والاستشهاد وغير ذلك .

٢ — الاستدراك [٢] .

٣ — النقد [٣] .

٤ — زيادات الفيروزابادى على الجوهرى .

٥ — انتقادات الفيروزابادى للجوهرى .

ويلاحظ فى المعجم ميل المؤلف الظاهر نحـــو الجوهرى ، وتعصبه المطلق له ، وتحامله الواضح على الفيروزابادى ، مما جعله يتهمه بالتقصير والغموض والخطأ والوهم وغيرها من التهم .

وقد خلف ابن الطيب الفاسى تلامذة نابهين كان أشهرهم الزبيدى مؤلف تاج العروس التالى :

---

(١) صفحة ١٥١ من الرســالة .

(٢) لاحظ أنه اراد بذلك الرد على ادعاء الفيروزابادى الاحاطة . ولهذا نرى الفاسى يعلق وهو يستدرك على الفيروزابادى تعليقات مثل : « وهو قصور بالغ » و « واغفله مع شدة تتبعه للصحاح » و « وقد اغفل المصنف اكثر من نصفها .. وهو غاية فى القصور فى جنب دعوى القاموس المحيط بجميع الأمور » .

(٣) شمل ذلك نقد الضبط والشرح واخطاء الوزن والترتيب والخروج على الاصطلاح والحشـــو .

تاج العروس للزبيدى :

اشتهر الزبيدى باسم السيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى . وقد ولد بإحدى مدن الهند عام ١١٤٥ هـ ، ثم ارتحل الى زبيد باليمن حيث درس بها ثم غادرها وهو فى السابعة عشرة من عمره . وفى سنة ١١٦٧ هـ هاجر الى مصر واستقر بها الى ان توفى عام ١٢٠٥ هـ .

وقد التقى الزبيدى بأستاذه الفاسى فى المدينة المنورة وتتلمذ عليه هناك ، وتلقى عليه القاموس المحيط وشرحه سماعا ومشافهة ، ووضع نسخة من حاشية ابن الطيب الفاسى بين يديه وهو يؤلف التاج (١) .

ولم يترك الزبيدى مناسبة إلا أشاد بأستاذه وشيخه كقوله : « وهو عمدتى فى هذا الفن والمقلد جيدى العاطل بحلى تقريره المستحسن » ، « ولعمرى لقد جمع فأوعى ، وأتى بالمقاصد ووفى » . وكان اذا قال فى تاج العروس « شيخنا » — وما أكثر ما قالها — فإنه يعنى ابن الطيب الفاسى (٢) .

وقد ذكر المؤلف الهدف من تأليف هذا الكتاب فقال : « كتاب القاموس المحيط .. أجل ما ألف فى الفن .. ولما كان إبرازه فى غاية الإيجاز ، وإيجازه عن حد الإعجاز تصدى لكشف غوامضه ودقائقه رجال من أهل العلم [فكرت] فى وضع شرح عليه ممزوج العبارة جامع لمواده .. واف ببيان ما اختلف من نسخه والتصويب لما صح منها من صحيح الأصول » . وتقول المراجع إن الزبيدى بعد أن أنجز من التاج الى آخر حرف الدال أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم بمصر وأطلعهم عليه فاغتبطوا به وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه .

واذا كان الزبيدى قد ترسم خطى أستاذه الفاسى فى جميع مراحل

---

(١) ابن الطيب الفاسى ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، عدنان الخطيب ، ص ٤٣ .
(٢) ابن الطيب الفاسى ، ص ٢٩٠ .

منهجه ، فقد خالفه فى حملته الشديدة على الفيروزابادى حيث خفف كثيرا من حدتها وتجنب استعمال العبارات الجارحة .

وكانت طريقة صاحب التاج أن يضع عبارة القاموس المحيط بين قوسين ثم يورد شروحه وأقواله واستشهاداته وتعليقاته خارج الأقواس ، محاولا الملاءمة بين ما يقوله وما هو من كلام القاموس حتى لا ينقطع السـياق .

وبرغم أن « تاج العروس » شرح للقاموس فلقد ظهرت شخصية الزبيدى فيه الى حد جعله يفوق مجرد شرح أو تعليق ، ويعتبره اللغويون كتابا مستقلا ، ومعجما قائما بذاته (1) . وقد ختم الزبيدى بمعجمه هذا عهد المعجمات المطولة ، ورجع فى تأليفه الى حـوالى خمسمائة مرجع ذكر أهمها فى مقدمته .

وتشمل إضافات الزبيدى على القاموس ما يأتى :

١ ــ ذكر الشواهد التى أغفلها القاموس .

٢ ــ رد بعض الاقتباسات الى أصولها أو مصادرها الأولى .

٣ ــ الاستدراك على الفيروزابادى فيما أغفله من مواد أو كلمات أو معان . وكان من عادة المؤلف أن يختم المـادة بما استدركه قائلا : ومما يستدرك عليه .

وقد تم طبع تاج العروس عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) بعد محاولة بدأت سنة ١٢٨٧ هـ (2) . ويعاد طبعه الآن بالكويت طبعة علمية محققة وصلت عام ١٩٨٦ الى الجزء الثالث والعشرين .

---

(1) عبد الله درويش : المعاجم العربية ص ١٠٧ ، وحسين نصار : المعجم العربى ٢/٦٣٩ وما بعدها .

(2) عدنان الخطيب ص ٤٦ .

التكملة والذيل والصلة للزبيدى :

ألف الزبيدى هذا الكتاب ليستدرك ما فات صاحب القاموس من اللغة « إبطالا لما يعتقده كثير ممن لا توغل له فى هذا الشأن أن صاحب القاموس قد أحاط باللغة »[1] وهو بهذا يحاكى الصاغانى فى تكملته على الصحاح .

وقد ظلت التكملة مخطوطة حتى طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزءين الأول والثانى منها بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازى (١٩٨٦) ، وقد وصل الجزءان الى نهاية حرف الجيم .

ويشبه منهج الزبيدى فى هذا الكتاب منهج الصاغانى فى تكملته على الصحاح فهو مثله :

١ — ينسب ما يورده — مما فات صاحب القاموس من اللغة — الى قائليه من اللغويين وأصحاب المعاجم .

٢ — ويعزو ما ينقله الى مصدره كالصحاح واللسان والأساس .

٣ — ويتعقبه فيما وقع فيه من خطأ أو وهم . وكانت طريقته فى ذلك إيراد عبارة القاموس مسبوقة بقوله : « وقول المصنف كذا ... » ثم التعقيب على ذلك بقوله : « خطأ ، أووهم صوابه : كذا » ثم يتبع ذلك بالنقول والشواهد التى تؤيد ما ذهب إليه[2] .

وقد ألفه بعد فراغه من معجمه تاج العروس ، وقد ذكر ذلك فى مقدمة التكملة حيث يقول : « فإنى لما فرغت من شرحى على كتاب القاموس .. وتعقبت فيه البحث عن عواره ، والكشف عن مخبآت أسراره ، وبيان غامضه ومشكله ، وتقييد مبهمه ومهمله ، والتنبيه على

---

(١) ص ٧١ .
(٢) ص ١٢ ، ١٣ .

ما وقع فيه من اختلال فى بعض سياقاته ، وحل تعقيد فى طىّ عباراته ، وكنت ذكرت عقيب كل تركيب ما فاته من اللغات •• فكان يختلج فى البال إفراد ذلك فى تأليف على الاستقلال •• » (١) •

(جـ) مدرسة الترتيب بحسب الأبنية

مدخل :

يلاحظ أن جميع المعاجم التى سبق ذكرها قد رتبت بحسب الحروف الساكنة (أو ما يمكن أن يسمى بالصوامت أو السواكن consonants) دون اعتبار الحركات (أو ما يمكن أن يسمى بالصوائت أو العلل vowels) سواء فى ذلك ما قام بتجريد الكلمة من الزوائد — وهو النوع الغالب — أو ما وضع الكلمات تحت حرفها الأول دون تجريدها من الزوائد •

أما هذا النوع من المعاجم الذى سميناه بمعاجم الأبنية فقد كان نوعا فريداً فى بابه إذ راعى فى ترتيب الكلمات الحركة الى جانب الصوت الساكن • ولكنه — من سوء الحظ — لم يكتب له الشيوع والشهرة نظرا لتعقد نظامه وتركبه من خطوات عدة •

وعلى الرغم من أن أول معجم كامل اتبع نظام الأبنية قد ظهر فى القرن الرابع الهجرى على يد مؤلف من تركستان ، من إقليم فاراب اسمه أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابى — فقد تمت محاولات كثيرة لدراسة أبنية اللغة العربية وترتيبها منذ بدأ التفكير اللغوى عند العرب • وقد مهدت هذه المحاولات الطريق ، ويسرت السبيل أمام ظهور فكرة المعجم الكامل • وربما كان من المفيد — من أجل هذا — أن نقسم البحث فى معاجم الأبنية الى نقطتين أساسيتين نتناول فى أولاهما مرحلة التمهيد ، أو وضع اللبنات الأولى ، ونتناول فى ثانيتهما مرحلة المعجم الكامل ، وأشهر المعاجم التى اتبعت هذه الطريقة •

---

(١) ص ٧١ •

أولا — مرحلة التمهيد :

بدأ التأليف فى الأبنية على أيدى النحاة ، وقد كان « سيبويه أول من ذكرها وأوفى من سطرها » [١] ، ولذلك أفرد لها فى كتابه أبوابا جمع فيها ما عرفه من أبنية اللغة العربية وقسمها تقسيما كميا ، مع فصل أبنية الأسماء عن الأفعال ، ومثل لكل نوع منها • وقد ذكر للأسماء ٣٠٨ بناء بين ثلاثى مجرد ومزيد ، ورباعى مجرد ومزيد ، وخماسى مجرد ومزيد • وذكر للأفعال ٣٤ بناء بين ثلاثى مجرد ومزيد ورباعى مجرد ومزيد •

ومهد سيبويه لكلامه عن الأبنية بمقدمة تحدث فيها عن أقل ما تكون عليه الكلمة وأكثر ما تصل إليه وحروفها أصلية أو مزيد فيها • ثم تحدث عن حروف الزوائد حرفا حرفا ، وذكر مواضع زيادة كل منها [٢] • ولم يكن من غرض سيبويه فى هذا البحث أن يحصر ألفاظ كل بناء ، وإنما كان غرضه يتجه الى حصر الأبنية والتمثيل فقط لكل منها •

وجاء النحاة بعد سيبويه فبهرهم هذا العمل ، وأثار إعجابهم • فلم يقدموا لنا فى الموضوع شيئا ذا بال ، وانحصر بحثهم فى ناحيتين :

الأولى : الاستدراك على سيبويه وإضافة بعض الأبنية التى تركها • وقد فعل ذلك ابن السراج الذى ذكر أبنية سيبويه وزاد عليها ٢٢ مثالا ، كما زاد أبو عمر الجرمى عليها أمثلة يسيرة ، ثم زاد ابن خالويه أمثلة يسيرة [٣] ، وزاد الزبيدى أكثر من ثمانين بناء [٤] •

والثانية : يمثلها المبرد الذى حـول البحث فى الأبنية الى عمليات تدريبية وافتراضات عقلية بدلا من أن يحاول القيام بعمل إيجابى • فهو

---

(١) ابنية الأسماء لابن القطاع ورقة ٢ •
(٢) كتاب سيبويه ، ٢/٣١٥ وما بعدها (طبعة بولاق) •
(٣) ابنية الأسماء لابن القطاع ورقة ٢ •
(٤) الاستدراك على سيبويه الزبيدى (ط روما سنة ١٨٩٠) ، ص ١ •

لم يبحث الأبنية بحثا عمليا يقوم على الاستقراء والتتبع ، وإنما أطلق لفكره العنان ، وأكثر من الفروض العقلية . ومن ذلك أنه عقد بابا باسم « هذا باب معرفة الأبنية وتقطيعها بالأفاعيل .. » قال فيه : « فإذا قال لك ابن من (ضرب) مثل (جعفر) فقد قال لك زد على هـذه الحروف الثلاثة حرفا ، فحق هذا أن تكرر لامه فتقول (ضربب) .. ولو قال لك ابن لى من (ضرب) على مثال (صمحمح) لقلت (ضربرب) » [(١)] .

ولكن من حسن حظنا أن اللغويين لم يدعوا النحاة وحدهم فى هذا الميدان يصولون ويجولون ، وإنما شاركوهم فيه ، وحولوا البحث فى الأبنية مرة أخرى الى بحث استقرائى تتبعى ، وإن اتجهوا فى البحث اتجاها آخـر ، فلم يعد هدفهم حصر الأبنية فقط — فهذا أمر قام به السابقون — وإنما اتجه الى محاولة حصر الألفاظ تحت كل بناء ، واتخذ ذلك مظهرين اثنين : فاتجه فريق الى أن يفردوا فى كتبهم اللغوية بحوثا خاصة بالأبنية ، واتجه فريق آخر الى التأليف فى الأبنية مؤلفات مستقلة .

أما الفريق الأول فلم تتسم بحوثه بطابع خاص ، وإنما اتخذت أشكالا متعددة . فمنها ما اهتم بأن يذكر من ألفاظ البناء ما يقع الاشتباه فيه ويدع ما عداها ، ومنها ما اهتم بذكر الأبنية التى تعدد ضبطها ، ومنها ما تعرض لبعض الأبنية — بدون ضابط وذكر ألفاظها ، ومنها ما اهتم بذكر الأبنية النادرة ، ومعظمها وجه عنايته لصيغتين من صيغ الأفعال هما « فعل وأفعل » . وقد حظيت هاتان الصيغتان باهتمام اللغويين جميعا حتى إن الكتب المبكرة التى ألفت فى الأفعال كانت تحمل اسم « فعل وأفعل » أو « فعلت وأفعلت » .

وأهم ما ألف فى هـذا الاتجاه « الغريب المصنف » لأبى عبيد ، و « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، و « أدب الكاتب » لابن قتيبة ،

---

(١) المقتضب للمبرد (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٩٠٩ — نحو) ، ص ٣٧ .

و « المنتخب لكراع النمل » ، و « الجمهرة » لابن دريد فى أبوابها الأخيرة .

وأما الفريق الثانى فلم يصل بمؤلفاته — حتى القرن الرابع الهجرى — الى مرتبة المعجم الكامل الذى يحصر الأبنية (سواء كانت للأسماء أو الأفعال) ويوزع تحت كل بناء ما يخصه من ألفاظ ، وإنما كانت مؤلفاته خاصة ببعض الأبنية دون بعض .

وانحصرت جهود اللغويين فى هذه الناحية فيما يأتى :

(أ) التأليف فى أبنية المصادر : وأول من ألف فى ذلك الكسائى (ت سنة ١٨٢ هـ أو سنة ١٨٣ هـ) ، ثم النضر بن شميل (ت سنة ٢٠٣ هـ) ، والفراء ، (ت سنة ٢٠٧ هـ) وخص كتابه بمصادر القرآن ، وأبو عبيدة (ت سنة ٢٠٩ هـ) ، والأصمعى (ت سنة ٢١٣ هـ) وأبو زيد (ت سنة ٢١٥ هـ) ونفطويه (ت سنة ٣٢٣ هـ) [١] .

(ب) التأليف فى أبنية الأفعال : ولا نعرف مؤلفا واحداً منها تعرض للأفعال جملة ، إذ لم يبدأ التأليف فى ذلك إلا بعد الفارابى (قرن ٤ هـ) الذى سنخصه بحديث مفصل فيما بعد .

وإنما نجدها تناولت صيغا خاصة من الأفعال ، ونجد صيغتين اثنتين من بين هذه الصيغ تجتذبان اهتمام اللغويين فيؤلفون فيهما ، وهما صيغتا « فعل وأفعل » . ومن أول من ألف فيهما قطرب (ت سنة ٢٠٦ هـ) والفراء ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد ، والزجاج (ت سنة ٣١١ هـ) وابن دريد (ت سنة ٣٢١ هـ) . وأقدم كتاب وصلنا منها هو « فعلت

---

(١) انظر الفهرست لأبى النديم (ط مصر ١٣٤٨) ص ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٨ — ١٠٠ ، ١٢١ ومعجم الأدباء (ط الحلبى) ٢٧١/١ ، ٢٧٢ ، ٢١٦/١١ ، ٢١٧ ، ٢٠٢/١٣ ، ٢٠٣ ، ٣٤٣/١٩ ، ١٣/٢٠ ، ١٤ .

وأفعلت » لأبى حاتم السجستانى (ت سنة ٢٥٥ هـ) [١] ، وقد حققه ونشره مؤخرا الدكتور خليل العطية .

(جـ) التأليف فى أبنية الأسماء : ولم أجد أحدا من اللغويين قد أفرد أبنية الأسماء بتأليف مستقل يقصد استيعابها ، ويعمد الى تنظيمها ويجمع ما تفرق منها ، ولكننى وجدتهم قد ألفوا فى شىء خاص منها وهـو « المقصور والممدود » . وممن ألف فى ذلك الفراء ، والأصمعى ، وأبو عبيد ، والزجاج [٢] وأبو على القالى (ت سنة ٣٥٦ هـ) ، وقد وصلنا كتاب أبى على القالى وما يزال مخطوطا .

ونخلص من كل هذا الى أن التأليف فى الأبنية فى مرحلته الأولى لم يأخذ صورة المعجم الكامل ، ولم يتجـه الى حصر المـادة اللغوية وتوزيعها على الأبنية . وهو الى جانب فقده عنصر الترتيب والنظام لم يصل الى أكثر من :

(أ) حصر الأبنية والتمثيل لكل منها .

(ب) العناية ببعض الأبنية ومحاولة حصر ألفاظها .

أى أنه فقد أهم عنصرين من عناصر المعجم الكامل وهما الشمول والترتيب .

ثانيا — مرحلة المعجم الكامل :

١ — ديوان الأدب للفارابى :

رائد هذه المرحلة هـو الفارابى اللغوى أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم المتوف سنة ٣٥٠ أو ٣٧٠ هـ ، وكان موطنه فاراب ، وهى مدينة

---

(١) انظر الفهرست ص ٧٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٠ ومعجم الادباء ١/١٥١ ، ١٢٦/١٨ ، ١٣٦ ، ٥٣/١٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٣/٢٠ ، ١٠٤ .

(٢) انظر كشف الظنون (ط استنبول ١٣٦٠ — ٦٢) ١٤٦١/٢ ، ١٤٦٢ .

وراء نهر سيحون • ويعتبر معجمه « ديوان الأدب » أول معجم جامع فى اللغة العربية ترتب مادته على حسب الأبنية ، أو باعتبار السواكن والعلل •

وقد قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بطبع هـذا المعجم بتحقيق المؤلف وظهر فى أربعة أجزاء يليها جزء خاص بالفهارس • ويتلخص نظام ديوان الأدب فيما يأتى :

(أ) قدم الفارابى لمعجمه بمقدمة شغلت من المطبوعة ثلاثا وعشرين صفحة [1] وتناولت مسائل عدة لغوية وتصريفية كما سنتحدث فيما بعد •

(ب) بعد المقدمة تجىء المادة اللغوية موزعة على أبوابها بحسب أبنيتها على النحو الذى شرحه فى مقدمته •

(ج) وذيل معظم أبواب الأفعال بأحكام تصريفية •

المقدمة : أما المقدمة فقد تناولت المسائل الآتية :

١ — تفضيل اللسان العربى على سائر الألسنة لأنه كلام جيران الله فى دار الخلد ، ولأنه المنزه من بين الألسنة عن كل نقيصة ، والمعلى عن كل خسيسة •

٢ — التعرض لأعمال اللغويين السابقين بصورة مجملة وتقسيمهم الى موجز وغير موجز ومعتدل بين المذهبين •

٣ — إدلاله بنفسه وفخره بمصنفه ، وذكره أنه عمل فى كتابه « عمل من طب لمن حب » وأنه لم يسبق الى هذا النظام ، أو يزاحم عليه •

٤ — ذكره الضابط العام الذى ينتظم كل ما حواه معجمه من مادة

---

(١) انظر ديوان الأدب بتحقيقى الجزء الأول ص ٧٠ — ٩٢ .

لغوية وهو أن يكون مستعملا ، وأن يذكره النحارير من علماء أهل الأدب فى كتبهم ، وأن يكون واردا فى قرآن أو حديث أو شـاهد من كلام العرب .

٥ — شرح منهج الكتاب .

٦ — التعرض لبعض الأحكام التصريفية التى تتعلق بنظام الكتاب كالحديث عن أقل الأبنية وأقصاها ، وعن حروف الزيادة ومواضعها ، وعن أبنية الأسماء مجردها ومزيدها واستعمالات كل بناء ، كقوله عن بناء « فَعْل » بفتح فسكون أنه يكون واحد فعول (قلب وقلوب) أو فعال (كلب وكلاب) أو أفعال (ثوب وأثواب) ، ويكون وصفا من الأفعال الدالة على الطبائع (ضخم) ، ويكون مصدرا لفعل المتعدى (ضرب) ويكون جمعاً لفعلة (تمرة) .

المـادة اللغوية : رتبت المادة اللغوية على النحو الآتى :

١ — قسم الفارابى معجمه ستة أقسـام أسماها كتبـا وهى على الترتيب الآتى :

(أ) كتاب السالم ، وعرفه بقوله : ما سلم من حروف المد واللين والتضعيف .

(ب) كتاب المضاعف ، وعرفه بقوله : ما كانت العين منه واللام من جنس واحـد .

(جـ) كتاب المثال ، وعرفه بقوله : ما كانت فى أوله واو أو ياء .

(د) كتاب ذوات الثلاثة ، وعرفه بقوله : ما كانت العين منه حرفا من حروف المد واللين (الأجوف) .

(هـ) كتاب ذوات الأربعة ، وعرفه بقوله : ما كانت اللام منه حرفا من حروف المـد واللين (الناقص) .

(و) كتاب المهموز ، وهو ما كان أحد أصوله همزة [١] •

٢ — جعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين : أسماء وأفعالا [٢] وقدم الأسماء فى كل كتاب على الأفعال •

٣ — قسم كل شطر منهما الى أبواب بحسب التجرد والزيادة • ففى الأسماء بدأ بالثلاثى المجرد ثم مالحقته الزيادة فى أوله (أصبع ومذهب) ثم المثقل الحشو (المزيد بالتضعيف) وذلك مثل (حِمَّص) ، ثم مالحقته الزيادة بين الفاء والعين (طابَع) ، ثم مالحقته الزيادة بين العين واللام (سحاب) ثم مالحقته الزيادة بعد اللام (خدبّ) ، ثم الرباعى وما ألحق به (ثعلب) ، ثم الخماسى وما ألحق به (جرْدَحْل) • وفى الأفعال بدأ بالثلاثى المجرد (ثَقَب) ، ثم مالحقته الزيادة فى أوله من غير ألف وصل وهى الهمزة (أترب) ، ثم المثقل الحشو (رتّب) ، ثم مالحقته الزيادة بين الفاء والعين (جاذب) ، ثم الأبواب الثلاثة التى فى أولها ألف وصل (اجتذب — انسحب — استصعب) ثم مالحقته الزيادة فى أوله وهى التاء مع تثقيل حشوه (تكلم) ، ثم مالحقته الزيادة فى أوله وهى التاء ، مع زيادة بين الفاء والعين (تجاذب) ، ثم بابا الألوان وما أشبه ذلك (احمر — احمارّ) ، ثم أبواب الرباعى وما ألحق به [٣] أو زيد فيه •

---

(١) ذكر السر فى افراد المهموز بكتاب بقوله : (والهمزة كالحرف السالم فى احتمال الحركات وانما جعلت فى حروف الاعتلال لأنها تلين فتلحق بها) (٧٦/١) •

(٢) يشمل شطر الأفعال الأفعال ومشتقاتها كالمصدر واسم الفاعل واسم المفعول •

(٣) الالحاق هو جعل كلمة على وزن كلمة أزيد منها لتلحقها فى التصريف وهو نوعان : ملحق بالرباعى وملحق بالخماسى • وأشهر أوزان الملحق بالرباعى : فعلن : خلبن ، وفوعل : جورب ، وفيعل : سيطر ، وفعول : سرول ، وفعلل : جلبب وغيرها •

٤ — ولما كان كل باب من هذه الأبواب قد يشترك فى عدة أبنية ، كالثلاثى المجرد من الأسماء الذى له تسعة أبنية ، وضع قاعدة لتقديم بعض هذه الأبنية على بعض فقدم ساكن الحشو على المتحرك لأن السكون أخف ، وقدم المفتوح الأول لأن الفتحة أخف ثم أتبعه المضموم ثم المكسور • وقدم ياء التأنيث على همزة التأنيث وهمزة التأنيث على النون •

٥ — ولما كانت هناك كلمات كثيرة تشترك فى الوزن الواحد رأى أن يرتب الأوزان بحسب حرفها الأخير مع أولها ووسطها • وهذا ما يعرف الآن بنظام الباب والفصل ، وقد اشتهر بين الباحثين أن الجوهرى هو الذى اخترعه ، والذى تبين الآن أن الفارابى قد سبقه إليه •

ولكنه عدل فى ترتيب ألفاظ المعتل اللام أو المهموزها عن اعتبار الحرف الأخير لأنه واحد فى جميعها ، واعتبر الحرف الذى قبله مع الحرف الأول • وهذا وجه خلاف بينه وبين الجوهرى الذى لم يعدل عن اعتبار الحرف الأخير ، حتى فى المهموز والناقص • فكلمة البدء تذكر فى الصحاح قبل الخبء لأنها عنده من باب الهمز فصل الباء • ولكنها تذكر بعد الخبء فى ديوان الأدب ، لأنها من باب الدال فصل الباء ، وكلمة الخبء من باب الباء فصل الخاء • ومثل هذا يقال عن كلمتين مثل « نحو » و « رخو » فالأولى تذكر أولا فى ديوان الأدب ، ومتأخرة فى الصحاح •

٦ — اعتبر أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، ولكنه لم يعتبر الزيادة حينما أراد توزيع الكلمات على الأبواب والفصول •

٧ — كان فى كثير من الأبواب ولا سيما فى شطر الأفعال يذيل الباب بتعقيب يتحدث فيه عن أحكام عامة تتعلق بالباب كما سنذكر فيما بعد •

٨ — فى أبواب المعتل كان يفصل الواوى من اليائى ويقدم الأول منهما •

٩ — راعى الإيجاز فى معجمه ولذلك حذف الأبنية القياسية سواء فى الأسماء أو الصفات أو المصادر ، اكتفاء بذكر أحكامها فى المقدمة والتذييلات .

١٠ — كان يرد الجموع الى مفرداتها ويضع الجمع تحت مفرده .

التذييلات :

أتبع الفارابى كثيرا من أبواب الأفعال بفصول تذييلية تناول فيها بالتفصيل أنواع المشتقات ، وتعرض لكثير من الأحكام التصريفية العامة . وكان غرضه من ذلك الجمع بين المادة اللغوية المسموعة ، والأخرى المقيسة . وبذلك يضم معجمه أكبر قدر ممكن من ألفاظ اللغة ، مالاضابط له بالنص عليه ، وما له ضابط بذكر قاعدته وكيفية اشتقاقه .

وكان تركيزه فى هذه التذييلات على أمور منها :

١ — بيان المصادر من كل باب ، كقوله فى باب فَعَل يفعُل (بفتح فضم) : والمصدر القياسى فى هذا ما كان على الفَعْل أو الفُعُول . الفَعْل للمتعدى والفُعُول للازم ، وقد يتبادلان ، وربما اجتمعا مثل سكت سكتا وسكوتا . وربما جاء المصدر من هذا الباب على فَعَل (بفتح فضم) وهو قليل .

٢ — بيان الصفات من كل باب كاسم الفاعل والصفة المشبهة .

٣ — كيفية أخذ اسم الزمان والمكان والمصدر الميمى .

٤ — كيفية أخذ فعل الأمر وضبط ألفه فى كل باب .

٥ — معانى صيغ الزوائد .

٦ — أحكام تخص بعض الأبواب دون بعض ، ومن ذلك :

(أ) ذكره سر المخالفة بين حركة الماضى الثلاثى ومضارعه .

(ب) ذكره السر فى اشتمال باب فَعَل يفعَل على أحد حروف الحلق •

(جـ) حديثه عن لزوم باب فعُل يفعُل وسر التزام الضم فى الماضى والمضـــارع معاً •

(د) ذكره كثيرا من أحكام الإعلال فى أبواب المثال وذوات الثلاثة وذوات الأربعة [١] •

أما فائدة هذا النوع من المعاجم فتتلخص فيما يأتى :

١ — اختار ترتيب الكلمات على الترتيب الهجائى المعروف ، ولم يذهب فى ذلك مذهب الخليل بن أحمد ولم يرتب ترتيبه « ميلا الى الأشهر ، لقرب متناوله ، وسهولة مأخذه على الخاصة والعامة » •

٢ — ترتيب الكلمات على حسب حرفها الأخير يسهل البحث عن الكلمات التى قد يغمض معرفة أولها ، أو سبق أولها بحروف مزيدة مثل : يعد — ميزان — أواصل [٢] •

كما أن هذا الترتيب ييسر على الشعراء والكتّاب النظم والنثر فى عصر كانت قد شاعت فيه المحسنات البديعية والتزمت القوافى •

٣ — ويكشف لنا القاضى نشوان بن سعيد الحميرى فى مقدمة كتابه شمس العلوم ، وهو ممن تأثر بالفارابى فى تنظيمه عن عامل آخر أملى هذا النظام ، وذلك فى قوله : « وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى كثيراً من الكتب فمنهم من جعل تصنيفه حارسا للنقط وضبطه بهذا الضبط ، ومنهم من حرس تصنيفه بالحركات بأمثلة قدروها ، وأوزان ذكروها ،

---

(١) انظر ديوان الأدب ٣/٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٤٠١ ، ٤/٨١ على سبيل المثال •

(٢) ثبت بالاحصاء أن لام الكلمة ثابتة لا تتغير مهما اختلفت صـــورة الكلمة — الا فى حالات قليلة — ومتى لحقها التغيير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فان الكلمة تنتقل الى أوزان أخرى ولا تعتبر من الثلاثى .

ولم يأت أحد منهم بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات . فلما رأيت ذلك ورأيت تصحيف الكتاب والقراء .. حملنى ذلك على تصنيف يأمن كاتبه وقارئه من التصحيف ، يحرس كل كلمة بنقطها ، وشكلها ، ويجعلها مع جنسها وشكلها ويردها الى أصلها ، جعلت فيه لكل حرف فى المعجم كتابا ، ثم جعلت له ولكل حرف معه من حروف المعجم بابا ، ثم جعلت كل باب من تلك الأبواب شطرين : أسماء وأفعالا ، ثم جعلت لكل كلمة من تلك الأسماء والأفعال وزنا ومثالا . فحروف المعجم تحرس النقط وتحفظ الخط ، والأمثلة حارسة للحركات والشكل ، فكتابى هذا يحرس النقط والحركات جميعاً » (١) .

٤ — ترتيب المعجم على نظام الأبنية ، وجمع الكلمات التى على شاكلة واحدة فى صعيد واحد يفيد الصرفيين كثيرا ، ويطلعنا على خصائص الأوزان ، وما يفيده كل بناء من الأبنية ، كوزن « فعال » بضم الفاء الذى يفيد الزيادة والكثرة ، وصيغة « فِعِّيل » التى تدلّ على الملازمة والمبالغة فى الشىء . كما يقفنا على معانى صيغ الزوائد كصيغة « أفعل » و « فاعل » و « فعل » و « استفعل » . الخ .

٥ — من عيوب المعاجم أنها كثيرا ما تهمل النص على باب الفعل الثلاثى مما يوقع الباحث فى الحيرة . وقد تغلب الفارابى على هـذه المشكلة بتوزيعه الأفعال على أبوابها ، فليس فى معجمه فعل واحد لم يرد الى بابه . ومن أمثلة ذلك قول الجوهرى : « قلبته أى أصبت قلبه ، وقلبت النخلة أى نزعت قلبها » ولم يذكر الباب . وقد ذكرهما الفارابى فى باب فَعَلَ يفعِل . (بفتح فكسر) .

تقدير القدماء لديوان الأدب :

استفادت كتب اللغة المتأخرة بمادة ديوان الأدب وأهمها فقه اللغة

---

(١) ص ٢ .

للثعالبى ، والتكملة والعباب للصغانى ، والمزهر للسيوطى ، وإضـــاءة الراموس للفاسى والمصباح المنير للفيومى •••

كما أثنى عليه العلماء ووصفوه بأرفع الصفات فسموه « الجامع لديوان الأدب » ، ووصفوه بأنه « ميزان اللغة ومعيار العربية » • وكان أبو العلاء المعرى يحفظه عن ظهر قلب ، وهو الذى أكمله لأديب يمنى عثر على جزء منه وأعجبه جمعه وترتيبه •

كما مدحه كثير من الشعراء ، فقال أحدهم :

كتـــاب ديـــوان الأدب أحلى جنى من الضرب
مـــاضرّ مـــن يحفظـــه خمول ذكر أو نســـب
يرفعـــــــه كتـــابنـــــا أعلى الأعـــالى والحسب

ومدحه القاضى نشوان بن سعيد بقوله :

نعم الكتاب كتاب ديوان الأدب نعم الذخـــيرة فهمه والمكتسب
فى كل بـاب منـــه كنز دونه كنز اللجين ودونه كنز الذهب

عيـــوبه :

١ — تعقد نظام الكتاب وصعوبة استخدامه حتى على المتخصصين ، فهو نظام لا يسعف الباحث المتعجل •

٢ — أرغمت هذه الخطة المؤلف على تمزيق الصيغ التى ترجع الى مادة واحدة وتوزيعها على أبواب مختلفة بحسب أوزانها •

٣ — لم يشمل المنهج إفراد أبواب للفعل المبنى للمجهـــول ، أو للحروف ، ونراه يدمج النوع الأول فى أبواب المبنيـــة للمعلوم ويدمج الثانى فى أبواب الأسماء •

٤ — أساس الاستفادة من المعجم معرفة ضبط الكلمة أولا • ولهذا فهو يصلح لمن يعرف ضبط الكلمة ويريد أن يقف على معناها ، أو يريد أن يقف على خصائص بناء من الأبنية ، ولكنه لا يصلح لمن عرف مدلول كلمة ، وأراد الوقوف على ضبطها •

٥ — وقوع المؤلف فى بعض الأخطاء المنهجية مثل تكرار اللفظ مرة فى باب الأسماء ومرة فى باب الأفعال ، ومثل الخلط بين الأسماء والصفات والأولى موضعها القسم الخاص بها والثانية موضعها قسم الأفعال ، ومثل ذكره بعض الصيغ القياسية مع نصه على عدم ذكرها فى المقدمة •

٦ — كما أنه وقع فى بعض الأخطاء فى شرح المادة اللغوية كقوله : وهى الكنيسة للنصارى ، مع أن المعروف أنها لليهود • أما معبد النصارى فيسمى بيعة (١) •

٢ — شمس العلوم لنشوان :

وهو من معاجم الأبنية التى اقتفت أثر الفارابى : واسمه بالكامل « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم » • واسم مؤلفه نشوان ابن سعيد بن نشوان الحميرى النحوى اللغوى الفقيه من علماء القرن السادس الهجرى • وصفه السيوطى بقوله : « أوحد أهل عصره ، وأعلم دهره » • وقد كان هذا الكتاب أسعد حظا من « ديوان الأدب » اذ طبع منه جزء فى مجلدين وصل الى آخر حرف الجيم بتحقيق ك • و • سترستين كما أخذت مطبعة الحلبى فى طبعه وأصدرت منه جزءين وصلا الى آخر حرف الشين ، وذلك قبل أن يطبع ديوان الأدب • ثم أخذت مطبعة الحلبى فى إعادة طبعه وأخرجت منه عام ١٩٨٣ خمسة أجزاء ثم توقفت •

---

(١) وانظر ما سبق من مآخذ لغوية فى دراسة العلاقة بين الصحاح وديوان الأدب ، وماكتبته فى مقدمة التحقيق عن عيوب المعجم (٤٣/١ وما بعدها) .

والكتاب يبدأ بمقدمة يليها فصل فى التصريف • وأهم ما تناولته المقدمة فضل اللغة العربية على سائر اللغات ، والحديث عن نظام الكتاب • أما فصل التصريف فقد بين أهمية علم التصريف وافتقار علم اللغة إليه ثم تناول مشكلات الزيادة ، والإبدال ، والحذف ، ومخارج الحروف ، والإدغام وغير ذلك • وقد شغلت المقدمة وفصل التصريف ٢٩ صفحة من مطبوعة ليدن •

نظامـــة :

١ — قسم المؤلف معجمه الى كتب على عدد حروف الهجاء ، مرتبة على حسب الترتيب الهجائى المعروف ، فبدأ بكتاب الهمزة ، وتلاه بكتاب الباء ، ثم التاء ، ثم الثاء •

٢ — قسم كل كتاب من هذه الكتب الى جزءين ، جزء للمضاعف وجزء لغيره ، وكان يبدأ كل كتاب بباب المضاعف •

٣ — قسم كل جزء من هذين الجزءين الى شطرين ، شطر للأسماء ، وشطر للأفعال وكان يبدأ بشطر الأسماء •

٤ — قسم كل شطر الى أقسام بحسب التجرد والزيادة ، فكان يبدأ بالثلاثى المجرد ، ثم المزيد فيه ، ثم الرباعى ، ثم الخماسى •

٥ — ولمـا كان كل قسم من هذه الأقسام يشترك فى عدة أبنية راعى فى المجرد الحركة حين ترتيب الأوزان ، فكان يقدم ساكن الحشو على المتحرك والمفتوح الأول على المضموم والمكسور • أما فى المزيد فقد راعى مكان الزيادة فقدم من الأبنية ما كانت زيادته أسبق ، مع مراعاة نوع الحركة أيضاً •

٦ — اعتبر أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، ولكنه لم يعتبر الزيادة حينما وزع الكلمات على الأبواب والفصول •

بين ديوان الأدب وشمس العلوم :

هناك أوجه شبه وأوجه خلاف بين المعجمين . أما أوجـــه الشبه فواضحة فيما يأتى :

١ — فكرة التقسيم إذ اتبعا نظام الأبنية .

٢ — التقسيم الى أسماء وأفعال ، وإفراد أبنية كل قسم ومفرداته .

٣ — التقسيم بحسب التجرد والزيادة ، ثم بحسب نوع الحركة .

٤ — اعتبار أحرف الزيادة لمعرفة بناء الكلمة ، وإهمالها عند توزيع الكلمات على الأبواب والفصول .

وأما أوجه الخلاف فتتلخص فيما يأتى :

١ — قسم الفارابى كلماته الى ستة أقسام بحسب نوع حروفها ، فى حين أن القاضى نشـــوان راعى فصل المضاعف فقط عن غـــيره . ولا أفهم سر ذلك .

٢ — قدم الفارابى مرحلة التقسيم بحسب الأبنية على مرحلة التقسيم بحسب الحروف ، فى حين أن القاضى نشوان قد شطر مرحلة التقسيم بحسب الحروف الى شطرين ، قدم أولهما (وهو اعتبار الحرف الأول والثانى) على مرحلة الأبنية ، وأخر ثانيهما (وهو اعتبار الحرف الأخير) عن مرحلة الأبنية .

٣ — كذلك نجد الفارابى فى اعتباره للحروف يرتب بحسب الحرف الأخير والأول (نظام الباب والفصل) أما القاضى نشوان فيرتب بحسب الحرف الأول ، ثم الثانى ، ثم الأخير [١] .

---

(١) سواء كان الأخير ثالثا أو رابعا ، ولذلك رتب كلمات البناء « فعلل » فى قسم الأسماء هكذا : جلعب ، جلسد ، جلعد — جلمد — جلهم .. ولو كان ينظر الى الحرف الثالث لغير الترتيب .

٤ — وهناك فرق هام بين المعجمين يتمثل فى المـادة اللغوية الموجودة فى كل • فديوان الأدب معجم مختصر ، وقف عند حدود المعجم ، فأهمل المسائل الفقهية والكلامية ، ونحى الأشياء الغريبة عن علم اللغة ، وحد من الأبحاث النحوية والبلاغية : أما شمس العلوم فكان يحشـد تحت المـادة كل ما يمكن حشده من ألوان العلوم والمعارف ، ولذا جاء حجمه ضخما بالنسبة لحجم ديوان الأدب ، مع نص القاضى نشوان فى مقدمته على أنه بلغ فى هذا التصنيف من الإيجاز والاختصار جهده ، وأتى بأقصى الغاية مما عنده • ولكن ماذا يغنى الاختصـار والكتاب ملئ بأخبار الملوك ، ومعرفة منافع الأشجار ، وطبائع الأحجار ، والحديث فى علوم القرآن والقراءات والتفسير ، والأنساب والأخبار والحساب ، والفقه والنجوم وتأويل الرؤى ، والنحو والصرف والعروض ، ومصطلح الحديث والفرق الإسلامية (١) •

ويبدو أن القاضى نشوان قد تعمد إغفال اسم « ديوان الأدب » حتى يقطع الصلة بين المعجمين أو يمحو معالمها • ويبدو أن هذه النية هى التى جعلته يزعم فى مقدمته أن أحداً من المؤلفين فى المعاجم لم يأت قبله بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات ، مع أن الفارابى قد سبقه الى ذلك بقرنين من الزمن •

ولم يستطع القاضى نشوان برغم ذلك أن يمحو تأثير الفارابى عليه ، أو يقطع صلته به ، ولذلك نجد القفطى يعتبر شمس العلوم شرحا لديوان الأدب • وهو ليس كذلك فى الحقيقة ولكنه أثر من آثاره (٢) •

---

(١) المقدمة س ٣ ، ٦ وقد تكلم المؤلف فى اكثر من صفحتين منها عن علم النجوم واهميته ومنزلته •

(٢) ولاحظ ما سبق ان اقتبسناه من قصيدة نشوان فى مـدح ديوان الأدب • وقد أوردت القصيدة بنصها فى مقدمة تحقيقى (١/٣٩) •

٣ — مقدمة الأدب للزمخشرى :

ومقدمة الزمخشرى من الكتب التى سارت على نظام الأبنية ، ومؤلفها من علماء القرن السادس كذلك ، وقد قسمها الى خمسة أقسام : الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، وتصرف الأسماء ، وتصرف الأفعال .

ولم يتبع المؤلف فى قسم الأسماء نظام الأبنية ، وإنما سلك فيه سبيل المعاجم المرتبة بحسب الموضوعات ، فقسمه الى أبواب ، جمع تحت كل باب منها الكلمات التى تدور حول موضوع واحد .

أما قسم الأفعال فقد اتبع فيه نظام الأبنية فقسمه أولا الى :

(أ) الثلاثى المجرد .
(ب) الثلاثى المزيد .
(جـ) الرباعى .

(د) وألحق بها قسما رابعاً جمع فيه (من غير نظام) الأفعال غير المتصرفة ثم قسم كل قسم من الأقسام الثلاثة الأولى الى أبواب . فقسم الثلاثى المجرد بحسب ماضيه ومضارعه الى ستة أبواب ، وألحق بها بابا سابعاً للمبنى للمجهول .

وفصل فى كل باب الأنواع الآتية بعضها من بعض :

(أ) الصحيح .
(ب) المضاعف .
(جـ) المعتل الفاء .
(د) المعتل العين .
(هـ) المعتل اللام .
(و) المعتل الفاء واللام .
(ز) المعتل العين واللام .

ورتب الكلمات تحت كل نوع ترتيبا هجائيا كترتيب ديوان الأدب والصحاح .

وأما قسم الحروف فهو قسم قصير جداً لم يعالج فيه الزمخشرى الحروف معالجة اللغوى ، وإنما عالجها معالجة النحوى الذى يبحث عن الأثر الإعرابى ولذلك كانت أقسامه : « فصــل فى الحروف التى تجر الأسماء » « فصل فى الحروف التى تنصب الأسماء » ، « فصل فى الحروف التى تنصب الاسم وترفع الخبر » .

وأما القسمان الرابع والخامس الخاصان بتصريف الأسماء والأفعال فيتناولان موضوعات تمس النحو والصرف كالإعراب والبناء ، والتعريف والتنكير ، والإفراد والتثنية والجمع ، والتصغير ، والنسب .

وتوجد من المعجم عدة نسخ ناقصة فى دار الكتب المصرية يكمل بعضها بعضا وهى :

نسخة رقم ١٠٠ لغة تشتمل على الأسماء وقسم الأفعال .

نسخة رقم ٦٣٦ لغة وتشتمل كذلك على قسمى الأسماء والأفعال .

نسخة رقم ٢٧٢ لغة تنقص قسم الأسماء فقط وتشتمل على الأقسام الأربعة الأخرى وكتب عليها خطأ « كتاب الأفعال » .

القسم الثانى

معاجم المعانى

يبدو أن فكرة هذا النوع من المعاجم الذى يرتب ألفاظه بحسب الموضوعات — كانت أسبق فى الوجود ، أو معاصرة لأولية المعاجم العربية المرتبة على الألفاظ ، وإن أخذت البداية شكلا خاصا يتمثل فى كتيبات صغيرة يتناول كل منها موضوعا واحدا من الموضوعات .

ومن أوائل من ألفوا الكتيبات ذات الموضوع الواحد : أبو مالك عمرو ابن كركرة الذى ألف : خلق الإنسان ، والخيل . ومنهم أبو خيرة الأعرابى الذى ألف : الحشرات وهما من علماء القرن الثانى الهجرى .

وفى القرن الثالث استمر هذا العمل ، ووجدت بجانبه أعمال أخرى تتمثل فى كتب تجمع أكثر من موضوع فى مجلد واحد . فمن النوع الأول : السلاح للنضر بن شميل ، والنحلة ، والإبل ، والخيل ، وخلق الإنسان لأبى عمرو الشيبانى ، والإنسان ، والزرع لأبى عبيدة ، والمطر ، والمياه ، وخلق الإنسان ، والشجر لأبى زيد الأنصارى ، والإبل ، والنحل والإنسان ، والنبات ، والخيل للأصمعى ، وأسماء الخيل ، والبئر ، والدرع لابن الأعرابى ومن النوع الثانى تلك الكتب التى حملت اسم « الغريب المصنف » أو « الصفات » . وممن ألف من أبناء هذا القرن : النضر بن شميل الذى ألف « الصفات » ، وأبو عبيد القاسم بن سلام الذى ألف « الغريب المصنف » (١) . ومن معاجم هذا القرن كذلك معجم لابن السكيت يحمل اسم « الألفاظ » وهو مطبوع ومتداول (٢) .

---

(١) ما يزال مخطوطا . وانظر عدنان الخطيب ص ٣٧ ، وحسين نصار ١٢٩/١ وما بعدها .

(٢) طبع بتهذيب التبريزى باسم « كنز الحفاظ فى كتاب تهذيب الالفاظ » .

ويستمر الاتجاهان فى القرن الرابع ، فيؤلف الأخفش الأصغر « الأنواء » ، وابن دريد « السرج واللجام » و « المطر والسحاب » ، وأبو على القالى « الإبل » . ويؤلف كراع النمل (أبو الحسن على بن الحسن الهنائى المتوفى بعد عام ٣٠٩ هـ) « المنجد » [١] ، وعبد الرحمن ابن عيسى الهمذانى [٢] (توفى ٣٢٠ هـ) « الألفاظ الكتابية » وقدامة بن جعفر (توفى ٣٣٧ هـ) « جواهر الألفاظ » . وآخر ماطبع من معاجم المعانى لهذا القرن « متخير الألفاظ » لابن فارس (توفى ٣٩٥ هـ) [٣] .

أما القرن الخامس فقد كاد يختفى [٤] منه الاتجاه الأول ، ويبقى الاتجاه الثانى ممثلا فى « مبادىء اللغة » للإسكافى (توفى ٤٢١ هـ) الذى ضم أبوابا تدور على الموضوعات ، مثل النجوم والدهر والليل والنهار والثياب والآلات وأدوات الطعام والشراب ، وقد طبع بالقاهرة . كذلك ظهر فيه « فقه اللغة » للثعالبى (توفى ٤٢٩ هـ) وقد طبع كذلك .

وتوج هذا القرن بعملين هامين ، أحدهما غاية فى الطول ، والآخر غاية فى الاختصار .

أما العمل الأول فهو :

المخصص لابن سيده :

وهذا المعجم يعد أوفى وأشمل معجم من معاجم المعانى فى تاريخ اللغة العربية . وقد استعان ابن سيده فى تأليفه بكل ما كتب قبله تقريبا من مؤلفات الغريب المصنف ، والصفات والألفاظ والمعاجم اللغوية وكتب اللغة المختلفة ، ولذا جاء شاملا وافيا .

---

(١) طبع بتحقيق المؤلف بالاشتراك مع ضاحى عبد الباقى .
(٢) طبع كتابه بتحقيق لويس شيخو .
(٣) طبع بتحقيق هلال ناجى .
(٤) لم أعثر الا على « الأزمنة والأنواء » لابن الأجدابى وسيرد مزيد بيـان عنهمـا .

ويضم الكتاب الى جانب ذلك كثيرا من المباحث النحوية والصرفية ، كما أنه مزود بالشواهد المنظومة والمنثورة •

والمخصص مطبوع ومتداول ويقع فى ١٧ جزءاً • ويقول مؤلفه فى مقدمته : « وتأملت ما ألفه القدماء فى اللسان ••• فوجدتهم قد أورثونا بذلك فيها علوما نفيسة جمة ••• إلا أنى وجدت ذلك نشرا غير ملتئم ، ونثرا ليس بمنتظم ••• ثم إنى لم أر لهم فيها كتابا مشتملا على جلها فضلا عن كلها مع أنى رأيت جميع من مد الى تأليفها يدا ••• قد حرموا الارتياض بصناعة الإعراب . ولم يرفع الزمن عنهم ما أسدل عليهم من كثيف ذلك الحجاب . حتى كأنهم موات لم يمد بحيوانية أو حيوان لم يحد بإنسانية » •

والمعجم مقسم الى أبواب رئيسية بحسب الموضوعات وتحت كل باب مجموعة من التقسيمات الفرعية كما يبين من المثال التالى : كتاب خلق الإنسان — كتاب اللباس — كتاب الطعام ••• وتحت كتاب خلق الإنسان نجد : باب الحمل والولادة — أسماء ما يخرج مع الولد — الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية — الغذاء السيىء للولد ••• — الرأس — ومن صفات الرأس — ••• الحاجب — العين وما فيها •• — الأنف ••• — الشفة وما يليها من الذقن [١] •

وقد أعد الأستاذ محمد الطالبى دراسة ، كما قام بعمل فهارس متنوعة للمخصص وطبعها تحت عنوان « المخصص لابن سيده — دراسة ودليل » وهو عمل لا بأس به وييسر على الباحثين عناء التجوال فى أجزاء المخصص المتعددة للعثور على طلبتهم •

---

(١) انظر مقارنة بين معاجم المعانى (القديمة) ومعاجم الحقول الدلالية (الحديثة) فى بحثنا : نظرية الحقول الدلالية واستخداماتها المعجمية (مجلة كلية الآداب ، جامعة الكويت ، العدد ١٣) •

ورب سائل يسأل : ولكن ما قيمة هذا النوع من المعاجم ؟ وكيف يمكن الاستفادة به ؟ والحقيقة أن هذا النوع من المعاجم لا يستفيد منه من عثر على كلمة وأراد ضبطها بالشكل ، أو تحديد معناها ، فمثل هذا الباحث لابد أن يرجع الى معاجم الألفاظ • ولكنه يفيد من يدور معنى من المعانى فى ذهنه ، أو يفكر فى موضوع ما ، ويريد أن يجمع الألفاظ المتعلقة به أو التى تدور حوله فلن يفيده إلا هذا النوع من المعاجم • ولو أراد مثل هذا الباحث الاستعانة بلسان العرب مثلا فى العثور على طلبته لأفنى الشهور والسنين فى لمّ الكلمات التى يريدها وجمع شتاتها من أماكنها المتفرقة ، ولعدل عن المضى فى بحثه حين يكتشف مدى الجهد الذى ينتظره •

وأما العمل الآخر فهو :

كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى :

ولجهل الكثيرين بالكتاب ومؤلفه رأينا أن نخصهما ببحث واف يقصد الى التعريف بهما ووضعهما فى مكانهما :

أما المؤلف فهو العالم اللغوى أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتى الأجدابى (١) الطرابلسى ، من علماء القرن الخامس الهجرى ، إذ كان معاصرا لأبى محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن هانئ قاضى طرابلس فى المدة من عام ٤٤٤ الى ٤٧٧ هـ ، وله معه قصة ذكرها التجانى فى رحلته (٢) •

ومن مجموع ما ذكره المؤرخون وكتاب التراجم عن حياته نعرف أنه

---

(١) اللواتى نسبة الى « لواتة » وهى قبيلة بربرية كانت تسكن أجدابية• والأجدابى نسبة الى « اجدابية » وهى بلد من بلاد برقة (الزاوى : أعلام ليبيا ص ٤ ، معجم البلدان الليبية ص ٢٠) •

(٢) ص ٢٦٣ •

وإن كان ينتسب الى أجدابية ، فقد ولد وعاش ومات فى طرابلس • وقد وصفه القفطى بقوله : « من أهل اللغة ، وممن تصدر فى بلده واشتهر بالعلم • وكانت له يد جيدة فى اللغة وتحقيقها وإفادتها » [١] • وقـد ألف كتبا كثيرة هى بالإضافة الى كتابنا هذا :

١ — الأزمة والأنواء وقد طبع طبعة محققة ونشر فى دمشق بتحقيق الدكتورة عزة حسن سنة ١٩٦٤ م •

٢ — كتاب فى العروض قال عنه التجانى « ناهيك به حسنا وترتيبا وتهذيبا » •

٣ — كتاب فى الرد على أبى حفص بن مكى فى « تثقيف اللسان » •

٤ — كتاب شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء •

٥ — كتاب مختصر فى علم الأنساب •

٦ — رسالة فى الحول ألفها حين عيره « ابن هانش » بحوله [٢] :

وأما الكتاب فقد نال شهرة عظيمة برغم صغر حجمه ، وتوالت عليه المؤلفات شرحا ونظما ، وبقيت منه نسخ عدة فى كثير من مكتبات العالم • كما أنه طبع أكثر من مرة فى أكثر من بلد عربى •

والكتاب صغير الحجم إذ يبلغ فى بعض الطبعات ٥٥ صفحة ، وفى بعضها الآخر ٨٠ صفحة • أما موضوعه فنترك الحديث عنه لابن الأجدابى نفسه الذى يقول : « هذا كتاب مختصر فى اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام ، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشى الألفاظ

---

(١) انباه الرواة ١/١٥٨ •

(٢) مزيد بيان عنه بمؤلفنا « النشـــاط الثقافى فى ليبيا » ، ص ٢٥٧ وما بعدهـــا •

واللغات ، وأعريناه عن الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنيا لمن اقتصر فى هذا الفن ، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه ، وصنفناه أبوابا » •

أما أبواب الكتاب فمنها :

باب فى صفات الرجال المحمودة — ومن صفات الرجال المذمومة — باب فى صفات النساء المحمودة — ومن مذموم صفاتهن — معرفة حلى النساء — باب ما يحتاج الى معرفته من خلق الإنسان ••

وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من احتفال العلماء به ، واهتمامهم بكتابة الشروح والتعليقات عليه فمن ذلك :

١ — شرح محمد بن الطيب المغربى الفاسى (المتوفى سنة ١١٧٠ هـ) المسمى « تحرير الرواية فى تقرير الكفاية » ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحمل رقم ١٤ لغة ش [(١)] ، وقد بدأ ابن الطيب الفاسى كتابه بقوله : « يامن المتحفظ بذكره كاف عن كفاية المتحفظ ، والتلفظ بشكره الى بدايته تنتهى نهاية المتلفظ » وذكر أنه رمى من وراء تأليفه الى ضبط كلمات الكفاية وشرح غريبها ، وأنه لم يؤلف كتابه إلا « بعد ما سألنيه جماعة من الأصحاب الجهابذة الذين تكررت قراءتهم إياه كغيره على طائفة من الشيوخ والأساتذة الذين كانوا يستندون فى أمثاله من العلوم اللسانية الى » •

٢ — نظم ابن مالك صاحب الألفية له • ويوجد من هـذا النظم ميكروفلم محفوظ فى معهد المخطوطات بالقاهرة برقمى ٢٨٦ ، ٢٨٧ لغة وعدد ورقاته ٤٣ • ومن أبياته :

---

(١) قام بتحقيقه مؤخرا على حسين البواب ضمن رسالة للحصول على الدكتوراه من كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة (١٩٧٨) •

وبعده فقد رأيت حتما   إذ كنت أكملت الفصيح نظما
أن أنتضى عزمة ذى عناية   فأنظم الوارد فى الكفاية
إذ بهــا يتم نيل الأرب   لمبتغى علم كلام العرب

٣ — ونظمه كذلك قاضى الحرم جمال الدين محمد بن محب الدين الطبرى المتوفى سنة ٧٠٠ ﻫ تحت عنوان : « عمدة المتلفظ فى نظم كفاية المتحفظ » .

وغير ذلك :

ومما قيل تعليقا على كفاية المتحفظ :

القفطى : « صنف فى اللغة مقدمة لطيفة سماها كفاية المتحفظ يشتغل بها الناس فى المغرب ومصر » .

ابن الطيب الفاسى : « واعتنى بهذا المختصر جمع من الأئمة المقتدى بهم واعتمــدوه . وأكثر من النقل عنــه .. الفيومى فى كتابه المصباح المنير ... والدميرى فى حياة الحيوان وغيرهما . وعدلوه بالمصنفات الكبار كالصحاح والتهذيب والمجمل ونحوها . وربما اختار كلامه فى المصباح عليهم أحيانا .. وشهرته بين أهل الفن كافية » .

ومدحه الأديب الفقيه على بن صالح العدوى بقوله :

من كان يطلب فى الغريب وسيلة   من شــاعر أو كاتب متلفظ
أو كان يبغى فى الكلام بلاغة   فليحفظن كفاية المتحفظ (١)

---

(١) راجع : النشاط الثقافى فى ليبيا للمؤلفة ، ص ٢٦٢ وما بعدها .

٣ — المآخذ على المعاجم العربية

على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها المعجميون العرب ، لم يسلم عملهم من النقد ، ولم يخل من المآخذ ولعل أهم هذه المآخذ ما يأتى :

١ — أكبر عقبة تصادف الباحث فى معاجمنا اللغوية عدم ترتيب المواد ترتيبا داخليا . ففيها خلط الأسماء بالأفعال ، والثلاثى بالرباعى ، والمجرد بالمزيد وخلط المشتقات بعضها ببعض « فربما رأيت الفعل الخماسى والسداسى قبل الثلاثى والرباعى ، أو رأيت أحد معانى الفعل فى أول المادة ، وباقى معانيه فى آخرها . ففى مادة (عرض) ذكر الجوهرى المعارضة التى بمعنى المقابلة بعد المعارضة التى بمعنى المجانبة بثلاثة وثلاثين سطرا » [1] وكذلك فعل الفيروزابادى فى مادة حب ، فقد أورد فى أولها : تحابوا أى أحب بعضهم بعضا ، ثم قال بعد ستة وثلاثين سطرا : والتحاب التواد . ومن هذا القبيل ما ورد فى لسان العرب فى مادة ظفر إذ قال : ظفره وظفّره وأظفره غرز فى وجهه ظُفُره . ثم ذكر بعد خمسة وثلاثين سطرا ظفِر به وعليه وظفِره وأظفره الله به وعليه وظفّره به [2] .

لذلك كان على من يريد الكشف عن كلمة أن يراجع المادة كلها من أولهما الى آخرها ، ولا يكتفى بمصادفتها فى مكان واحد ، فربما تكرر ذكرها . ولهذا يقول أحمد فارس الشدياق : « ولا جرم أن هذا التخليط والتشويش فى ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المطلع ، ويحرمه من الفوز بالمطلوب فيعود حائرا بائرا » .

---

(١) الجاسوس على القاموس ، ص ١٠ من مقدمته .

(٢) مقدمة « البستان » ، ص ٤٠ وانظر أمثلة أخرى من اللسان وأساس البلاغة فى المعاجم اللغوية لأبى الفرج ، ص ٤٢ وما بعدها .

٢ — كذلك يواجه الباحث فى المعاجم العربية بعدم التزامها بالمنهج الذى اختطه المؤلف لنفسه . ومن أمثلة ذلك :

(ا) ما جاء فى « ديوان الأدب » للفارابى من أنه لن يذكر فى المعجم المشتقات القياسية ، ومع ذلك نجد فى المعجم ذكرا لِفعال جمع فعل ، ولفعّل جمع فاعل مثل نوم ونائم وغيب وغائب .

(ب) ما جاء فى مقدمة لجنة « المعجم الوسيط » من أن المعجم قد أهمل « كثيرا من الألفاظ الحوشية الجافية ، أو التى هجرها الاستعمال لعدم الحاجة إليها ، أو قلة الفائدة منها ، كبعض أسماء الإبل وصفاتها .. » ومع ذلك فقد ورد فى المعجم كلمات مثل الهصاهص بمعنى القوى من الناس أو الأسود ، ومثل الهلواع الناقة السريعة الشديدة ، ومثل الناقة الدرصاء التى تكسرت أسنانها كبرا ، ومثل الدرفاس بمعنى الضخم العظيم من الإنسان والحيوان [١] .

٣ — ومن عيوبها كذلك وقوعها فى بعض الأخطاء عند شرح المادة اللغوية . وقد ألفت الكتب قديما وحديثا فى التنبيه على هذه الأخطاء . وقد سبقت الإشارة الى « التنبيه والإيضاح » لابن برى ، و « نفوذ السهم » لخليل بن أيبك الصفدى ، و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الأصفهانى . أما فى الحديث فمما ألف فيها : « الجاسوس على القاموس » لأحمد فارس الشدياق ، « وتصحيحات لسان العرب » لأحمد تيمور . كما نشرت تصحيحات للسان العرب فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق بقلم الأستاذ توفيق داود قربان ، وتصحيحات أخرى للأستاذ عبد السلام هارون فى مجلة المجلة ، وأخرى للأستاذ عبد الستار أحمد فراج فى مجلة مجمع اللغة العربية فى القاهرة وغيرها [٢] . ونشرت

---

(١) عدنان الخطيب ص ٦٣ ، ٦٧ — ٦٩ .

(٢) عدنان الخطيب نفس المرجع والصفحات . وانظر حسين نصار ٧٤٧/٢ وما بعدها .

تصحيحات للمعجم الوسيط للأستاذ عدنان الخطيب فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق تحت عنوان « نظرات فى المعجم الوسيط » .

ومن أمثلة هذه الأخطاء قول الجوهرى : وسالم من أسماء الرجل ، ويقال للجلدة التى بين العين والأنف سالم . وقد عقب الصغانى بقوله : وهذا غلط . وقد تبع خاله الفارابى فى أخذه اللغة من معنى الشعر . والبيت الذى أخذ الفارابى هذا المعنى منه هو قول الشاعر :

يديروننى عن سالم وأريغه وجلدة بين العين والأنف سالم

وهذا البيت قد قاله ابن عمر فى ابنه سالم . وواضح أن « سالم » فى الشطر الثانى — كما هو فى الشطر الأول — هو سالم ابن ابن عمر ، وقد جعله لحبته بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه . ومعنى أريغه أطلبه وأريده وأميل إليه سرا [1] .

ومن أمثلتها كذلك قول الفارابى : « الصيعرية سمة فى عنق البعير » . قال الفيروزابادى : الصيعرية سمة فى عنق الناقة لا البعير . وقد حاول ابن الطيب الفاسى أن يعتذر عن الفارابى بأنه أراد بالبعير الأنثى . ولا معنى لذلك فى رأينا ، وقديما عيب على المسيب بن علس قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

لأن الصيعرية صفة للنوق لا للفحول . ولذلك حين سمع طرفة بن العبد هذا البيت قال : استنوق الجمل ، وضحك منه [2] .

٤ — ومن عيوبها شرح الكلمات شرحا معيباً مثل :

---

(١) التكملة ٢٢/٦ ، لسان العرب ، مادة « سلم » . ويؤيد تفسيرنا للبيت ما جاء فى وصية هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده : « ان ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى ، وقد وليتك تأديبه » .

(٢) ديوان الأدب ٤٥/٢ ، والقاموس المحيط مادة « صعر » ، واضاءة الراموس ١٠٩/٣ ، والموازنة للامدى ص ٣٢ ، والموشح للمرزبانى ص ٧٦ .

(أ) غموض العبارة ، وتعريف اللفظ الغامض بلفظ غامض ، كقول الفارابى : « الصدع الوعل بين الوعلين » ، وهو يريد أنه وسط منها ليس بالعظيم ولا الصغير . ولكنه وعل بين وعلين ، كما شرحه الصحاح . وكقول الفارابى كذلك النثور : النيلج وقد شرحـه الجوهرى بقوله : وهو دخان الشحم يعالج به الوشم حتى يخضر .

(ب) عـدم الدقة فى التعبير ، كقول الفارابى : الأكلف لون بين السواد والحمرة ، والحقيقة أن الكلفة هى ذلك اللون ، أما الأكلف فهو ما كان لونه بين السواد والحمرة . ومنه قوله أيضاً : « القنينة آنية الشراب » والصواب إناء لأن القنينة مفرد لا جمع .

(جـ) التعريف الدورى مثل قول الفارابى : حسُب الرجل صـار حسيبا وقوله : الوارش فى الطعام مثل الواغل فى الشراب — الواغل فى الشراب مثل الوارش فى الطعام . وعبـارة الجوهرى أوضح وهى : « الوارش الداخل على القوم وهم يأكلون ولم يُدْعَ ، مثل الواغل فى الشراب » . ومنه قول القاموس : تنجّح الحاجة واستنجحها تنجزها ، ثم قوله : تنجز الحاجة واستنجزها استنجحها [1] .

٥ — أنها أهملت فى بعض الأحيان النص على ضبط الكلمة ، وبيان باب الفعل الثلاثى . ومن أمثلة ذلك قول الجوهرى : قلبته أى أصبت قلبه . وقلبت النخلة أى نزعت قلبها . ولم يذكر الباب ، وقد ذكر غيره أنه من باب فعَل يفعِل (بفتح فكسر) .

٦ — كذلك من يتتبع معاجم المتأخرين يجدها تعتمد الى حد كبير على معاجم المتقدمين ، سواء من ناحية المـادة أو النظام . ومنهـا ما يتجاوز مرحلة الاعتماد الى مرحلة التقليد الأعمى . ويحضرنى من أمثلة التقليد الأعمى نموذجان :

---

(١) وانظر أمثلة أخـرى فى المعجم العربى لعدنان الخطيب ص ٧٦ وما بعدهـا .

(أ) اتباع ابن دريد نظام التقليبات تقليداً للخليل بن أحمد مع طرح ابن دريد للترتيب الصوتى • ونظام التقليبات لا يحقق هدفه إلا مقترناً بالترتيب الصوتى الذى يكشف عن خصائص « النسج الصوتى » للكلمات العربية ، ويميز التجمعات المسموحة والأخرى الممنوعة •

(ب) استخدام ابن فارس نظام الدائرة فى ترتيب ثوانى الكلمات وثوالثها أى بدؤه الثانى مما يلى الأول والثالث مما يلى الثانى • وهذه نقطة حاكى فيها معاجم التقليبات دون أن يتنبه الى الحكمة منها • فمعاجم التقليبات تبدأ الثانى مما يلى الأول ، لأن ما قبل الأول قد سبق فى مكانه • ولكن بعد أن طرح ابن فارس نظام التقليبات لم تعد هناك حكمة فى بدء الثانى مما يلى الأول لأن ما قبل الأول لم يسبق ذكره •

أمـا الاعتماد من ناحية المـادة فظاهرة متفشية فى جميع المعاجم العربية • فكتاب الجمهرة يصفه « نفطويه » قائلا :

وهو كتاب العين إلا أنه قد غيَّره

ويصرح ابن فارس بالأخذ عن كتب السابقين والاعتماد عليها وعلى خمسة منها بالذات •• « فهذه الخمســة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة » •

ويفصح ابن منظور فى لسان العرب أنه نقل معجمه عن سابقيه نقلا تاما • فبعد أن يذكر التهذيب للأزهرى والمحكم لابن سيده ••• يقول : « وليس لى فى هذا الكتاب فضيلة أمت بها •• سوى أنى جمعت فيــه ما تفرق فى تلك الكتب •• » ومثل هذا ينطبق على تهذيب اللغة والعباب والصحاح والقاموس •• وغيرها [1] •

---

(١) تفصيل ذلك فى : المعاجم اللغوية للدكتور محمد احمد ابو الفرج ص ٢٧ وما بعدها .

٧ — ويرتبط بهذا المأخذ مأخذ آخر وهو وقوف المعاجم عند فترة زمنية لم تتجاوزها وهى القرن الثانى بالنسبة لعرب الحواضر والرابع بالنسبة لعرب البوادى ، مما أصاب اللغة بالجمود وعاقها عن التطور .

وخيراً فعل واضعو المعجم الوسيط حين لم يعترفوا بانقطاع سلامة اللغة العربية عند عصر معين ولا مكان معين ، وأثبتوا « فى متن المعجم مادعت الضرورة الى إدخاله من الألفاظ المولدة أو المحدثة أو المعربة أو الدخيلة التى أقرها المجمع وارتضاها الأدباء فتحركت بها ألسنتهم وجرت بها أقلامهم » (١) . وقد استهدوا فى ذلك بقرارات المجمع اللغوى التى من أهمها :

(أ) فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة من اشتقاق وتجوز وارتجال .

(ب) إطلاقه القياس ليشمل ماقيس من قبل وما لم يقس .

(جـ) تحرير السماع من قيود الزمان والمكان ..

(د) الاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء (٢) .

٨ — خرجت معظم المعاجم العربية عن وظيفتها وبعدت عن حقل اختصاصها حين خلط أصحابها بين المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف وحشوا معاجمهم بمواد غريبة عنها . وربما كان معجما القاموس المحيط الفيروزابادى وشمس العلوم لنشوان بن سعيد (٣) من خير الأمثلة على ذلك .

---

(١) مقدمة المعجم الوسيط (ط ثانية) ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢ . وانظر محمد ابو الفرج ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) اذا كان هناك من عذر لنشوان — كما يفهم من عنوان معجمه — فما عذر الفيروزابادى ؟

٩ — واذا كان المعجم العربى قد مر بعصره الذهبى خلال القرون الأربعة الأولى من الهجرة فهو يمر الآن بحالة من الجمود جعلته يتخلف عن حركة التأليف المعجمى العالمية ، ويعود ذلك الى جملة أسباب منها :

(أ) أنه لا توجد هيئة دائمة أو مؤسسة متخصصة (حكومية أو غير حكومية) تتولى إصدار المعاجم العربية فى أى بلد عربى ، والأمر متروك للناشر يقيسه بمقاييس الربح والخسارة وتحقيق النفع المادى •

والأمر يحتاج الى مؤسسة على نمط « دار أكسفورد للنشر » التى أصدرت عشرات المعاجم الإنجليزية ، منها معجم أكسفورد الكبير الذى يعتبر المرجع الأعلى والأخير فى اللغة الإنجليزية ، واستغرق إخراجه سبعين عاما • ومنذ صدوره عام ١٩٢٨ وتعديلات المعجم مستمرة سواء بالحذف والتنقيح أو — وهو الأهم — بإضافة الألفاظ الجديدة التى استعملها الكتاب والشعراء المحدثون أو عثر عليها فى الصحف والمجلات المعاصرة ، ولذا فالمعجم فى نمو مستمر ، وهو يزود دائما بالملاحق والمستدركات • ومن أهم المعاجم الأخرى التى صدرت عن دار أكسفورد : المعجم اللاتينى الانجليزى الذى يعد أعظم معجم من نوعه صدر حتى الآن واستغرق اعداده وإخراجه نحوا من نصف قرن ، ويضم مفردات اللاتينية منذ ظهورها — رغم أن اللغة اللاتينية — كما نعلم جميعا — لغة ميتة [١] •

(ب) أنه لا يوجد سجل شامل لمفردات أى عصر من عصور اللغة العربية حتى الآن • وما يتم إنجازه من دراسات معجمية لدواوين بعض الشعراء فى أقسام اللغة العربية بجامعاتنا ، لا يمثل إلا قطرة فى بحر من ناحية ، وهو جهد مبعثر لا يتم ضمن إطار عام أو خطة شاملة من ناحية ثانية • كما لا يمكن الوثوق به أو الأطمئنان إليه من حيث الدقة والصحة اللفظية من ناحية ثالثة •

---

(١) انظر : خلوصى ص ١٠٢ وما بعدها والسيد فى مواقع متفرقة •

وقد كان — وما يزال — المعجم التاريخى حلما راود خيال الكثيرين • ولكن تكلفة المشروع ، وضخامة الجهد البشرى المطلوب لتنفيذه ، وغياب الوعى بأهمية هذا المعجم • حال بينه وبين الظهور •

فليت أى جهة مسئولة أو دار نشر غنية تتنبه الى قيمة هذا العمل الضخم وتتبناه • ولعل جمعية المعجمية العربية بتونس التى أعلنت عن بدئها العمل فى هذا المشروع تكون جادة فى التنفيذ ، ولكن من أين لهـا التمويل الضخم المطلوب والكفايات البشرية اللازمة ؟

ولو تم هذا يكون لدينا أساس قوى لرصيدنا اللغوى يتم تزويده كل لحظة بما يجد من ألفاظ على ألسنة الشعراء وبأقلام الكتاب ، وما يرد فى الصحف والمجلات ووسائل الإعـلام المختلفة من كلمات وتعبيرات وتراكيب •

(جـ) أننا مازلنا نعيش فى عصر المعاجم الفردية ، وهو عصر قد انتهى بالنسبة للمعاجم ، وحل محله عصر « المعاجم الجماعية » بعـد اتساع مجالات اللغة وتعدد استخداماتها العلمية والفنية • إن اخراج معجم فى القديم كان يعتمـد على لغة الشعر والأدب وهى لغة يمكن للمعجمى أن يدعى معرفته بها ، ولكن إخراج معجم فى الحديث يعتمد على لغة العلوم والآداب والمعارف المختلفة لا يمكن لباحث واحـد أو مجموعة صغيرة من الباحثين الإلمـام بها فضلا عن الإفتاء فيها ، ولم يعد المعجم الحـديث فى حاجـة الى لغويين فقط ولكن يجب أن ينضم اليهم متخصصون ومستشارون فى شتى فروع المعرفة وأمامنا معجم « وبستر » الأمريكى كنموذج لهذا التحول الكبير • فقد ضم الفريق الذى قام بالإشراف على طبعته الثالثة : رئيس تحرير ، وثلاثة عشر محررا مشاركا ، وستة وستين محررا مساعدا وكلهم من أساتذة الجامعات ، وحملة الدكتوراه فى التخصصات المختلفة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والنبـات والحيوان والديانات والآداب والتاريخ والمكتبات والفلسفة

والنظريات السياسية •• الخ • كما ضم مائتى مستشار خارجى وعددا غير محدود من الخبراء يعملون فى تخصصات مختلفة قد لا تخطر لنا على بال مثل معسكرات السمر ، والتسويق ، وصناعة الساعات ورصف الشوارع ، وإنتاج الزجاج ، والطيور المائية ، والحشرات والديدان ••• الخ ، مما جعل هذه اللجنة التى أخرجت المعجم أشبه بجامعة حديثة مصغرة •

(د) أن صناعة المعجم دخلت عالميا عصر الحاسبات الآلية ، ونحن مازلنا نستعمل الجمع والتصنيف اليدويين • لقد استخدمت الآلة فى اختزان المادة اللغوية حين يكون حجمها كبيرا ، وما أظن أن لغة أخرى — على وجه الأرض — تنافس لغتنا العربية فى ضخامة مادتها ، وامتداد تاريخها لبضعة عشر قرنا • وقد أمكن عن طريق الآلة حصر المادة بكل دقة ، والتصرف فى ترتيبها بطرق مختلفة ، و ضبط الإحالات ، والقيام بالتصنيفات النحوية والصرفية المختلفة وغيرها •

(هـ) والى جانب هذه المشكلات فقد تطورت صناعة المعجم عالميا من حيث الترتيب واختيار المداخل ، وكيفية عرض المادة ، وصارت له تقنيات وأسس محددة من حيث الشكل والموضوع • ومع ذلك فمازال معجمنا العربى مشدودا الى الماضى ومازال معجميونا حين يريدون وضع معجم حديث تشدهم تجربة العرب الموغلة فى القدم ، مما يبعدهم عن الاتجاهات الحديثة فى صناعة المعاجم •

٤ — أهم المحاولات لوضع معجم حديث

بذلت محاولات متعددة للتغلب على مشاكل المعجم العربى ، كما قدم كثيرون صورة للمعجم الحديث فى نظرهم • وهناك محاولات نظرية أو تطبيقية قدمها بعض الأفراد ، كما أن هناك محاولات قامت بها بعض المجامع اللغوية • وسنبدأ بمحاولات الأفراد ثم نثنى بمحاولات المجامع اللغوية •

أولا : محاولات الأفراد

أخذت هذه المحاولات أشكالا متعددة ربما كان أهمها :

١ — وضع منهجية جديدة للمعجم العربى •
٢ — تأليف المعاجم الميسرة •
٣ — إعادة ترتيب المعاجم القديمة ترتيبا سهلا •
٤ — معاجم المستشرقين •
وسنتناول كل محاولة من هذه المحاولات بالعرض السريع :

١ — أما وضع المنهجية الجديدة للمعجم العربى فقد قام بعبئه أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ — ١٨٨٧) الذى شغل نفسه بالعمل المعجمى منذ نعومة أظفاره • ومعظم آرائه عن المنهجية المعجمية تجدها فى مقدمة كتابه « الجاسوس على القاموس » وفى ثنايا نقداته للقاموس المحيط • كما أنه أشار الى بعضها فى كتابه « سر الليال فى القلب والإبدال » • ومن هذا وذاك يمكن أن نستخلص الأسس الآتية :

(أ) ترتيب المادة اللغوية :

يختار الشدياق ترتيب المادة اللغوية على الترتيب الهجائى العادى ، ثم يوازن بين طريقتى الصحاح وأساس البلاغة ويختار الثانية « فالأولى عندى ترتيب الأساس للزمخشرى والمصباح المنير للفيومى ، أعنى مراعاة

أوائل الألفاظ دون أواخرها » . ويرد على من يفضل طريقة الصحاح قائلا : « فإن قيل إن الترتيب على الأوائل لا يعين الشاعر على جمع الألفاظ التى تأتى على روى واحد ، فالأولى ترتيب الصحاح — قلت : الخطب هين . فعلى اللغويين أن يبينوا سرّ الوضع وعلى الشعراء أن يؤلفوا كتابا فى القوافى » (١) .

(ب) الترتيب الداخلى للمادة :

أكثر ما ضايق الشدياق فى المعاجم العربية غياب النسق فى عرض مفردات اللغة تحت المادة الواحدة . فما دامت المعاجم العربية قد اختارت طريقة الجذور فى ترتيب الكلمات ، وكانت هذه الطريقة تقتضى سرق العديد من الفروع والاشتقاقات تحت المدخل الواحد فقد كان من المنطقى أن تتفطن هذه المعاجم الى طريقة لترتيب هذه الفروع وهو ما لم تفعله . وقد سبق أن عرضنا أمثلة لغياب الترتيب الداخلى من مادتى « عرض » و « ظفر » . واقترح الشدياق للخروج من هذه الفوضى منهجا يقوم على أساسين هما :

١ — مراعاة جانب اللفظ بتقديم الثلاثى على الرباعى والرباعى على الخماسى . وفى كل حالة يقدم المجرد على المزيد ، ويبدأ بالفعل ، تليه مشتقاته .

٢ — مراعاة جانب المعنى عن طريق البدء بالحسى قبل المعنوى ، والحقيقى قبل المجازى ، واستيفاء معانى الكلمة قبل الانتقال الى كلمة أخرى (٢) .

(ج) صحة التعاريف :

يشترط الشدياق لصحة التعاريف شروطا ثلاثة هى :

---

(١) الجاسوس على القاموس ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) الجاسوس ص ١٠ ، ١١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، وسير الليالى س ١١ ، ١٢ ، ٦١ .

١ — وضوحها وعدم إيقاعها في لبس • وقد عد من عدم الوضوح غموض عبارة الشرح ، ولذات قسا على الفيروزابادى في مقدمة جاسوسه لأنه يبدل عبارة المعاجم الواضحة الى عبارة غامضة مبهمة • كما عد منه إيراد ألفاظ فى التعاريف لا ترد فى مظانها مع توقف المعنى عليها ، كقول الجوهرى فى « ربح » : « ربح فى تجـارته أى استشف » ولم يذكر استشف فى بابها • وعـد منـه كذلك ذكر اللفظ دون تفسـيره ، كقول الفيروزابـادى فى « صيف » : « صيفت الأرض كعنى فهـى مصيفـة ومصيوفة » • قال الشدياق : ولم يفسّره • وعبارة الصحاح : « صيفت الأرض فهى مصيفة ومصيوفة اذا أصابها مطر الصيف [1] •

٢ — تعدد طرقها عن طريق ذكر المرادف والمضاد ، ووضع الكلمة فى سياقاتها المختلفة ، ومن أمثلة ذلك ذكره كلمات الألوان التى تأتى وصفا للفظ الموت مثل :

الموت الأحمر : وهو أن يتغير بصر الرجل من الهول فيرى الدنيا فى عينيه حمراء وسوداء •

الموت الأغبر : وهو الموت جوعا ، لأنه يغبرّ فى عينيه كل شىء •

الموت الأسود : وهو الموت فى غمة المـاء •

الموت الأبيض : وهو موت العافية أو مـوت الفجأة لأنه يأخـذ الإنسان ببياض لونه [2] •

٣ — خلوها من الدور والتسلسل • وقد سبق أن ضربنا أمثلة على ذلك من ديوان الأدب والقاموس المحيط •

---

(١) الجاسوس ص ٣ ، ١٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، وسر الليال ص ٥٥ ، ٢٦٠ •

(٢) سر الليال ص ٣٣٧ •

(د) الوقوف عند اختصاص المعجم :

يرى الشدياق أن على المعجمى أن يقصر مادته على ألفاظ اللغة غير القياسية ولذلك اعتبر من قبيل التجاوز لوظيفة المعجم ما يأتى :

١ — ذكر المعلومات الموسوعية كخواص الأشياء ومنافعها مما حرص عليه صاحب القاموس كل الحرص مع أن موضعها كتب الطب لا كتب اللغة . وكذلك المعلومات الجغرافية والأعلام ..

٢ — ذكر المشتقات القياسية كإيراد المبنى للمجهول بعد المبنى للمعلوم مع أنه من المعروف أنه حيثما وجد المعلوم المتعدى وجد المجهول . وكذلك ذكر مصدر غير الثلاثى ، والنص على اسم المرة أو الهيئة أو الزمان أو المكان ..

٣ — ذكر ما هو من باب الفضول أو الاستطراد الذى لا فائدة فيه . وقد أخذ الشدياق معظم أمثلته من القاموس المحيط الذى بلغ الغاية فى ذلك حتى تجاوز كل حد . ومن ذلك ذكره ما كان من قبيل الخرافات مثل خرافة الرخ والجزائر الخالدات وذكره أسماء أصحاب الكهف ، وحديثه عن النسطورية والبطريق والإسكندر وغيرهم [1] .

(هـ) وضع اللفظ المشتبه أصله فى مظانه المختلفة :

هناك كلمات كثيرة فى اللغة العربية يشتبه أصلها ومعرفة جذرها على اللغوى المتخصص فضلا عن ابن اللغة العادى . وقد كان هذا النوع من الكلمات محل خلاف بين المعجميين ، ولذا اختلفت مواضعه فى المعاجم .

وكان رأى الشدياق وضع أمثال هـذه الكلمات حسب احتمالاتها

---

(١) الجاسوس ٣٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤١ ، ٣١٧ و ٣٩٦ — ٤٠٣ وسر الليال ص ٤٦ ، ٥٧ ، ٦٠٧ .

الممكنة فى مظانها المختلفة مع الربط بين هذه المظان . ومن أمثلة ما رأى وضعه فى أكثر من موضع الكلمات الآتية :

* كلمة « أثفية » التى توضع فى « أثف » و « ثفى » .
* كلمة « مكان » التى توضع فى « مكن » و « كون » .
* كلمة « ترجمان » التى توضع فى « ترجم » و « رجم » .
* كلمة « كبريت » التى توضع فى « كبرت » و « كبر » .
* كلمة « عفريت » التى توضع فى « عفرت » و « عفر » [1] .

(وانظر كذلك كلمات : أول — است — آنق — ذرية — بذىء — دكان — بستان — ربَّان — اللات — هات — لِدة — حاش (لله) وغيرها) [2] .

ويحدد الشدياق أصولا معينة يكثر الخلط فيها ، وهى المشتملة على علة يصعب ردها الى الواو أو الياء (انظر أبى ، وذرى ، وروح ، ورنا ، وشكا) أو المشتملة على همزة أو نون « فمزلقة الهمزة أن بعضهم يراها أصلية وبعضهم يراها منقلبة عن حرف علة . ومزلقة النون أطمّ وأعمّ فإنها تلتبس فى أوائل الألفاظ وأواسطها وأواخرها مثال الأول لفظ نرجس ، ومثال الثانى العنصر ومثال الثالث الربان والدكان والبرهان .. وما لا يحصى من نظائرها » [3] .

(و) وضع المعرّب تحت لفظه :

يرى الشدياق ضرورة وضع الكلمات المعرّبة تحت لفظها على اعتبار أن حروفها كلها أصلية . ولذا فهو ينتقد الفيروزابادى فى وضعه كلمة « استبرق » فى « برق » ، و « أرجوان » فى « رجو » . ويذكر الشدياق

---

(١) الجاسوس ص ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) الجاسوس ص ٣٧٢ وما بعدها .
(٣) الجاسوس ٣٣ ، ٣٨ ، ٢٨٦ ، ٣٧٢ .

أن حكم « سألتمونيها » لا يجرى على الألفاظ الأعجمية لأن حروفها كلها أصلية [١] .

(ز) بيان درجة اللفظ فى الاستعمال :

يرى الشدياق أن من وظيفة المعجم النص على درجة اللفظ فى الاستعمال فيقول : « من عادة المحققين من اللغويين أن ينبهوا على الفصيح من الكلام ، وعلى غير الفصيح ، وعلى الغريب ، والحوشى ، والمتروك ، والمهمل ، والمذموم واللثغة .. ونحو ذلك » . لذا عاب على صاحب القاموس إيراده الألفاظ إيرادا مطلقا من دون أن ينبه على درجتها [٢] .

٢ — وأما محاولة تأليف المعاجم الميسرة فقد قام بعبئها أول الأمر اللبنانيون . وقد كان للنهضة المباركة التى هزت العالم العربى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأدت الى انتشار المعاجم المطبوعة بين الناس [٣] ، وقيام بعض العلماء بنقدها [٤] ، أو الموازنة بينها ، والدعوة الى تأليف معجم حديث — كان لكل أولئك أثر حميد فى إيقاظ حمية بعض العلماء فتصدى نفر منهم لتحمل عبء وضع معجم حديث سهل .

---

(١) الجاسوس ص ٢٧ — ٣٠ .

(٢) الجاسوس ١٣٠ — ١٣٥ .

(٣) انظر عدنان الخطيب ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ وقد ذكر فى ص ٤٥ ، ٤٦ أن اول طبعة لصحاح الجوهرى ظهرت عام ١٨٦٥ م ، ولكتاب الرازى مختار الصحاح عام ١٨٧٠ م ، ولكتاب الفيروزابادى القاموس المحيط عام ١٨٧٢ ، ولكتاب الفيومى المصباح عام ١٨٧٦ م ولكتاب ابن منظور لسان العرب ، وكتاب الزمخشرى أساس البلاغة عام ١٨٨٢ م ، ولكتاب الزبيدى تاج العروس عام ١٨٨٩ م ، وبعد محاولة استمرت ما يقرب من عشرين سنة .

(٤) قبل مرور عشر سنوات على طبع القاموس المحيط مثلا اخرج أحمد فارس الشدياق كتابه الجاسوس على القاموس وذلك عام ١٨٨١ م .

ويلاحظ أن جميع الذين تصدوا لإخراج هذه المعاجم قد اختاروا الترتيب الهجائى العادى بحسب أوائل الكلمات ، ولكن رأى بعضهم — وهم قلة — أن يبقوا على الكلمات بدون تجريد • ويلاحظ كذلك أن كل هؤلاء جميعا قد اتجهوا نحو الاختصار والتركيز ، وحاولوا ترتيب المادة ترتيبا داخليا وتجنبوا عيوب المعاجم القديمة • ومنهم من زود معجمه بصور ورسوم زيادة فى الإيضاح • ومن أشهر هذه المعاجم :

(أ) « محيط المحيط » للعالم اللغوى بطرس البستانى ، وهو يعتمد أساسا على القاموس المحيط ، ولكن مع حذف وإضافة ، ومع تغيير نظامه الى الترتيب الهجائى العادى • وقد ظهر فى جزءين كبيرين وطبع عام ١٨٦٩ م •

(ب) « قطر المحيط » للمؤلف السابق • وقد ذكر أن هدفه من تأليفه « أن نضع فيها هذا المؤلف على وجه هين المراس سهل المأخذ ليكون للطلبة مصباحا يكشف لهم عما أشكل عليهم من مفردات اللغة ••• وقد سميناه بقطر المحيط ، لأن نسبته الى كتابنا المطول فى هذه الصناعة المسمى بمحيط المحيط توشك أن تكون كنسبة قطر الدائرة الى محيطها ••» •

(ج) « أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد » لسعيد الخورى الشرتونى وقد أخرجه أول الأمر فى جزءين عام ١٨٩٠ م ، ثم أضاف إليه فيما بعد جزءا ثالثاً بمثابة الذيل • وبرغم الجهود التى بذلها الشرتونى ليكون معجمه سليما من الأخطاء خاليا من العيوب لم يتحقق الكمال له • وقد أحصى الشيخ أحمد رضا هناته التى عثر عليها ونشرها فى ثلثمائة صفحة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق •

(د) وفى عام ١٩٠٨ أخرج الأب لويس معلوف اليسوعى (توفى ١٩٤٦ م) كتابه « المنجد » بقصد خدمة الناشئين • ولذا جاءت مادة الكتاب قريبة المأخذ ، سهلة التناول ، مع إيجاز غير مخل • وأعيد طبع المعجم عدة مرات مع زيادات واستدراكات فى كل مرة •

ومع ذلك لم يسلم المعجم من المـآخذ فتصدى بعض الغيورين على العربية الى بيان أوهامه وأخطائه اللغوية والتاريخية • ومما نشر فى ذلك مقالات لمنير العمـارى فى مجلة المعرفة الدمشقية ، وبحث بعنوان نظرة فى المنجد للأمير مصطفى الشهابى •

وفى طبعة عام ١٩٥٦ ألحق به الأب فردينان توتل اليسوعى قسما بعنوان « المنجد فى الأدب والعلوم » عنى فيه بالترجمة لأعلام الشرق والغرب وزينه بكثير من الصور والرسوم والخرائط (١) •

(هـ) « البستان » ، « وفاكهة البستان » وكلاهما لعبد الله البستانى ، وثانيهما اختصار لأولهما • وقد ظهر الأول فى مجلدين وطبع فى بيروت عام ١٩٣٠ م •

(و) وفى سنة ١٩٥٨ طبع « متن اللغة » للشيخ أحمد رضا فى خمسة أجزاء كبيرة ومقدمة طويلة بحث فيها عن مولد اللغـة وتطور اللغات إجمالا ، وعن نشأة اللغـة العربية وتطورها واختلاف لهجاتها ، وعن أوهام الأعلام وأغلاط أئمة اللغة • وألحق بمقدمة معجمه جداول متعددة للموازين والمقاييس والمكاييل وللكلمات المعربة حديثا (٢) •

(ز) الرائد لجبران مسعود ، وقـد صدرت أول طبعة منه عـام ١٩٦٥ م • وأهم ما يتميز به ترتيب الكلمات تحت حروفها المنطوقة بدون تفريق بين أصلى وزائد • وقد وضعه المؤلف وفى ذهنه خدمة الطلاب ، فهو أشبه بمعجم مدرسى منه بمرجع لغوى يمكن الاعتماد عليه والإشارة إليه فى المصـادر •

(ح) « المساعد » للأب انستاس مارى الكرملى ، وقد ظهر الجزء

---

(١) عدنان الخطيب ، ص ٥٢ ، وعبد السميع محمد : المعاجم العربية ص ١٧٩ — ١٨٥ بالاضافة الى معجم المنجد نفسه •

(٢) عدنان الخطيب ، ص ٥٣ ، ٥٤ •

الأول منه بعد وفاة مؤلفه بربع قرن بتحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجى (١٩٧٢) ٠

ويعد الكرملى أحد اللغويين المعاصرين القلائل الذين نافحوا عن اللغة العربية وبذلوا قصارى جهدهم فى إظهار فضلها ، وله فى ذلك ما يزيد على ألف مقالة ٠ وقد بدأ عمله فى معجمه عام ١٨٨٣ وظل يواصل العمل فيه حتى عام ١٩٤٦ ٠ وقد سماه أولا « ذيل لسان العرب » ثم عدل عن هذه التسمية وسماه « المســاعد » ٠

ومما ذكره الكرملى فى مقدمة المعجم نعلم أن الذى دفعه الى تأليفه ما لاحظه من خلو معاجم الأقــدمين والمولدين العصريين من كثير من الألفاظ الواردة فى دواوين الشعراء وكتب الأدب « فأخذنا منذ ذلك الحين بسد تلك الثغرة مدونين ما لا نجده فى كتب لساننا » ٠

وقد بنى معجمه على جملة أسس منها :

١ — ذكر مصدر الكلمة إن كانت دخيلة ، وأصلها الثنائى إن كانت عربيــة ٠

٢ — اذا أثبت لفظة لم ترد فى المعاجم أرفقها بمحل ورودها ٠

٣ — التنبيه الى الأغلاط التى انسلت الى لغتنا ٠

وقد توفى المؤلف بعد أن ترك المعجم مســودة مخطوطة بخطه فى خمسة مجلدات ضخام ٠

ومن الجديد فى هذا المعجم :

١ — تفسيره « الآبدة » فى اصطلاح عهد العباسيين بالداهية التى تفسد الدين أو المعتقد ٠ واستشهاده على هذا بما جاء فى « نهاية الأرب » للنويرى و « صبح الأعشى » للقلقشندى ٠

٢ — تصحيح استعمال « أبدا » مع الفعل الماضى بدلا من « قط » استشهادا بقول أبى الهندى :

أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما حرمتها أبدا

وليس أدل على ضخامة هذا المعجم من أن الجزء الأول منه قد انتهى بجزء من حرف الهمزة فقط .

٣ — وأما إعادة ترتيب المعاجم القديمة أو اختصارها فيدخل تحتها :

(أ) « ترتيب القاموس المحيط » للشيخ الطاهر أحمد الزاوى ، وقد رتبه على ترتيب المصباح المنير وأساس البلاغة ، وأخرجه فى أجزاء . وقد التزم فيه ترتيب الكلمات تحت أوائلها بدون تجريدها من الزوائد . يقول المؤلف فى مقدمته : « وقد ظهر لى أن القاموس يكون أكثر فائدة لطلاب العلم ، ويكون إقبالهم عليه أشد اذا أزيلت عنه هذه الصعوبة ، وقدم إليهم فى ثوب جديد بحيث يرتب على حروف أوائل الكلمات ... واعتبار حروف الكلمة المنطوق بها ، لا فرق بين زائد وأصلى . وبذلك يسهل عليهم الوصول الى ما قصدوا » [1] .

(ب) « مختار القاموس » للشيخ الزاوى كذلك . وقد رتبه على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير ، وقال عن هدفه فيه : « وقد جعلت نصب عينى أن أختصر من أجزاء القاموس الأربعة جزءا واحدا يسهل على الطالب استصحابه الى المدرسة أو الجامعة أو حيث يريد » . وقال عن منهجه : « وقد الجأتنى ضرورة الاختصار الى الاستغناء عن ذكر كثير من المواد التى لم يألفها المجتمع العام ولا تدعو الحاجة الى استعمالها . كما حذفت أسماء الأشخاص والبلدان والأماكن والحيوانات وصفاتها .. وحذفت أسماء النباتات — إلا فى القليل النادر — وخصائصها .. » [2] .

---

(١) مقدمة ترتيب القاموس صفحة « د » . وقد سبق الحديث عن اعادة ترتيب لسان العرب .

(٢) مقدمة مختار والقاموس ، ص ٦ .

(ج) « المختار من صحاح اللغة » تأليف الأستاذين محمد محيى الدين عبد الحميد ، ومحمد عبد اللطيف السبكى . وندع المؤلفين يشرحان مهمتهما ، وما يتميز به معجمهما :

١ — « يشتمل كتابنا هذا إذن على جميع المواد التى يشتمل عليها كتاب مختار الصحاح الذى ألفه الإمام الرازى ولم نحذف منه شيئاً كما فعل الذين قاموا على ترتيبه من رجال وزارة المعارف المصرية » .

٢ — « ضبطنا مفرداته ضبطا لا يبقى معه تردد لقارىء ولا مجال للبس على مبتدىء » .

٣ — « يشتمل على زيادة كثيرة هامة تبلغ مقدار نصف المختار » .

٤ — « رأينا أن نرتبه ترتيب الزمخشرى فى الأساس والفيومى فى المصباح ، لأنه أقرب الى الناشئة وأسهل عليهم » [١] .

(د) « الإفصاح فى فقه اللغة » للأستاذين حسن يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدى . وهو المعجم الوحيد من بين المعاجم الحديثة الذى اتبع نظام الموضوعات فى ترتيبه . ولا غرابة فى هذا فهو مبنى على كتاب « المخصص » لابن سيده ، ويعد فى جملته اختصارا له . وقد ذكر الأستاذ العقاد فى تقديم هـذا الكتاب أن « الإفصاح سيرحب به المحافظون لأنه تراث قديم يضن عليـه بأن يهجر فى زوايا النسيان ، وسيرحب به المجددون لأنه يختصر لهم طريق التنقيب عن المفردات ، وسيرحب به كل مشتغل بالترجمة فى علم أو أدب أو صناعة » .

أما المؤلفان فقد ذكرا السبب فى تأليف هذا المعجم ، كما بينا جهدهما فى تأليفه ، ويتلخص هذا وذاك فيما يأتى :

---

(١) مقدمة الطبعة الثانية صفحات و ، ز ، ح .

١ — من عيوب المخصص طوله واتساعه وكثرة شواهده المنظومة والمنثورة واستطراداته النحوية والصرفية ، مما جعله وقفا على الخواص ، ولذلك قاما باختصاره •

٢ — المعجم مبوب بحسب ما فى الكون كله من آثار فى الأرض ، وآيات فى السماء وبكل ما تحمل الدنيا ويدب فيها من إنسان أو حيوان أو طير أو نبات ، وما تحفل به بطنها من معدن ، أو ينتأ فوقها من صخر وكل ما يعمله الناس من صناعة أو زراعة أو تجارة أو فنون (١) •

٣ — قرأ المؤلفان القاموس المحيط وفقه اللغة للثعالبى واللسان والأساس وغيرها واستخلصا منها ما ند عن المخصص مما تمس الحاجه إليه •

٤ — التحلية بالصور الحيوان والنبات والشجر والطيور والسمك والحشرات والأدوات •

٥ — ألحق المؤلفان بالكتاب معجما للألفاظ مرتبا ترتيبا هجائيا على الحروف ليسهل الرجوع الى مادته (٢) •

ونلاحظ على عمل المؤلفين ما يأتى :

١ — أنهما لم يفصلا بين ما هو من كلام ابن سيده وما هو من إضافاتهما ، ولم يذكرا المرجع مع كل إضافة • ولو فعلا لأمكن توثيق المادة المضافة ، ولتبين مقدار ما أخذاه من كتب اللغة الأخرى •

٢ — برغم أن الكتاب يقع فى جزءين ضخمين مجموع صفحاتهما

---

(١) وقد قسم المؤلفان مادته الى ثلاثة وعشرين بابا بدأت بباب خلق الانسان وانتهت بباب فى الخلق والعالم وأصناف الأشياء وأحوالها •

(٢) وانظر مقدمة العقاد ، ومقدمة الطبعة الأولى والطبعة الثانية للمؤلفين •

١٣٩٦ صفحة فلم أجد فى الجزء الأول كله ويقع فى ٦٦٤ صفحة إلا بضعا وعشرين صورة . ومعنى هذا أن ما ذكره المؤلفان عن التحلية بالصور مبالغ فيه جدا بل يكاد يكون عديم القيمة .

٤ — أما معاجم المستشرقين فمن أشهرها :

(أ) محاولة فيشر المعجمية : وقد كان فيشر أحد كبار المستشرقين الألمان ، وحجة فى اللغات الشرقية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية وفارسية وغيرها . وقد شغل كرسى الدراسات العربية بليبزج منذ عام ١٨٩٩ (١) .

وقد عنى فيشر بالمعجم العربى منذ أخريات القرن الماضى وعاش معه نحو خمسين سنة . ويظهر أن محاولته عمل معجم تاريخى للغة العربية قد تأثر فيها بمعجم أكسفورد التاريخى الذى نشر قبل مولده بقليل . ولقد قضى نحو أربعين سنة فى جمع مادته وتنسيقها ، وحين عرضها على مجمع اللغة العربية فى مصر رحب بالفكرة ، وقد قررت الحكومة المصرية عام ١٩٣٦ السماح بإتمام عمله المعجمى فى القاهرة ، ووعدته بأن تتحمل نفقات طبعه ، وأمدته بمساعدين شبان لمعاونته فى القراءة والنسخ . ولكن الحرب العالمية الثانية قد اندلعت واضطر فيشر الى العودة الى وطنه . وتوزعت مواد معجمه بين مصر وألمانيا . وكان الأمل أن يعود فيشر بعد الحرب الى مصر ليتم ما بدأ إلا أن المرض أقعده ثم عاجلته المنية ، وتوفى عام ١٩٤٩ (٢) .

وقد حدثنا فيشر أنه عرض فكرة تأليف هذا المعجم أولا فى مؤتمر المستشرقين الألمان فى باسل Basel عام ١٩٠٧ ، ثم فى مؤتمرين آخرين

---

(١) المجمعيون ، ص ١٤٥ .

(٢) مقدمة مذكور لمعجم فيشر صفحة « هـ » ، ومقدمة فيشر ص ٢١ ، والمجمعيون ، ص ١٤٥ .

عالميين أحدهما عقد فى كوبنهاجن سنة ١٩٠٨ والآخر فى أثينا عام ١٩١٢ . كما حدثنا عن الصعوبات المادية الكثيرة التى كانت تواجهه فتوقفه عن العمل أو تصيبه بالفتور ، وعن عدم وجود ناشر ينفق على طبعه (١) .

وحاول المجمع أن يلم ما تفرق من جذاذات فيشر فلم يستطع الحصول على ما نقل منها الى ألمانيا ، ولاحظ أن ما بقى منها غير مكتمل ، ولم يجد ما يصلح للنشر منها سوى مقدمة أعدها المؤلف ، ونموذج من حرف الهمزة فطبعهما المجمع .

وقد شرح فيشر فى مقدمته النقص الظاهر فى المعجمات العربيـــة السابقة الذى يرجى لأجله تأليف معجم جديد كبير ، ورآه يتركز فى أن « المعجمات التى صنفها العرب لم تجمع كل كلمات اللغـــة العربية بل جمعت الفصيح منها فقط » ثم ذكر أن « منتهى الكمال لمعجم عصرى أن يكون معجما تاريخيا ، ويجب أن يحتوى المعجم التاريخى على كل كلمة تدوولت فى اللغة . فإن جميع الكلمات المتداولة فى لغة ما لها حقوق متساوية فيها .. ولكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظر هذه ، إذ إنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة » . واعتبر كذلك من عيوب المعاجم القديمة إغفالها كثيرا من الآداب النثرية مثل « قصص البطولة لأيام العرب وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب المغازى للواقدى ، وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبرى وغيرها من كتب الأدب القديمة . وقد حوى هذا الأدب المنثور كلمات وتراكيب كثيرة لا أثر لها فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر القديم ، وهو من بعض النواحى يقدم لنا صورة من اللغة العربية القديمة أحسن مما يقدمه الشعر » .

أما المنهج الذى رسمه فيشر لمعجمه فيتلخص فيما يأتى :

١ ــ الرجوع الى الواقع اللغوى المسجل ، والمحدد بعصور معينة

---

(١) مقدمة فيشر ، ص ٢٩ ــ ٣١ .

مع البدء بالكتابة المنقوشة المعروفة بنقوش النمارة من القرن الرابع الميلادى والانتهاء بنهاية القرن الثالث الهجرى ، وهو القرن الذى اعتبره المجمع اللغوى منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية الفصحى من كمال •

٢ — اشتمال المعجم على كل كلمة — بلا استثناء — وجدت فى اللغة •

٣ — ضرورة معالجة الكلمات من النواحى السبع التالية : التاريخية ، والاشتقاقية [١] ، والتصريفية [٢] ، والتعبيرية [٣] ، والنحوية ، والبيانية ، والأسلوبية [٤] •

وأهمية التناول التاريخى تبدو من أن اللغة دائمة التطور ، ولكل كلمة تطورها التاريخى الخاص • ولهذا يجب أن يوضح هـذا التطور التاريخى بمقتضى مالدينا من وسائل وإن كانت وسائل قاصرة •

والأهمية العظمى يجب أن تعطى للموضوع الذى وردت فيه الكلمة لأول مرة فى آداب اللغة • وكما يجب أن يعنى ببدء تطور الكلمة يجب أن يعنى بآخر تطورها ، وهل لاقت موتا فى الزمن القديم أو الحديث ، أو اندثر معنى من معانيها •••

٤ — مراعاة ترتيب المعانى المتعددة للكلمة بتقديم المعنى العام على الخاص والحسى على العقلى والحقيقى على المجازى ونحو ذلك •

٥ — تحديد المحيط اللغوى الذى تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو

---

(١) وتتناول توليد الكلمات وبحث أصول الكلمات وانسابها •
(٢) وتتناول تصريف الأفعال والأسماء •
(٣) وتتناول تحقيق معنى الكلمة او معانيها مع ترتيب المعانى والتفريق بين الحقيقى والمجازى منها •
(٤) وتحدد المحيط اللغوى الذى تستعمل فيه الكلمـة او التعبير او التركيب •

التركيب ، كلغة القرآن ولغة الحديث وأسلوب الشعر والنثر ، والأسلوب التاريخى وأسلوب الفنون وغيرها •

٦ — محاولة إتباع الشرح باللغة العربية بالترجمة المختصرة الإنجليزية أو الفرنسية زيادة فى الإيضاح ، وحتى تعين المستشرقين الذين لم يتمكنوا من اللغة العربية غاية التمكن •

ولكن اذا رجعنا الى النموذج الذى طبعه مجمع اللغة العربية نلاحظ أن المؤلف لم يلتزم أن يطبق فى هــذا النموذج المنهج التاريخى الذى ادعاه ولا التسلسل الزمنى لتطور الكلمة ، سواء من ناحية النطق أو الدلالة ، وإنما كل ما يزيده على المعاجم الأخرى (القديمة منها لا الحديثة) ترتيب مادة الكلمة ترتيبا داخليا ، وذكر المصادر التى تعرضت لعلاج هذه الكلمة • نعم ذكر فيشر عند علاجــه لكلمة الأوابد أنها وردت بمعنى المضحكات فى كشاف الزمخشرى من علماء القرن السادس الهجرى [1] • ولكن هل الزمخشرى حقا أول من استعملها ؟ واذا كان كذلك ، أفلا يتناقض هذا مع ما سبق ذكره من الوقوف عند القرن الثالث ؟ كذلك يرد فى أول المــادة مقارنة الكلمة بنظائرها الساميات كالأثيوبية والأكدية والعبرية والآرامية ، وهو جهد قيم يسجل للمؤلف بالتقدير •

(ب) معجم لين : أما اسم المؤلف فهو إدوارد وليم لين ، وقد ولد عام ١٨٠١ وتوفى عام ١٨٧٦ م • وأما الاسم الذى اختاره لمعجمه فهو « مد القاموس » وهو معجم عربى إنجليزى ضخم فى ثمانية أجزاء ، نشر خمسة منها فى حياة المؤلف وثلاثة بعد مماته • وهو ليس كسائر المعاجم المزدوجة اللغة تعطى الكلمة ومعناها ، وإنما هو أشبه بمعجم عربى مرفقة به ترجمة لمــادته باللغة الإنجليزية •

ويقول الأستاذ نجيب العقيقى عن هذا المعجم : « ومد القاموس

---

(١) وانظر : درويش : المعاجم العربية ، ص ١٤٦ •

جمع لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية المفردات من أمهات كتب الأدب ، مما لم يرد فى المعاجم القديمة أو معجمى جوليوس وفرايتاج ، ومنتخبات من القرآن الكريم ، بحيث أصبح قاعدة بنيت عليها معظم المعاجم العربية الأحدث عهدا باللغات الأوربية ، ومازال من أجود المعاجم المتداولة » (١)

ويقول الأستاذ آربرى (الرئيس السابق لقسم الدراسات الشرقية بجامعة كمبردج) : « إن هذا المعجم يعد أكثر خدمة قدمها أوربى للغة العربية » (٢) . ووصف فيشر المؤلف بقوله : « لين أعلم المستشرقين بالمعجمات العربية » (٣) .

أما عن مصادر لين فكانت المعجمات العربية التى ألفها العرب سواء المطبوعة منها والمخطوطة مما اتفق له الحصول عليها ، واعتمد أكثر ما اعتمد منها على تاج العروس للزبيدى (٤) .

وأهم نقص فى هذا المعجم أن مؤلفه مات قبل أن يتمه ، إذ لم يصل فيه إلا الى حرف القاف . وقد طرح فى اجتماع دولى للمستشرقين أمر إكماله واعتبر ذلك أمراً ذا أهمية خاصة ، حتى إن كريمر (توفى عام ١٩٦١) بدأ معجمه العربى — الألمانى — الإنجليزى من حرف القاف من أجل ذلك ، وظهر فى أربعة أجزاء (٥) .

ولكن يكفى لتصوير جهد المؤلف فى هذا المعجم أن نعلم أنه قصد مصر خصيصى من أجله ، وكان يعمل فيه بين اثنتى عشرة ساعة وأربع عشرة ساعة يومياً ، وأفرغ الخمس والعشرين سنة الأخيرة من حياته فى

---

(١) ٢/٤٨١ .
(٢) الاعلام مادة ادوارد وليم لين .
(٣) المعجم التاريخى ص ١٨ .
(٤) المرجع ص ١٩ ودائرة المعارف البريطانية مادة « Lane » .
(٥) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « Lane » . والمستشرقون للعقيقى ٢/٧٨٧ .

إنجازه • وقد كان لين الى جانب ذلك ممن يتقنون اللغة العربية كتابة وخطابة ، وقصد مصر أكثر من مرة ، وأعلن إسلامه ، وتسمى باسم منصور أفندى ، وتردد على الأزهر وسائر المساجد للصلاة وطلب العلم [١] •

(جـ) معجم دوزى أو تكملة المعاجم العربية : وهـذا المعجم فى الحقيقة يعد ذيلا على المعاجم العربية ، ذكر فيه مالم يجد له ذكراً فيها • وقد طبع المعجم فى مجلدين ضخمين بالعربية والفرنسية (ليدن ١٨٧٧ — ١٨٨١ م) وليدن — باريس ١٩٢٧ ، ثم أعادت مكتبة لبنان طبعه مصوراً بالأوفست فى بيروت (١٩٦٨) • وأخيراً قام بترجمـة قسم كبير منه الدكتور النعيمى •

ودوزى هو اسم الأسرة أما الاسم الشخصى فهو رينهارت ، وقد تعلم مبادىء العربية فى منزله ، فقد كان من أسرة تحب الاستشراق ثم واصـل دراستها بعد بجامعة ليدن ، وتعمق فى فهمها ، ودرس الشعر الجاهلى • وبرغم أن دوزى عاش فى هولندا فأصله فرنسى هاجر أسلافه من فرنسا الى هولندا فى منتصف القرن السابع عشر • وقد كان مولده عام ١٨٢٠ م ووفاته عام ١٨٨٣ م • وقد تولى إدارة مخطوطات مكتبة ليدن الشرقية ووضع فهرسين لها ، كما عين أستاذاً للعربية بجامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٧٨) وكان عضوا فى عديد من المجامع العلمية [٢] •

---

(١) العقيقى ٤٨٠/٢ •

(٢) المرجع السابق ٦٥٨/٢ — ٦٦٠ ، الأعلام ، مادة رينهارت دوزى ، ونيشر ص ٦ • وانظر ترجمة وافية له فى مقدمـة الترجمة للدكتور محمد سليم النعيمى •

ثانيا : محاولات المجامع اللغوية

انتوت كثير من المجامع اللغوية إخراج أنواع مختلفة من المعاجم تخدم أغراضاً خاصة ، وقد تحقق بعضها وظهر فعلا ، ولكن بعضاً آخر منها ما يزال فكرة أو مشروعاً لم يخرج الى حيز الوجود . وأهم هذه المجامع : مجمع اللغة العربية فى مصر ، والمكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية ، والذى يتخذ المغرب مقراً له ، والمجمع العلمى العربى بدمشق [1] ، وأخيراً مجمع اللغة العربية بالأردن .

أما مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقد نص فى مرسومه على أن من أهم أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية » وقد آخذ نفسه بذلك منذ البداية وكون فى دورته الأولى « لجنة المعجم » من كبار اللغويين العرب والمستعربين . كذلك جاء فى قانون إنشاء مجمع العربية (افتتح عام ١٩٣٤) أن من أهدافه وضع معجمات ثلاثة :

١ — معجم وجيز يقتصر على الألفاظ الكثيرة الدوران بمقدار ما يناسب الدراسات الأولى .

٢ — معجم وسيط يتوسع فيه ، مع الاقتصار على الألفاظ المستعملة فى فصيح الكلام تأليفاً وإنشاء بمقدار ما يناسب الدراسات الوسطى .

٣ — معجم بسيط يكون ديوانا عاما للغة ، جامعا شواردها وغريبها ، مبينا أطوار كلماتها وما طرأ على بعضها من توسع فى الاستعمال ، أو تغير فى المعنى فى عصور اللغة المختلفة .

كذلك جاء فى هذا القانون أن من أهدافه وضع معجمات صغيرة لمصطلحات العلوم والفنون وغيرها .

---

(١) تغير اسمه الآن الى مجمع اللغة العربية بدمشق .

ولم ينفذ المجمع بعد كل مشروعاته وإنما نفذ منها ما يأتى :

١ — المعجم الوسيط : وقد طبع ثلاث طبعات حتى الآن ظهرت أولاها عام ١٩٦١ فى جزءين كبيرين يحتويان على نحو ١١٠٠ صفحة من ثلاثة أعمدة ومن القطع الكبير ، ويشتمل على نحـو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة وستمائة صورة • وظهرت طبعته الأخيرة عام ١٩٨٥ •

وقد كان الغرض من تأليفه تدارك أخطاء السابقين فى تأليفهم ، وقصورهم فى الشرح والترتيب • فقد كان مما يعيب المعاجم القديمة — على غزارة مادتها وتنوع أساليبها — أنها لم تعد تواجـه العصر ولا مقتضياته ، لأن فى شروحها غموضاً ، وفى بعض تعاريفها خطأ ، وفى تبريبها لبساً • وقد وقف أصحاب المعاجم الى جانب ذلك عند حدود زمنية ضيقة ففقدت معاجمهم كثيراً من معالم الحيـاة والتطور • كذلك من شروط المعجم الحـديث أن يكون سهل المـأخذ واضحاً دقيقا مصوراً ما أمكن ، محكم التبويب • وهذا ما حاول المجمع تطبيقه بالفعل • ويمتاز هذا المعجم بترتيبه الهجائى العادى على حسب الأصول • كما يمتاز باشتماله على مصطلحات العلوم والفنون ، وضمه كثيراً من ألفاظ الحياة العامة ، واحتوائه على عديد من الألفاظ المولدة والمعربة حديثا • كما راعى المعجم قرارات المجمع المختلفة فى دوراته مثل قياسية صوغ المصدر الصناعى ، وقياسية تعدية الفعل الثلاثى بالهمزة ، وقياسية صوغ مطاوع فعل على تفعل وهكذا [١] • وفى سبيل الترتيب الداخلى روعى فى ترتيب الكلمات تقـديم الأفعال على الأسماء • والمجرد على المزيد ، والمعنى الحسى على العقلى ، والحقيقى على المجـازى ، والفعل الـلازم على المتعدى •• وهكذا •

---

(١) من الكلمات التى أقرها المجمع اللغوى ووردت فى الوسيط : كلمة قيم ومصدرها التقييم ، وكلمة فنان للشـاعر والأديب والرسام • وكلمة قاموس بمعنى معجم • وهناك كلمات كثيرة ورد بعدها الرمز (مج) وهو يعنى أنها كلمات مجمعية أقرها مجمع اللغة العربية •

وقد اكتشف المجمع بعض هنات فى معجمه تداركها فى طبعتيه الثانية والثالثة .

٢ ــ المعجم الكبير : ظهر منه جزءان فقط ، يشمل الأول منهما قسماً من حرف الهمزة . وقد ظهر الأول مرة عام ١٩٥٦ . وهو يسير على الترتيب الهجائى العادى بعد تجريد الكلمة من الزوائد . ويدل على الحجم الذى ينتظر أن يظهر فيه المعجم ذلك الجزء الذى يقع فى نحو ٤٢٨ صفحة (عدا الفهارس التى تقع فى ٩٠ صفحة والمقدمة التى تقع فى ٨ صفحات) ، ولم يصل إلا الى مادة « أخى » من حرف الهمزة .

وقد التزم المعجم ما يأتى :

١ ــ تصدير كل مادة بمعانيها الرئيسية إجمالا ثم يتناول كلا منها تفصيلا .

٢ ــ ذكر أصل المادة أو أصولها فى الساميات إن وجد ذلك .

٣ ــ رد الكلمات المأخوذة من لغات أجنبية الى أصولها .

٤ ــ ترتيب المادة بحسب المعانى الكبرى ، مع التدرج من المدلولات المادية الى المعنوية .

٥ ــ الاستشهاد بالشعر والنثر مع اختلاف العصور ، ومع الترتيب الزمنى بقدر الإمكان .

٦ ــ ذكر ما لابد من ذكره من الأعلام والتعريف بها فى إيجاز ، وكذلك أسماء الأمكنة .

٧ ــ الإشارة الى المرجع حين يكون ذلك مفيداً .

٨ ــ العناية بالضبط بالشكل (١) .

---

(١) راجع : مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما ص ١٥٦ ، وعبد السميع ، ص ١٨٧ وما بعدها ، ودرويش ص ١٤٧ وما بعدها ، والجزء الأول من المعجم .

وقد أعيد طبع الجزء الأول مؤخرا ونشرته دار المعارف بالقاهرة مع بعض تعديلات ، ومحاولة لتدارك أخطاء الطبعة الأولى •

٣ — معجم ألفاظ القرآن الكريم : وقد بدأ المجمع فى إخراجه تباعا منذ عام ١٩٥٣ حيث أصدر الجزء الأول منه ثم فى سنة ١٩٥٩ ظهر الجزء الثانى ، وفى سنة ١٩٦١ ظهر الجزء الثالث ووصل الى آخر حرف السين وقد انتهى طبع المعجم عام ١٩٧٠ ، وأعادت دار الشروق طبعه فى مجلد واحد • ويعد المجمع الآن لطبعة جديدة ، وألف لجنة لتعيد النظر فى تنسيق المعجم واستدراك ما فات فى الطبعات الأولى •

وهو مرتب على الترتيب الهجائى العـادى ويشرح ألفاظ القرآن شرحا لغويا مع بيان المزيد والمجرد والمصدر والمشتقات • واذا كان للفظ معان مختلفة قدمت الحسية على المعنوية ، ورتبت الأخيرة بحسب أهميتها وكثرة ورودها فى القرآن (١) •

٤ — مصطلحات العلوم والفنون : يقفة المجمع نحو ٧٠ ٪ من نشاطه فى جمع المصطلحات ومناقشتها وإقرارها • وقد أخرج قديمـا كراسات فى مصطلحات بعض العلوم ومنذ سنة ١٩٤٢ وهو يوالى إخراج مجموعات كبيرة كل عام تضم مصطلحاته التى يقرها المؤتمر السنوى وهى فى حدود الألفين تقريبا (٢) ، وقد ظهرت مجموعات كبيرة من هـذه المصطلحات تضم كل مجموعة مصطلحات علم أو فن معين ، كما يحرص المجمع على نشرها فى مجلته الدورية •

٥ — المعجم الوجيز : وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠ ، وهو معجم مدرسى كتب بروح العصر ولغته ويتلاءم مع مراحل التعليم العام • وأضيف فيه الى المـادة اللغوية التقليدية ما دعت إليـه الضرورة من

---

(١) مجمع اللغـة العربية فى خمسين عاما ص ١٤٨ وما بعدها مـع المعجم نفسـه •

(٢) المرجع ، ص ١٢٢ وما بعدها •

الألفاظ المولدة أو المستحدثة أو المعربة أو الدخيلة ، كما أورد طائفة من المصطلحات الشائعة التى يستعملها التلاميذ .

وقد رتب المعجم على حسب أصول الكلمات . ورتبت الأصول على حسب أوائلها . واختارت لجنة الوجيز من مادة الوسيط ما رأت فيه الوفاء بحاجة الطالب . وجاء مجموع ما حواه زهاء خمسة آلاف مادة ، صور منها ما يحتاج توضيحه الى تصوير من نحو نبات أو حيوان أو آلة ، فاشتمل على أكثر من ٦٠٠ صورة .

وراعت اللجنة جملة من القواعد تحقق الاختصار والترتيب الداخلى للمواد ، وظهر فى ٦٨٧ صفحة تحوى كل صفحة ثلاثة أعمدة (١) .

وأما المكتب الدائم لتنسيق التعريب (٢) فلم يوجه اهتمامه للمعاجم الشاملة ، وإنما لمعاجم المصطلحات ، وقام بمهمة التنسيق بين جهود العلماء فى التعريب .

وقد تأسس المكتب عام ١٩٦٩ وألحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٧٢ . ومنذ ذلك الحين وهو يصدر دورية منظمة باسم « اللسان العربى » يخصص من بين أجزائها جزءا لمشاريع المعاجم المنسقة الى جانب ما يطبعه طبعات مستقلة . وقد نشر المكتب من هذا القبيل عشرات من المعاجم المتخصصة معظمها ثلاثى اللغة (عربى — إنجليزى — فرنسى) تسهيلا لعمل الباحثين وتيسيرا لنشر المصطلحات التقنية والعلمية فى الوطن العربى .

---

(١) انظر تصدير الدكتور مدكور ومقدمته الأستاذ مصطفى حجازى للمعجم .

(٢) انظر مجلة اللسان العربى (العدد ١٧ ، الجزء الأول) الصفحات ٣٢٤ وما بعدها ففيها تعريف واف بمكتب تنسيق التعريب .

ولدى المكتب مشروعات كثيرة منها :

١ — إعداد معجم للألفاظ المنحدرة من أصل فصيح الى اللهجات العامية فى البلاد العربية •

٢ — إعداد معجم أحادى للغة للتعابير السياقية والاصطلاحية •

٣ — إنشاء بنك مركزى عربى للمصطلحات العلمية والتقنية •

٤ — إعداد معجم الألفاظ الفصيحة التى دخلت عربية العصر الحديث وهى عامية الأصل •

٥ — إعداد معجم للمعانى يجمع الحصيلة اللغوية فى كل علم وفن ، مما يمده به الكتاب والهيئات بقصد نشرها فى كتاب مستقل على الترتيب الموضوعى ، وقد أوصى مؤتمر التعريب المنعقد بالرباط من ٣ — ٧ أبريل سنة ١٩٦١ بوضع هذا المعجم ليكون عونا لأبناء العربية على العثور على الألفاظ الدقيقة لما يجول فى أذهانهم من المعانى والصور • وقد عرضت على مؤتمر التعريب الرابع (١٩٨٠) مجموعات من مصطلحات التعليم المهنى والتقنى فأقرها •

٦ — عمل معجم حى يجمع فى صورة مبسطة ومحددة المفردات العربية الجارية فى الاستعمال العربى السليم اليوم ومعانيها الراهنة تختار من الكتب الدراسية والجامعية والمؤلفات العلمية الحديثة وقوائم المصطلحات التى تنشرها المجامع اللغوية ومن الصحف والمجلات السائرة والقصص الجارية •

٧ — عمل معاجم ثنائية اللغة للمصطلحات العلمية والفنية والحضارية والمعربة •

وقد أنجز المكتب الدائم كثيراً من هذه المشروعات وبخاصة معاجم المصطلحات التى بدأ فى إنجازها ونشرها مثل معجم الفيزياء والرياضيات

(فرنسى — إنجليزى — عربى) والمعجم السياحى ، (فرنسى — إنجليزى — عربى) [١] ، وعشرات غيرها .

أما المجمع العلمى العربى بدمشق : فقد اتسعت أهدافه لتشمل مختلف العلوم الحديثة والقديمة ، واتجهت معظم جهوده المعجمية الى وضع المصطلحات العربية لكى تحل محل الألفاظ الأعجمية ، وإصدار قوائم لنقد لغة الصحافة والكتابة والمحادثة وتنقيتها من الشوائب . وله اتصال بالمجامع اللغوية الأخرى لتوحيد الجهود ولاسيما فى مجال المصطلحات [٢] .

---

(١) انظر مجلة « اللسان العربى » وهى مجلة يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالمغرب وقد ظهر منها أكثر من عشرين مجلدا ، يحتوى على جزءين أو ثلاثة أجزاء .

(٢) راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ٣٢ ، ج ١ ، سنة ١٩٥٧ م . صفحات ٧٢ — ٧٧ .

٥ — قائمـــة

بكلمات يصعب معرفة أصلها (*)

ائتلى = ألو — ألى	ادّخر = ذخر
آدم = أدم	ادّكر = ذكر
آل = أول	أرائك = أرك
آلاء = ألى	أرجاء = رجو
آية = أيا	أرجوان = رجو
إبليس = بلس	ازدهر = زهر
ابن = بنو	اضطرب = ضرب
اتّبع = تبع	اطّرد = طرد
اتخذ = أخذ	اطّير = طير
اتزر = أزر	أقّت = وقت
اتسم = وسم	أكَمة = أكم
اتقى = وقى	أكْمه = كمه
اثّاقل = ثقل	الله = أله
اثنان = ثنى	أُمّة = أمم
أجمّ = جمم	أَمَة = أمو
أخت = أخو	أمهات = أمم
أخ = أخو	أنبوب = نبب
ادّارك = درك	أودية = ودى

(*) الكلمات مرتبة بحسب نطقها لا اصلها . والهمزة مقدمة فيها على الألف .

آوْلى = ولى
أُولى = وول — وأل
أوّل = وول — وأل
بال (اسم) = بول
برّية = برأ
بلبل = بلل
بَنُو = بنى — بنو
بيهق = بهق
تارة = تور — تير
تترى = وتر
تجاه = وجه
تخمة = وخم
تراث = ورث
ترقوة = رقو — رقى — ترق

تعالى (الله) = علو
تقوى = وقى
تكلة = وكل
ثُبات = ثبو
ثَبات = ثبت
ثرى = (يائية)
ثقات = وثق
جبروت = جبر
جُدّة = جدد
جِدَة = وجد
جمجمة = جمم
جوهر = جهر

حادى (عدد) = وحد
حادى (الإبل) = حدو
حانوت = حنو
حسّان = حسس — حسن
حصاة = (يائية)
حماة = (واوية)
حوّاء = حوا
خنزير = خزر — خنزر
داء = دوأ
دم = دمى
دواء = دوأ
دوىّ = دوا
ديمومة = ديم — دمم
دِية = ودى
ذَرْ (أمر) = وذر
ذَرّ : ذرر
رُبّان = ربب
رحموت = رحم
رحى = (يائية)
رُمّان = رمم — رمن
رياح = روح
زكاة = (واوية)
زِن (أمر من زان) = زين
زِن (أمر من وزن) = وزن
سامَ = سوم
سامّ = سمم
سنا = (واوية)

سواء = سوىَ
سواسية = سوىَ
سية (القوس) = سيا
سِيَّان = سوى
شتَّان = شتت
شتى (متفرقة) = شتت
شتى (من الشتاء) = شتى
شجى = (يائية)
شذا = (واوية)
شفا = (واوية)
شفة = شفه — شفو
شكاة = (واوية)
شيطان = شيط — شطن
صار (يصور) = صور
صار (يصير) = صير
صبا = (واوية)
صدى = (يائية)
صفا = (واوية)
طلا = (واوية)
طوبى = طيب
عصا = (واوية)
عفَّان = عفن — عفف
عيد = عود
غداة = (واوية)
غضا = (واوية)
فِدْ (أمر من فاد) = فيد
فِدْ (أمر من وفد) = وفد

فِراء (جمع فرأ : حمار الوحش) = فرأ
فِراء (جمع فرو) = فرو
فلاة = (واوية)
قائل (من القول) = قول
قائل (من القيلولة) = قيل
قذاة = (يائية)
قرنفل = قرفل — قرنفل
قضاة = قضى
قفا = (واوية)
قلا (إنضاج الطعام على المقلاة) =
قلو
قلى (أ — إنضاج الطعام على المقلاة)
(ب — البغض والهجر) = قلىَ
قناة = (واوية)
كرة = كرو
كلتا = كلو — كلت
كوكب = ككب — كوكب
لا سيما = سوى
لثه = لثه — لثى — لوث
لِدَة = ولد

لظى = (يائية)
لغة = لغو — لغى
لهاة = (واوية)
مآب = أوب
مئات = مأو — مأى
ماء = موه

محيص (فعيل) = محص
محيص (مفعل) — حيص
مَدَاك = دوك
مدينة (فعيلة) مدن
مدينة (مفعلة) = دين
مسيح (مفعل) = سيح
مسيح (فعيل) = مسح
مشكاة = شكو
مصير (مفرد مصران) = مصر — صير
معين (ماء) = معن — عين
مقلات = قلت
مِقلاة = قلى
ملائكة = ملك — ألك — لأك
ملكوت = ملك

مهاة = (واوية)
مَرَات = موت
مَوَاتٍ = وتى
ميعاد = وعد
ميناء = ونى
نار = نور
نبىّ = نبو
نجاة = (واوية)
نرجس = رجس — نرجس
نَسا (عرق) = (واوية)
نيران = نور
هَبْ (أمر من وهب) = وهب
هب (أمر من هيب) = هيب
هب (أمر بمعنى احسب) = وهب
يحموم = حمم

الفصل الخامس

الدراسة المقارنة

من المشهور بين الباحثين أن الدراسة اللغوية المقارنة لم توجد إلا فى العصر الحديث ، وبعد اكتشاف اللغة السنسكريتية . يقول محمد الأنطاكى : « لم يفطن أحد الى وجود القرابة بين كل هذه الألسن ، ولم يظهر المنهج المقارن إلا بعد العثور على اللسان السنسكريتى » .

وهذه المقولة برغم شيوعها ليست صحيحة ، على الأقل بالنسبة للدراسات العربية . فقد وجدت منذ القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) دراسات مقارنة قام بها لغويون متخصصون ، ومعظمها تم فى المغرب والأندلس على يد لغويين يهود سجلوها باللغة العربية .

وأشهر عملين تما فى هذا الخصوص عملا ابن بارون وجودة بن قريش . وإن وجدت أعمال أخرى أقل قيمة كتلك التى قام بها أبو يوسف القرقسانى وداود بن إبراهيم [1] ، ودونائش بن تميم [2] .

أما ابن بارون فقد كان من يهود إسبانيا ، واسمه بالكامل أبو إبراهيم إسحاق بن بارون ، وقد كتب فى أواخر القرن الحادى عشر كتابه العظيم « كتاب الموازنة بين اللغة العبرية والعربية » [3] . وقد خصص الكتاب للدراسة المقارنة بين اللغتين من جانبى اللغة والنحو ، واهتم ببيان أوجه الشبه والخلاف .

---

(١) انظر : Literary History of Hebrew ص ١٦ ، ٢٣ .

(٢) انظر : Ibn Barun's Arabic Works ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ، مقدمة .

والكتاب مقسم الى قسمين • فالقسم الأول مخصص للنحو المقارن ، وأما القسم الثانى فيضم معجماً مرتبا ألفبائيا لجذور الكلمات الواردة فى الكتاب المقدس والتى لها مقابل عربى •

وتبعاً لعبده رتب ابن بارون القسم المعجمى (التالى لقسم النحو) ألفبائيا •

وقد بدأه بقوله : إن الجزء الأول من هذا الكتاب اذا كان قد خصص لمناقشة « رتبة التشارك » بين اللغتين من نواحى « النحو » ، « وتصرف الأفعال » ، وما اتصل بهما ، فإن الجزء الثانى سوف يحوى معجما يجمع كل الجذور التى نطقها ومعناها يتفقان فى كلتا اللغتين [١] •

وذكر ابن بارون أن هناك « ضروباً متقاربة بين اللغتين تشمل :

١ ـ التشابه فى الخط واللفظ والمعنى •

٢ ـ التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتشابهة المخارج •

٣ ـ التشابه نتيجة لتعاور الحروف المتجاورة •

٤ ـ التشابه نتيجة التصحيف » [٢] •

إلخ •• إلخ ••

وقد أشار ابن بارون الى بعض المعجميين العرب ومؤلفاتهم مثل العين للخليل بن أحمد ، والجمهرة لابن دريد ، والمجرد لكراع • كما أشار الى بعض النحاة العرب مثل المبرد ، والزجاج ، وابن الأنبارى •

ومن أمثلة المقارنة فى القسم النحوى ذكره :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤ •
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ — ٥٦ •

(أ) أن علامة التثنية والجمع فى العبرية بإضافة الميم ، وفى العربية بإضافة النون •

(ب) وأن العربية يوجد فيها تغيير إعرابى بخلاف العبرية •

(جـ) وأن العربية يوجد فيها جمع تكسير بخلاف العبرية •

ومن عناوين هذا القسم :

القول على مرتبة الاسم — القول على التثنية والجمع وما اتفق عليه اللغتان فى ذلك — القول فى التذكير والتأنيث — القول على الخواص التى تلحق الفعل ورتبة تصرف أبنيته المذكورة — القول على الأفعال المعتلة ورتبة تجانس اللغتين فيها — القول على أقسام الأفعال فى التعدى [1] •

وقد أعطى ابن بارون حكما عاما على اللغتين — وضم إليهما السريانية — فقال : « نرى اليوم اللغة العبرانية والعربية والسريانية متقاربات الاشتقاق والتصريف واللفظ لقرب مزاج أهلها ، لقربهم فى الإقليم •• فإنى أذكر منها ما وقع التوافق فيه خاصة » [2] :

وقد نشر المستشرق الروسى P. K. Kokovtsov (١٨٦١ — ١٩٤٢) فى سنة ١٨٩٣ القطع التى عثر عليها من هذا الكتاب فى مكتبة لننجراد الوطنية • وقدم للطبعة بمقدمة وملاحظات باللغة الروسية ، كما ألحق بها ترجمة روسية • وفى عام ١٩١٦ أعاد المستشرق السابق طبع كتاب •

---

(١) Ibn Barun's Arabic Works ص ٣ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ وغيرها •

(٢) كتاب الموازنة لابن بارون — تحقيق وتقديم «P. K. Kokovtsov» ص ٢٢ ، ٢٣ •

ابن بارون مع إضافة بعض القطع الجديدة التى عثر عليها ، ومع ترجمة كاملة باللغة الإنجليزية •

وأما جودة بن قريش التاهرتى فقد كان أسبق من ابن بارون بنحو قرن من الزمن ، وكان أول أمره طبيبا ازدهر فى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) •

وقد ترك ابن قريش عملا مكتوبا بالعربية قسمه الى ثلاثة أقسام ، وعالج فى قسم منه العلاقة بين العبرية والآرامية ، وفى قسم آخر العلاقة بين العبرية والعربية • وشبه العلاقة بين العبرية والآرامية « بفروع الشجرة الواحدة أو بعروق الجسد الواحد » • كما صرح بأن العربية والآرامية ليسا أجنبيين • وذكر أن العربية والعبرية نتجا عن أصل واحد وتفرعا نتيجة الخروج الى أماكن مختلفة والاختلاط بلغـــات أخرى ، والاقتراض منها • وأصدر حكمه على اللغات الثلاثة بقوله : « العبرية والآرامية والعربية قد صيغت — بالطبيعة — بطريقة واحدة » •

ومن أهم القضايا التى تناولها ابن قريش الى جانب ذلك :

١ — شرحه لتقابلات الأصوات الساكنة فى كل من العبرية والآرامية والعربية ، ســـواء وقعت فى أوائل الكلمات ، أو فى أواخرهـــا • وقد وضع كل ذلك فى ترتيب ألفبائى حتى يمكن لمن أراد حرفا معينا أن يجده فى مكانه •

٢ — تناوله للأصوات الصفيرية ، وذكر السبب فى تعرضها الواسع المتبـــادل •

٣ — تخصيصه بابا لعلاج الجذور العربية والعبرية التى تتطابق أو تتشارك فى أصل أو أصلين ساكنين •

٤ — إظهاره الملامح المشتركة بين العربية والعبرية والآرامية في تصريف الأفعال .

ولهذا يقول بعض الباحثين : « لا يعد مبالغة أن نزعم أن ابن قريش يعد بحق أبا للدراسات اللغوية السامية المقارنة على الرغم من أن ملاحظاته كانت عرضية ، أكثر منها مؤسسة على دراسة مستفيضة لتركيب كل من اللغات الثلاث » (١) .

(١) انظر : Literary History of Hebrew الصفحات ١٧ — ١٩ .

الباب الثالث

قضية التأثير والتأثر

تمهيـد

ليس من السهل ونحن نبحث قضية التأثير والتأثر أن نصل الى نتائج قطعية حاسمة ، لأن مشكلة التأثير والتأثر من المشكلات الشائكة التى يصعب علاجها ، وخصوصاً اذا كانت تتناول موضوعا مضى عليـه مئات السنين • وربما كانت قضية التأثر الأجنبى بالدرس اللغوى عند العرب أسهل تناولا من قضية التأثير الأجنبى وأقوى أدلة ، لأن التأثر قد تم فى فترة متأخرة نسبيا ، ولأن الأمثلة والشواهد على وجـود هـذا التأثر كثيرة وشبه قطعية •

ويجب أولا وقبل أن نبدأ دراستنا لهذه القضية أن ننبه الى أمرين :

١ — أنه لا يصح — حين يجد الباحث تشابها بين عملين — أن يعول على مجرد السبق الزمنى ويتخذه دليلا على تأثير السابق فى اللاحق • فالعقل البشرى هو العقل البشرى فى أى بقعة من أنحاء العالم • وما يهتدى إليه المرء فى بلد قد يهتدى إليه آخر فى بلد آخر دون أن يطلع على ما انتهى إليه غيره • وقد يتشابه العملان أو يتطابقان ويظل كل منهما أصـلا فى ذاته [1] •

٢ — أن كثيرا من الأحكام التى أطلقت حول قضية التأثير والتأثر قد أثبتت الأيام خطأها — أو على الأقل قدمت ما يشكك فيها • ومن ذلك ما كان يظن من أسبقية الهنـود فى علم الفلك ، وقـد قال غوستاف

---

(١) من ذلك ما لا حظه العلماء فى مجال الفلك من وجود تطابق بين الهنود والعرب فى تقسيم منازل القمر • وقد نفى وليم جونز أى صلة بين العملين ورأى اتفاقهما بمحض الصدفة •
(انظر : On the Indian and Arabian Division of the zodiac ص ٢٨١ — ٢٨٣) •

لوبون فى ذلك : « ما كان يقال حول قدم علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار ، قد أهمل تجاه الدراسات التامة ، فأصبحت هـذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد » [١] بل أكثر من هذا يرى غوستاف لوبون أن القضية بالعكس وأن هناك قسماً كبيراً من المعارف العلميـة قد نقله المسلمون الى الهند أو الصين ثم عده الأوربيون فيما بعد من أصل هندوسى أو صينى [٢] .

(١) حضارة الهند ، ص ٥٤٧ .
(٢) حضارة العرب ، ص ٥٦٤ .

الفصل الأول

احتمالات التأثير الأجنبى

ليس هناك احتمال لوجود تأثير هندى على فن المعاجم العربية ، بل العكس هو الاحتمال القائم • يقول Haywood : « ومن العدل أن نقول إن فترة النشاط المعجمى الكبير فى الهند كانت فى القرن الثانى عشر ، وهو وقت كان العرب فيه قد أنتجوا بعضا من معاجمهم العظيمة • والنظام المثالى لم يوجد مطلقاً فى معاجم الهنود • ربما بسبب الصياغة الشعرية ، أو ربما لأن المعاجم كانت تهدف عندهم الى تيسير حفظها عن ظهر قلب » (١) • ولا ندرى كيف يكون الهنود — كما يزعم الدكتور محمد إسماعيل الندوى — قد أثروا « فى وضع المناهج للقواميس العربية » (٢) ، ولم يكن لديهم هم أنفسهم مناهج للقواميس الهندية ؟ بل لم يكن أى من معاجمهم قد حقق النموذج الذى يجدر احتذاؤه • يقول Haywood : « هل الأعمال المعجمية عند الهنود تسمى معاجم ؟ هذه نقطة محل مناقشة » (٣) • ويقول Weber : « إن المعاجم السنسكريتية بالمعنى العلمى لم تظهر إلا فى وقت متأخر » (٤) •

وليست أسبقية العرب فى مجال المعاجم مقررة بالنسبة للهنود وحدهم بل بالنسبة للعالم أجمعه ، يقول Haywood ونحن نصر على أن نستشهد

---

(١) Arabic lexicography ص ٧ وانظر Winternitz فى تاريخ الادب الهندى ص ٥٥٤ .

(٢) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية — ص ١١٤ •

(٣) Arabic lexicography ص ٤ •

(٤) انظر The History of Indian literature ص ٢٢٧ •

برأى غير العرب حتى لا يتهم العالم بالتعصب إن كان عربيا — يقول : « الحقيقة أن العرب فى مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سـواء فى الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم والحـديث وبالنسبة للشرق والغرب » [١] • ويذكر المؤلف نفسـه فرقا أساسيا بين المعجم العربى وما سبقه من معاجم بقوله : « المعجم العربى منذ نشأته كان يهدف الى تسجيل المـادة اللغوية بطريقة منظمة ، وهـو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى ، التى كان هدفهـا شرح الكلمات النـادرة أو الصعبة » [٢] •

ولكن هناك احتمال — مجرد احتمال — بوجود تأثير هندى صوتى على الخليل لا يتجاوز الترتيب الصوتى للحروف الهجائية مع البدء بأعمقها مخرجا ، ولا يصح أن يبالغ فى مـدى هذا التأثير على نحو ما ، فيقـال مثلا إن هناك تأثيرا صوتيا بوجـه عـام على اللغويين العرب للأسباب الآتية :

(أ) أن الترتيب الصوتى عند الخليل — وغيره من اللغويين العرب — يختلف اختلافا كبيرا عن ترتيب الهنود • فقد ضمت الألفباء الهندية ٥١ حرفا وبدأت بالعلل (بدأ الخليل بالسواكن) ، واشتملت على رمـوز للعلل القصيرة (لا توجد فى الألفباء العربية) ، وعلى رموز للعلل البسيطة والمركبة (لا رموز للمركبة فى العربية) ، ووضعت أصوات الصفير فى آخر الحروف الساكنة (ما يقابلها فى العربية وهو ص — س — ز قد وضع فى مكان وسط) ، واعتبرت الأصوات ى — ر — ل من أشباه أصوات العلة ووضعتها متتالية بالترتيب السابق (فى حين أن الياء وضعت مع أحرف العلة فى ترتيب الخليل وفصلت الياء عن اللام والراء بالضاد فى ترتيب ابن جنى) [٣] •

---

(١) صفحة ٢ •

(٢) ص ٢ •

(٣) On the origin of the Indian Brahman Alphabet ص ٢٨ •

ومعنى هذا أن الخليل وإن كان من المحتمل أن يكون قد سمع بالترتيب الصوتى الهندى فقد خالفه حين التطبيق • ويبدو أنه اهتدى بذوقه وحسه الفطرى الى الترتيب الذى توصل إليه • ويؤيد ذلك ما جاء فى مقدمة العين عن كيفية اهتداء الخليل الى هذا النظام ، ونصه : « فدبر ونظر الى الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق • وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو أب — أت — أح — أع — أغ فوجد العين أدخل الحروف فى الحلق فجعلها فى أول الكتاب ، ثم قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم » (١) • كما يشرح الليث كيف وردت الفكرة الى ذهن الخليل ، وكيف قلب النظر فيها حتى انتهى إليها وأخرجها الى حيز الوجود فيقول إن الخليل حين ورد عليه خراسان فاتحه فى ذلك الفكرة التى كان من الصعب على العقل العادى إدراكها « فجعلت أستفهمه ويصف لى ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه فى هذا المعنى أياما ، ثم اعتل وحججت ، فرجعت من الحج فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما فى صدر هذا الكتاب » (٢) • ومما يدل على أن العرب لم يكونوا ناقلين بل مجتهدين ما نراه من خلافات بينهم فى ترتيب الأحرف العربية ، فترتيب الخليل غير ترتيب سيبويه ، وترتيب ابن جنى يختلف قليلا عن ترتيب سيبويه (٣) •

(ب) أن دراسة الهنود للأصوات قد تميزت بوضع مقاييس محددة لأصوات اللين ، وتحديد وظيفة التجويف الحنجرى ، ودور الأوتار الصوتية فى إحداث الجهر والهمس • كما تميزت بدراسة المقطع ومواضع النبر • ولا نجد لهذا نظيرا عند اللغويين العرب •

---

(١) العين ١/٥٢ •
(٢) المعاجم العربية لدرويش ص ٧٤ •
(٣) العين ١/٥٣ ، سر صناعة الاعراب لابن جنى ١/٥٠ ، ٥١ •

(ج) أن الهنود كانوا ينظرون الى الدراسة الصوتية على أنها فرع مستقل من فروع علم اللغة فى حين أن اللغويين العرب اعتبروها دراسة تابعة • وأول مؤلف مستقل فى الأصوات عند العرب لم يظهر إلا على يد ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى •

كما لا يصح أن يقلل من جهد الخليل فى معجمه العين • فعلى فرض أخذه الأساس الصوتى عن الهنود فله فضل تطبيقه فى لغة أخرى ، كما أن أصالته تظهر فيما يأتى :

(أ) جمعه المـادة اللغوية بالطريقة الإحصائية التى سبق ذكرها ، مع حرصه على الشمول •

(ب) التقسيم الكمى الذى اتبعه وتفريقه بين الصحاح والعلل •

(ج) شرحه الكلمات شرحا دقيقا والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر •

ثم إن عملية الترتيب الهجائى فى حد ذاتها لم تكن شيئاً جديدا على العقلية العربية ، فقد كان العرب يستخدمون الترتيب الأبجدى : أبجد هوز الى أن استخدموا الترتيب الألفبائى الذى وضعه نصر بن عاصم ورتب الحروف فيه ترتيباً جديدا اقتضاه وضـع الحروف المتشابهة فى الصورة متجاورة ، والبدء بالثلاثيات ثم الثنائيات ثم المفردات التى لا أشباه لها ، وتركت الهمزة أولا كما كانت فى النظام القديم •

أما فى مجال النحو فهناك تشـابه فى بعض الجزئيات بين الهنود والعرب مثل :

(أ)تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف •

(ب) التمييز بين الحروف الأصلية (الجذر أو الأصل) والحروف المزيدة •

(جـ) الاهتداء الى نوع من الأسماء يجمع خصائص الاسم والفعل وتسميته « اسم الفعل » .

(د) الاختلاف حول الحروف وهل لها معنى فى ذاتها أو فى غيرها [١]. ولكن أمثال هذه الجزئيات موجـودة فى لغات كثيرة ، وبعضها تفرضه طبيعة اللغة موضوع الدراسـة .

أما ما يحاول الدكتور أيوب إثباته من وجود تأثير هندى فى المنهج والتبويب على كتاب سيبويه ، وأن ذلك يتمثل فى العناية بدراسة الأصوات ومخارجها ، وعدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية [٢] — فمن الممكن مناقشته بما يأتى :

(أ) أن هذه الدعوى مبنية على أساس وجود مدرسة نحوية هندية واحدة ، أو اتجاه نحوى هندى واحد ، وهذا خلاف الواقع . فالمدارس النحوية الهندية متعددة ، ومناهجها مختلفة . وقد أحصينا نحـو عشر مدارس هندية فى الفترة التى سبقت أو عاصرت نشأة الدراسة اللغوية عند العرب فى مؤلفنا « البحث اللغوى عند الهنود » فارجع إليها .

(ب) وحتى اذا كان الدكتور أيوب حين تحدث عن مميزات الدراسة النحوية الهندية يعنى خصائص المدرسة البانينية التى كتبت لها الشهرة على سائر المدارس الهندية ، فليس هناك وجه شبه بين منهج هذه المدرسـة ومنهج سيبويه فى الكتاب ، أو منهج أى نحوى عربى جاء بعد سيبويه حتى يومنا الحاضر . وأمامنا كتاب بانينى المشهور المسمى Ashtadhyayi ينطق بذلك :

---

(١) تفصيل ذلك عند الهنود فى بحثنا بعنوان « البحث اللغوى عند الهنود » فصلى علم النحو وعلم الاشتقاق .

(٢) راجع محاضراته على طلبة الليسانس بكلية دار العلوم ، عـام ١٩٦٨/٦٧ .

١ — فالكتاب مقسم الى ثمانية أقسام ، وكل قسم الى أربعة فصول ، وقدم الكتاب فى شكل قواعد مختصرة ، أو قوانين موجزة يبلغ مجموعها أربعة آلاف قاعدة .

٢ — يقدم القسم الأول من الكتاب تعريفات عامة وقواعد للشرح كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة . أما القسم الثانى فيعالج موضوع الإبدال وهدف التصريف ، وقواعد الجنس gender والعدد . ويتناول القسم الثالث موضوع اللواحق الأساسية . أما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان للواحق التى يمكن إضافتها للأصل غير الفعلى مكونة جذرا غير أساسى ولواحق تصريفية . ويتناول القسمان السادس والسابع بحوثا صرفية صوتية morphophonemic أما القسم الثامن فيتناول موضوعات متعددة .

٣ — لاقى الجانب الصوتى اهتماما من بانينى حتى صدر به كتابه . ففى الفصل الأول من القسم الأول (ص ٣ — ٦٨) يعالج أطوال الأصوات — الأصوات الأنفية — أنفية أصوات العلة اذا تسرب الهواء من الأنف — مخارج الأصوات فى الفم — كيفية إحداث الصوت عن طريق الاتصال الكامل لأعضاء النطق أو الاتصـــال البسيط ، أو للفتح الكامل أو الفتح البسيط — تقسيم الأصوات باعتبارات مختلفة — أشكال العلة وحصرها فى ١٨ صوتا — العلة المركبة — المقارنة بين العلل والســواكن — الإبدال وشروطه .

وهذا ما نفتقده فى كتاب سيبويه .

(جـ) أن النحو الهندى لم يتخلص من سلطان الفلسفة كما صرح الدكتور أيرب ، واعتبر ذلك فرقا أساسيا بين الهنود واليونانيين . يقول Chakravarti : « إن النحو السنسكريتى يعتبر نظاما قائما يعتمد الى حد كبير على المبادىء الفلسفية » . ويقول عن Bhartrhari إنه كان لديه « المقدرة على شرح النحو من نقطة فلسفية محضة . وعلى يديه أصبح النحو يعالج على أنه نظام مطرد من الفلسفة » . ويقول : « يعد باتنجالى

وبهارتر هارى من أعظم النحاة الهنود • ويستحقان احترامنا باعتبارهما مؤسسى فرع (فلسفة النحو) إن ما فعلاه يعد أهم مما قام به أفلاطون وأرسطو لعلم الفلسفة الخاص » [1] •

ولا أفهم كيف يظن ظانّ خلو النحــو الهندى من تأثير المنطق ، ويفترض أن الصبغة المنطقية فى نحو المتأخرين جاءت عن طريق الإغريق ؟ إن المنطق — كما يقال — علم كل العلوم Science of all Sciences وللمنطق قضاياه المسلمة التى لا تخص علم المنطق وحده ، وإنما تصلح للتطبيق كذلك فى فروع أخرى من العلم ، لمــا لها من قيمة لا تقبل الجدل •

ومن يرجع الى بعض المناقشات النحوية عند الهنود يجدها فلسفة صرفا ، كخلافهم حول ما اذا كان هناك ما يمكن أن يسمى بالزمن الحاضر • كما أن من يرجع الى آرائهم حول أنواع الدلالات للكلمة يرى بوضوح سلطان الفلسفة والمنطق عليهم •

(د) ولست أخيرا مع الدكتور أيوب فى قوله إن كتاب سيبويه يخالف المتأخرين من ناحية عــدم تأثره بالمنطق ، وعــدم اهتمامه بالنظريات والتقسيمات العقلية ؟ ماذا يبقى فى أى كتاب للنحو إذن لو جردناه من النظريات ، ونحينا جانبا ما فيه من تقسيمات عقلية ؟ أليس المنطق هو المسئول عن إعراب الخليل وسيبويه الفعل المضارع بعد فاء السببية وواو المعيــة منصوبا بأن مضمرة ؟ ألم يكن الخليل يثير كثيرا من المناقشات اللفظية ويطبق قواعده على أمثلة لم ترد عن العرب ؟ أليس منع سيبويه العطف على معمولى عاملين مختلفين من آثار الفلسفة ، ونتيجة لتحرجه من القول بتسلط عاملين مختلفين على معمول واحــد ، لئلا يلزم أن يكون المعمول منصوبا مرفوعاً مثلا ، مع أنه لا يجتمع الضدان فى محل ؟ أو

---

(1) The philosophy of Sanskrit grammar ص ١٣، ٣٠، ٣٨ •

ليس رفض سيبويه العبارة « قام ومضى المحمودون » مع ورودها عن العرب — حتى لا يكون الفاعل الواحد فاعلا لفعلين — تغليبا للقاعدة الفلسفية التى تمنع اجتماع مؤثرين على أثر واحد ؟

اليونان :

ليس هناك مجال للقول بتأثير يونانى على العرب فى مجال الأصوات والمعجم • وما يقال عن تأثير يونانى مقصور على مجال النحو فقط •

وتتلخص الآراء حول هذه القضية فيما يأتى :

١ — وجود تأثير يونانى مباشر على النحو العربى منذ نشأته •

٢ — وجود تأثير يونانى غير مباشر — عن طريق السريان — على النحو العربى منذ نشأته •

٣ — وجود تأثير يونانى — سواء كان مباشرا أو غير مباشر — على النحو العربى فى مرحلة متأخرة لا تشمل مرحلة النشأة •

٤ — نفى التأثير اليونانى كلية •

وقد لخص ليتمان معظم هـذه الآراء فى قوله : « اختلف العلماء الأورباويون فى أصل هذا العلم ، فمنهم من قال إنه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون نبت فى أرض العرب •• ورأينا مذهب وسط ، وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء ، وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان •• تعلموا استنباط النحو » (١) •

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٣ •

ولم يتحدث أحد من الباحثين قبل Versteegh بصورة علمية عن التأثير اليونانى فى مرحلة النشأة • ويتلخص رأيه فى وجود تأثير يونانى مباشر على العرب فى الفترة المبكرة يتمثل فى النحو اليونانى السائد والفكر الرواقى نتيجة الاتصال المباشر بالثقافة الهيلينية • كما قال بوجود ارتباط بين أصول النحو العربى وأصول الطب اليونانى العلاجى [١] •

وأغلب الباحثين يذهبون الى القول بتأثير يونانى فى فترة متأخرة من فترات النحو العربى سواء كان التأثير مباشرا أو غير مباشر ، وسواء كان التأثير عن طريق النحو اليونانى أو المنطق اليونانى •

ويعد من أشد المتحمسين لاثبات التأثير اليونانى بشقيه النحوى والفلسفى الدكتور ابراهيم بيومى مدكور الذى نشر بحثا بمجلة الأزهر بعنوان « منطق أرسطو والنحو العربى » [٢] ، ذهب فيه الى تأثر النحو « بالمنطق الأرسطى من جانبين أحدهما موضوعى والآخر منهجى » ويمثل للموضوعى بتقسيم أرسطو الكلمة فى مقدمة كتاب « العبارة » الى اسم وفعل ، واشارته فى كتاب آخر له الى قسم ثالث هو الأداة • واذا انتقلنا الى كتاب سيبويه نجده يبدأ بتقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها تعريفاً يحاكى من بعض النواحى التعريف الأرسطى •

أما التأثير المنهجى فقد رآه فى اهتمام العرب بالقياس النحوى ، ومحاولة فلسفته والبحث عن أركانه وتحديد شرائطه • كما رآه فى مبدأ العلة الذى كان له شأن فى النحو العربى ، وفى المنطق الأرسطى ، وفى نظرية العامل النحوية التى هى وليدة مبدأ العلية الفلسفى •

---

(١) انظر : Greek Elements وبخاصة الفصول الأول الى الرابع .
وانظر عرضا لهذا الكتاب فى مجلة الحصاد ، كلية الآداب ، جامعة الكويت ، العدد الأول .

(٢) المجلد ٢٣ ، الجزء التاسع والعاشر ، رمضان وشوال ١٣٧١ هـ .

ونحن وإن كنا نسلم بتأثير المنطق والفلسفة (بوجه عام ولا نقصرهما على اليونانيين ، فقد كان للهنود كذلك منطق وفلسفة وكان لغير الهنود منطق وفلسفة) على النحو العربى ، فإننا نتردد كثيراً فى قبول الرأى القائل بوقوع النحو العربى تحت سيطرة الفلسفة اليونانية • ومجرد التشابه فى تقسيم أو أكثر ، أو فى بعض المصطلحات لا ينهض دليلا لاثبات مثل هذه الدعوى العريضة • وقد سبق أن رأينا مثلا أن أقسام الكلام موجودة كذلك عند الهنود ، ولاشك أنها موجودة أيضا عند شعوب أخرى • والأمر قد لا يخرج عن مجرد التشابه بطريق المصادفة ، أو عن التأثر الجزئى ابتداء من أواخر القرن الثالث حيث ظهرت الترجمات الأولى للأعمال الفلسفية اليونانية • ولا يصح أن نغفل فى هذا المقام التأثير المعتزلى على المناهج النحوية العربية وبخاصة على نظرية العامل (١) •

وتبقى قضية التأثير اليونانى عن طريق السريان ، وهى ما سنبحثها فى الفقرة التالية :

السريان :

يثبت الكثيرون وجود تأثير سريانى على النحو العربى ، سواء بطريق غير مباشر عن طريق الترجمات اليونانية التى تمت باللغة السريانية ، أو عن طريق الكتب النحوية التى وضعها السريان للغتهم •

---

(١) لمزيد بيان عن قضية التأثير اليونانى راجع : الى جانب ما سبق ذكره — الدكتور مهدى المخزومى فى كتابه « الخليل بن احمد الفراهيدى » ، والدكتور مازن المبارك فى كتابه« النحو العربى » ، ودائرة المعارف الاسلامية — مادة نحو ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، الجزء الثانى ، وتاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف دى بور وترجمة ابو ريدة ، ومدرسة البصرة النحوية للدكتور عبد الرحمن السيد • وانظر كذلك كتاب Versteegh السابق ذكره وبخاصة فى الفصل السادس (نفوذ المنطق اليونانى) والسابع (استخدام المنطق فى النحو) والثامن الذى خصصه للمعتزلة واثرهم على الفكر النحوى •

وقد سبق فى الفصل الثانى من الباب الأول أن عرضنا أهم جهود السريان اللغوية ، فليرجع القارىء إليها ليكون على ذكر بها .

وممن يثبت التأثير السريانى الدكتور ابراهيم مدكور فى مقاله السابق الاشارة اليه وفيه يقول : « من الثابت أن كتب أرسطو المنطقية .. كانت معروفة لدى السريان ، وقد ترجمت الى لغتهم قبل الإسلام . والمهم أنها ترجمت الى اللغة العربية منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى .. فهى إذن ثروة جديدة نقلت الى العالم العربى . ولابد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير إن من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية .. على أن هناك عملا مشابها تم على مقربة من نحاة العرب الأول وهو وضع النحو السريانى .. فى القرن السادس الميلادى ولاشك فى أن هذا النحو قد تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو . ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى ، وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين بن إسحاق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه .. ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل .. مع الخليل بعض القواعد النحوية » [1] .

ويرى جورجى زيدان نفس الرأى إذ يقول : « العرب يغلب على ظننا أنهم نسجوا فى تبويب النحو على منوال السريان لأن السريان دونوا نحوهم ، وألفوا فيه الكتب فى أواسط القرن الخامس الميلادى على يد يعقوب الرهاوى .. ويؤيد ذلك أن العرب بدءوا فى وضع النحو وهم بالعراق بين السريان والكلدان . وأقسام الكلام فى العربية هى نفس أقسامه فى السريانية » [2] .

---

(١) المجلد ٢٣ من مجلة الأزهر ، ص ٤٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٢٥١ .

وعلى الرغم من وجـود هذا الاحتمال بتأثير سريانى على النحـو العربى ، فلا يكفى — فى نظرنا — أن يتخذ مجرد السبق الزمنى ، أو التجاور المكانى ، أو التشابه الجزئى دليلا على وجـود تأثير وتأثر . ويبدو أن أولئك المولعين برد كل ما هو عربى الى أصـل أجنبى هم من تلك الفئـة من الباحثين التى تستكثر على العقلية العربية الاسـتقلال الفكرى ، وتنفى عنها الأصالة العلمية ، ويبدو أيضاً أن أولئك الباحثين قد ظنوا أن النحو العربى قد ولد ناضجا . لأنه جاءنا ناضجا ، فاتخذوا من ذلك دليلا على نقله من نحو أمة أخرى .

وقد سبق أن رأينا أن النحو العربى قد مر بمراحل تطويرية كثيرة قبل أن يصل الى مرحلة النضج ، وأن الفترة الزمنية بين نشأة النحـو وكتاب سيبويه تزيد على المـائة عام . وهى كافية جدا لخلق نحو عربى ناضج متطور بدون النقل الحرفى من نحو آخر .

واذا كنا قد ترددنا فى إثبات الأثر السريانى على النحـو العربى فيبـدو أن هناك نقطتين لا مجال لإنكار أثر السريان فيهما على العـرب وهمـا :

١ — أقدم مثل لتأثير السريانية على العربية هو الأبجدية النبطية التى استعارها العرب لكتابتهم . والخط النبطى مشتق من الآرامى . والإمـلاء العربى القديم قريب من الإملاء الآرامى ، ويظهـر ذلك فى الخط الكوفى .

٢ — نشأة الحركات الأعرابية فى فجر الإسلام ، التى ينسب وضعها الى أبى الأسود الدؤلى ، وهى فى الحقيقة مأخوذة عن السريان . فقد استخدم أبو الأسود طريقة الشكل بالنقط وكانت إحدى طرق الشكل عند السريان ، وهى الطريقة التى اتبعها النساطرة [١] .

---

(١) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

العبرانيــون :

المجال الوحيد لاحتمال التأثير العبرى على العرب فى مجال الدراسات اللغوية هو الترتيب المعجمى بحسب القافية أو الباب والفصل . وقــد سبق أن ذكرنا أن سعيدا الفيومى (ولد عام ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ وتوفى عام ٩٤٢ م = ٣٣١ هـ) قد وضع عملا معجميا أسماه Agron رتبه أو رتب قسما منــه — إذا أردنا الدقــة — على الأواخر . وأول من عرفناه من المعجميين العرب يرتب على الأواخر هو أبو بشر اليمان بن أبى اليمان (٢٠٠ — ٢٨٤ هـ) ثم أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابى (المتوفى ٣٥٠ او ٣٧٠ هـ) . فهل استفاد الفارابى من سعيد الفيومى ؟ أو هل ألف كل منهما معجمه بدون اتصال بالآخر ، وخصوصا أنها قد تعاصرا لفــترة طويلة ؟ أو هل هما متأثران بمعجم اليمان أو بمعجم أقدم منهما لم يصلنا أو تصلنا معلومات عنه ؟ احتمالات ليس فى إمكاننا ترجيح أحدها على الآخــر (١) .

---

(١) يبقى الصينيون وقد قال فى ذلك Haywood : « لا نظن أن الصينيين كان لهم تأثير على العرب » (ص ٦ — ٧) .

الفصل الثانى

احتمالات التأثير العربى

كما أن العرب قد تأثروا بغيرهم ممن سبقهم ، فقد أثروا فى غيرهم بعد أن تمثلوا الثقافات الأجنبية المتنوعة • وقد امتد تأثيرهم — أو احتمالات تأثيرهم على الأقل — الى شعوب كانت أسبق منهم فى الدرس اللغوى مثل الهنود ، والسريان ، والمصريين •

وهناك جانبان بارزان أثر فيهما العرب على غيرهم وهما : النحـو والمعجـم •

أولا — النحـو

بيدو أثر العرب واضحاً فى الدراسات النحوية الآتية :

١ — النحو السريانى :

بعد أن اتصل السريان بالعرب عندما دخل العرب بلادهم فاتحين ، وعدت اللغة العربية على لغتهم أثر ذلك على السريان فوضعوا نحوهم على نمط النحو العربى ، لأنه أقرب الى لغتهم من النحـو اليونانى • وكان النحاة السريان فى القرن الثانى عشر وما بعده يعكسون مناهج المدارس العربية الشهيرة فى البصرة والكوفة • وقد وضع ابن العبرى (ولد ١٢٢٦ م وتوفى ١٢٨٦ م) كتابا كبيرا فى النحو سماه « كتاب الأشعة » على غـرار كتاب المفصل للزمخشرى (توفى عام ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م) • ويلاحظ أن ابن العبرى فى كتابه كان يتبع تقسيمات النحاة العرب [١] •

---

(١) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ، ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

٢ — النحو القبطى :

تأثر النحاة الأقباط فى كتبهم النحوية بمجهودات العرب فى ذلك وأنت تخرج بهذه النتيجة بعد تصفحك لكتب النحو القبطية المتقدمة ، حيث تجد تشابها عجيبا بين المنهجين . فالكلمة عند « ابن كاتب قيصر » تنقسم الى اسم وفعل وحرف . والاسم هو الذى يخبر به أو يخبر عنه ، وهو ما دخله أحد (١) أدوات التعريف أو التنكير أو التذكير أو التأنيث أو الجمع أو ما أشبه ذلك .. والحرف ما دل على معنى فى غيره ولم يستقل بنفسه ولا يخبر به ولا يخبر عنه .. ومنها الحروف التى تدخل على المبتدأ والخبر وهى إن وأخواتها ... إلخ . فهل تصدق أنك تقرأ فى كتاب يعالج نحو اللغة القبطية ؟

ولم يكن هذا سبيل ابن كاتب قيصر وحده بل كان سبيل النحاة جميعا حتى ضاق بهم مؤلف قبطى آخر اسمه الشيخ الوجيه القليوبى فقال فى مقدمة كتابه المسمى « الكفاية » : « وقد وضع فى ذلك (النحو القبطى) مقدمات ، إلا أن المفسرين لغلبة أحكام تصريف اللغة العربية عليهم قاسوا أكثر أحكام القبطى عليها . وليس الأمر كذلك ، بل من شرط المخرج من لغة الى أخرى أن يجرد ذهنه عن اللغة الغالبة ، ويذهل عنها ثم يذوق اللغة المخرجة ويستحضر جميع أجزائها ، ويستقرى مواضع استعمال أدواتها » (٢) .

٣ — النحو العبرى :

نشير فى هذا المقام الى ما سبق أن ذكرناه فى الفصل الثانى من الباب الأول وملخصه :

(أ) ازدهار الدراسات اللغوية العبرية بعد ظهور الإسلام ، وكان النموذج العربى هو الذى احتذاه العبرانيون ثم طوروه .

---

(١) (كذا) وصحتها احدى .

(٢) تاريخ اللغة العربية فى مصر للمؤلف ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(ب) وجود شواهد مؤكدة أن النفوذ العربى كان موجودا حتى منذ اللحظة الأولى للنشاط اللغوى العبرى ، ويبدو ذلك فى أسماء الحركات الثلاث .

(ج) ظهور الثقافة العربية فى مؤلفات أبو يوسف القرقسانى النحوية الذى تتلمذ على مدارس بغداد .

(د) تأثير الثقافة العربية على مؤلفات يهوذا بن حيوج النحوية .

(هـ) تأليف أبو الوليد بن جناح لكتاب نحوى عبرى أسماه « اللمع » يسير على النمط العربى .

ثانيا — المعجم

١ — الهنود :

بالنسبة للهنود نشير الى ما سبق أن ذكرناه [١] من أن العرب يحتلون مكان المركز سواء فى الزمان أو المكان ، بالنسبة للعالمين القديم والحديث ، وبالنسبة للشرق والغرب . وما ذكرناه من أن فترة النشاط المعجمى الكبير فى الهند لم توجد إلا فى القرن الثانى عشر بعد إنتاج بعض المعاجم العربية العظيمة .

٢ — الترك :

هناك نوعان من التأثير يدخلان تحت هذا العنوان هما :

١ — ترجمة بعض المعاجم العربية الى التركية مثل ترجمة « الصحاح » التى قام بها قرة بيرى المتوفى عام ٨٨٦ هـ أو ٨٦٦ هـ والتى سماها « الترجمان » ومثل ترجمة المولى محمد بن مصطفى الكورانى المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ [٢] .

---

(١) صفحة ٣٤٤ .

(٢) مقدمة الصحاح ص ٢٠٨ .

٢ — تأليف بعض المعاجم التركية على نمط المعاجم العربية ، وأكتفى بأن أمثل بما يأتى :

(أ) ديوان لغات الترك : للكاشغرى الذى سار على نمط ديوان الأدب للفارابى . ومؤلفه هو محمود بن الحسين بن محمد الكاشغرى من أهل كاشغر على حدود الصين ، وقد توفى عام ٤٦٦ هـ [١] . والكتاب معجم يشرح الألفاظ التركية بعبارات عربية . ووجه الشبه واضح كل الوضوح بينه وبين ديوان الأدب سواء فى المقدمة أو ترتيب المادة ، وإن لم يشر الكاشغرى الى ذلك ، ولم يذكر اسم الفارابى . والموازنة التالية تكشف عن مدى التشابه بين الكتابين :

---

(١) الأعلام للزركلى .

المقــــدمة

ديوان الأدب

قال الفارابى : رتبت كل كلمة فجعلتها أولى بموضعها مما يقدمها أو يعقبها ليجدها المرتاد لهـا فى بقعة بعينها رابضة من غير نص مطية أو إدآب نفس .

قال الفارابى : جعلت كلّ كتاب من هذه الكتب شطرين أسماء وأفعالا وقدمت الأسماء فى أمثلتها وأبوابها على الأفعـال ثم تلوتهـا بالأفعـال مبـوبة على مراتبهـا ومدارجها مقدما الأحـق فالأحـق منهـا .

نبتدىء بالأسماء التى فى أواخرها الباء ثم نتجاوزها الى ما بعـدها حتى نأتى على حروف المعجم .

لم نذهب فى ذلك مذهب الخليل ابن أحمد ولم نرتب ترتيبه ميـلا الى الأشهر لقرب متناوله وسهولة مأخذه على الخاصة والعامة .

قال الفارابى : مشـتملا على تأليف لم أسبق إليه وسابقا بتصنيف لم أزاحم عليـه .

ديوان لغات الترك

قال الكاشـغرى : أنخت كل كلمة فى محلهـا ، وأنهضتها من عدوائهـا ليصـادفها فى مبركهـا طالبهـا ، ويرصدها فى مسلكهـا راغبها .

وقال الكاشـغرى : جعلت كل كتـاب من هـذه الكتب شريحين أسماء وأفعالا ، وقدمت الأسـماء على الأفعال ، ثم قفوتها بالأفعال مبوبة على مراتبها الأولى فالأولى.

وضعته مرتبا على ولاء حروف المعجم .

ولقد تخالج فى صدرى أن أبنى الكتاب كما بنى الخليل بن أحمد كتـاب العـين وأذكر المسـتعمل والمهمل .. إلا أن هـذا البنـاء أصوب لأن مأخذه أقرب .

قال الكاشغرى: برزت بتصنيف لم أسـبق إليـه وتأليف لم يوقف عليـه .

ديوان الأدب	ديوان لغات الترك
قال الفارابى : القول فى تقديم الحروف بعضها على بعض : نبتدىء بالأسماء التى فى آخرها الباء ثم نتجاوزها الى ما بعدها حتى نأتى على حروف المعجم .	وقال الكاشغرى : القول فى تقديم الحروف بعضها على بعض : نبتدىء بالأسماء التى فى أعجازها الباء ثم نمر الى ما بعدها حتى نستوفى حروف المعجم كلها اقتداء بأئمة الأدب ، وتشبيها فى البناء بلغات العرب .
قال الفارابى : قول آخر فيما ذكر فى الكتاب وفيما لم يذكر غير ذلك مما لا غنى عنه : كل ما كان من أسماء البلدان والأودية والجبال ...	قال الكاشغرى ، قول آخر فيما ذكر فى الكتاب أو لم يذكر : ما كان من أسماء الجبال والمهامه والأودية والمياه ... ذكرت التى فى بلاد الإسلام .

وكما نلاحظ هذا التشابه — الذى يدل على التأثر — فى مقدمتى المعجمين نلاحظه فى نظامهما . وجزء من هذا النظام قد شرحته المقدمة ونضيف الى ذلك :

(أ) تقسيم الفارابى معجمه الى ستة كتب هى السالم والمضاعف والمثال ، وذوات الثلاثة وذوات الأربعة والمهموز . وقد تبع الكاشغرى الفارابى فى التقسيم ، وفى استخدام المصطلحات حتى ذوات الثلاثة وذوات الأربعة ، وإن زاد عليه كتاب الغنة وكتاب الجمع بين الساكنين وهى زيادة اقتضتها طبيعة اللغة التركية .

(ب) التقسيم لكل كتاب الى شطرين ، شطر للأسماء وشطر للأفعال موجود فى كلا المعجمين .

(ج) تقسيم كل شطر بحسب التجرد والزيادة موجود فى كلا المعجمين .

(د) تذييل بعض الأبواب بأحكام تصريفية نجده عند الفارابى وعند الكاشغرى كذلك .

وعلى الرغم من أن الكاشغرى أهمل ذكر الفارابى فقد تنبه بروكلمان الى التشابه بين العملين وكانت إشارته هى السبب فى عقدنا هذه المقارنة (١) .

(ب) قاموس الأروام فى نظام الكلام : لمؤلفه شيخ الإسلام ملا صالح أفندى من علماء القرن الحادى عشر . وقد سار فيه على نظام الصحاح وجمع فيه الألفاظ التركية وفسرها بالعربية (٢) .

٣ — الفرس :

قام الفرس بترجمة بعض المعاجم العربية ووضع معاجم فارسية عربية على نمط بعض آخر .

١ — فمن المعاجم العربية المترجمة : « الصراح من الصحاح » وهو ترجمة لصحاح الجوهرى مع إبقاء الآيات والأحاديث والشعر والأمثال باللغة العربية ، وقام بهذه الترجمة أبو الفضل محمد بن خالد القرشى عام ٦٨١ هـ .

٢ — أما المعاجم العربية التى نسج على منوالها فأشهرها معجما الصحاح وديوان الأدب .

(أ) فقد ألف هندوشاه بن سنجر الكيرانى (كان حيا سنة ٧٣٠ هـ)

---

(١) يقول بروكلمان : « كان ديوان الأدب مثالا للكتاب الذى ألفه الكاشغرى وسماه ديوان لغات الترك » . (S, 1, 195)

(٢) مقدمة الصحاح ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

« صحاح العجم » على ترتيب صحاح الجوهرى وقال : « سميته بهذا الاسم لكونه على أسلوب صحاح العربية » (١) .

(ب) مصادر الزوزنى وهو معجم للمصادر مرتبة بحسب أبواب أفعالها ألفه القاضى أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ هـ وهو معجم عربى فارسى بدأ بمقدمة موجزة تحدث فيها المؤلف عن منهجه وذكر أنه تأثر « بديوان الأدب » .

(جـ) تاج المصادر لبو جعفرك المتوفى عام ٥٤٤ هـ . وهو معجم عربى فارسى يبدأ بذكر المصدر العربى ثم يذكر معناه باللغة الفارسية . والمصادر فيه مرتبة على أبواب أفعالها على النحو الذى فعله ديوان الأدب (٢) .

* * *

وأخيرا يجب ألا ننسى جانبين آخرين يظهر فيهما التأثير العربى بوضوح وهما :

١ — جانب الكتابة أو الحروف الهجائية العربية التى استعارتها كثير من الشعوب التى دخلت فى حكم الإسلام مثل الفرس والأتراك . وما يزال الفرس يكتبون بها لغتهم ، أما الأتراك فقد تركوها على يد مصطفى كمال أتاتورك واستبدلوا بها الحروف اللاتينية .

٢ — جانب العروض أو موسيقى الشعر وقوالبه . وقد ظهر التأثير العربى بوضوح فى الشعر الفارسى والسريانى يقول الدكتور على الشابى :

---

(١) المرجع ص ٢٠٧ ، ٢١٠ .

(٢) راجع « الفارابى اللغوى » ، رسالة ماجستير للمؤلفة ص ٣٤٥ وما بعدها .

« نشأ الشعر الفارسى متأثرا بالشعر العربى شكلا وموضوعا » ويقول عن « منو جهرى » الشاعر الفارسى الغنائى « كان للقصيدة العربية بمفهومها الفنى أثر واضح فى نشأة القصيدة الفارسية ... » ، ويقول بعد أن عرض نماذج لشعره : « إنها تعتبر أنموذجا حيا للقصيدة الفارسية من حيث تأثرها بالقصيدة العربية شكلا وموضوعا »[1] .

أما تأثر السريان فقد تمثل فى شكل محاكاتهم للعرب فى القوافى . وأول من أدخلها فى شعرهم يوحنا بن خلدون فى القرن الحادى عشر الميلادى[2] .

---

(١) الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) تاريخ اللغة السريانية لزاكية رشدى ص ٢٦٨ — ٢٧٠ .

المراجـــع

اولا : المراجع العربية

١ — الآداب السامية لمحمد عطية الابراشي — ط أولى ١٩٤٦ .

٢ — ابن الطيب الفاسي واثره في المعجم العربي — رسالة دكتوراه اعداد علي حسين البواب (مخطوطة) ١٩٧٨ .

٣ — ابنية الأسماء والمصادر لابن القطاع — مصورة دار الكتب المصرية ٦١١١ هـ .

٤ — ابو بكر الزبيدي وآثاره في النحو واللغة — نعمة رحيم العزاوي — بغداد ١٩٧٥ .

٥ — أبو علي الفارسي للدكتور عبد الفتاح شلبي — رسالة دكتوراه بمكتبة كلية دار العلوم .

٦ — الاتقان في علوم القرآن للسيوطي — مصر ١٣٠٦ .

٧ — احصاءات جـذور معجم لسان العرب — د . علي حلمي موسى — جامعة الكويت .

٨ — احياء النحو لابراهيم مصطفى — مصر ١٩٥١ .

٩ — اخبار النحويين البصريين للسيرافي — نشر كرينكو .

١٠ — الأدب الفارسي في العصر الغزنوي للدكتور علي الشابي — تونس ١٩٦٥

١١ — اساس البلاغة للزمخشري .

١٢ — أسباب حدوث الحروف لابن سينا تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مسير علم — دمشق ١٩٨٣ .

١٣ — الاستدراك على سيبويه للزبيدي — روما ١٨٩٠ .

١٤ — اسطورة الأبيـات الخمسين في كتاب سيبويه — للدكتور رمضان عبد التواب — مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٢ م ٤٩ .

١٥ — الأصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس — ط ثالثة .

١٦ ــ اصوات اللغة عند ابن سينا للدكتور ابراهيم أنيس — مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٧ يناير ١٩٦٣ .

١٧ ــ اضاءة الراموس للفاسى — مخطوطة دار الكتب المصرية ٥٠٠ لغة .

١٨ ــ الأضداد للأصمعى — بيروت ١٩١٣ .

١٩ ــ الأضداد لابن السكيت ولأبى حاتم — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٣٢ لغة تيمور .

٢٠ ــ اعجاز القرآن للباقلانى — تحقيق السيد أحمد صقر — دار المعارف .

٢١ ــ اعراب القرآن للنحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية ٤٨ تفسير ، وتحقيق الدكتور زهير غازى .

٢٢ ــ الافصاح فى فقه اللغة لعبد الفتاح الصعيدى وحسن يوسف موسى — ط ثانية .

٢٣ ــ الاقتراح فى علم أصول النحو للسيوطى — حيدر آباد ١٣١٠ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية .

٢٤ ــ اقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد للشرتونى .

٢٥ ــ انباه الرواة للقفطى — تحقيق أبو الفضل .

٢٦ ــ الانصاف فى مسائل الخلاف لابن الانبارى .

٢٧ ــ الانتصار لسيبويه من المبرد — مخطوط ٦٠٥ نحو تيمور بدار الكتب المصرية .

٢٨ ــ الانتصار لسيبويه من المبرد — مقال للدكتور احمد مختار عمر بمجلة كلية المعلمين — الجامعة الليبية — العدد الأول .

٢٩ ــ البارع فى اللغة لأبى على القالى — تحقيق هاشم الطعان — بيروت ١٩٧٥ .

٣٠ ــ البحث اللغوى عند الهنود — للدكتور احمد مختار عمر — دار الثقافة ببيروت .

٣١ — البحر المحيط لأبى حيان — القاهرة ١٣٢٨ .

٣٢ — البديع فى الشواذ لابن خالويه — القاهرة ١٩٣٤ .

٣٣ — البرهان فى علوم القرآن للزركشى — تحقيق أبو الفضل ابراهيم .

٣٤ — البستان لعبد الله البستانى .

٣٥ — بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ — مازن الوعر — مجلة المعرفة الدمشقية العدد ٢٣٤ — اغسطس ١٩٨١ .

٣٦ — بغية الوعاة للسيوطى .

٣٧ — بقايا اللهجات العربية — أنولتمان — مجلة كلية الآداب — مايو ١٩٤٨ .

٣٨ — البيان والتبيين للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون .

٣٩ — تاج المصادر لبو جعفرك — الهند ١٣٢٠ .

٤٠ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان — الهلال ١٩٥٧ .

٤١ — تاريخ الأدب العربى لبروكلمان — ترجمة عبد الحليم النجار ، الى جانب الأصل الألمانى .

٤٢ — تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية لمحمد اسماعيل الندوى — بيروت — ط أولى .

٤٣ — تاريخ اللغة السريانية — د . زاكية رشدى — مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة .

٤٤ — تاريخ اللغة العربية فى مصر — د. احمد مختار عمر — القاهرة ١٩٧٠ .

٤٥ — تحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب لأبى حيان — تحقيق د . احمد مطلوب وخديجة الحديثى — العراق ١٩٧٧ .

٤٦ — التذييل والتكميل فى شرح التسهيل لأبى حيان — مخطوطة دار الكتب المصرية ٦٠١٧ هـ .

٤٧ — ترتيب القاموس المحيط للشيخ الطاهر احمد الزاوى .

٤٨ — التطور النحوى للغة العربية لبرجشتراسر — القاهرة ١٩٨١ .

٤٩ — تعليق الفرائد لابن الدمامينى — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٠٠٩ نحـو .

٥٠ — التفاحة فى النحو لأبى جعفر النحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية ٦٨٠٢ هـ .

٥١ — التفكير الصوتى عند العرب لهنرى فليش — ترجمة د . عبد الصبور شاهين — مجلة مجمع اللغة العربية ١٩٦٨ .

٥٢ — التقفية فى اللغة لأبى بشر اليمان بن أبى اليمان — تحقيق د . خليل العطية — العراق ١٩٧٦ .

٥٣ — التكملة والذيل والصـلة للزبيـدى تحقيق مصطفى حجـازى — القاهرة ١٩٨٦ .

٥٤ — التكملة والذيل والصلة للصغانى تحقيق مجموعـة من الأساتذة — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٥٥ — تكملة المعاجم العربية — رينهارت دوزى — ترجمة محمد سليم النعيمى — العراق ١٩٧٨ .

٥٦ — تنقيح الألباب فى شرح غوامض الكتاب لابن خروف — مخطوطـة دار الكتب المصرية ٥٣٠ نحو تيمور .

٥٧ — تهذيب الصحاح للزنجانى — تحقيق عبد السـلام هارون وأحمـد عبد الغفور العطار .

٥٨ — تهذيب اللغة للأزهرى — تحقيق مجموعة من العلماء — ط القاهرة .

٥٩ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمـانى والخطابى والجرجانى — دار المعارف .

٦٠ — الجاسوس على القاموس لأحمـد فارس الشدياق — القسطنطينية ١٢٩٩ .

٦١ — الجمهرة بن دريد ، نشر كرنكو وآخر — حيدر آباد .

٦٢ — جهود ابن سينا فى اللغة والأصوات — د . احمد مختار عمر — مجلة البحث العلمى والتراث — مكة ١٤٠٢ هـ .

٦٣ — حاشية ابن الدماميني على المغنى — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٧٥٧ نحو .

٦٤ — الحجة لأبى على الفارسى — مصورة دار الكتب المصرية ٤٦٢ قراءات .

٦٥ — الحجة لابن خالويه — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٩٥٢٣ ب .

٦٦ — حضارة العرب لغوستاف لوبون — ترجمة عادل زعيتر — ١٩٦٤ .

٦٧ — حضارة الهند لغوستاف لوبون — ترجمة عادل زعيتر ١٩٤٨ .

٦٨ — الحيوان للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون .

٦٩ — خزانة الأدب للبغدادى — ط بولاق .

٧٠ — الخط العربى وتطوره لسهيلة الجبورى — بغداد ١٩٦٢ .

٧١ — الخليل بن احمد للدكتور مهدى المخزومى — بغداد ١٩٦٠ .

٧٢ — دائرة المعارف الاسلامية — الأصل الانجليزى والترجمة العربية .

٧٣ — دار المعاجم بأكسفورد — د . صفاء خلوصى — مجلة العربى — مايو ١٩٧٩ .

٧٤ — الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشرى — د . فاضل السامرائى — العراق ١٩٧١ .

٧٥ — دراسات فى القاموس المحيط — د . محمد مصطفى رضوان — ليبيا ١٩٧٣ .

٧٦ — دراسة السمع والكلام — د . سعد مصلوح — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٠ .

٧٧ — دروس فى علم اصوات العربية — جان كانتينو — ترجمة صالح القرمادى — تونس ١٩٦٦ .

٧٨ — دعوات الاصلاح للنحو العربى قبل ابن مضاء للدكتور احمد مختار عمر — مجلة الأزهر ، شعبان ١٣٨٧ .

٧٩ — دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم انيس .

٨٠ — ديوان الأدب للفارابى (الأجزاء ١ — ٤) — تحقيق د . أحمد مختار عمر — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٨١ — ديوان لغات الترك للكاشغرى — دار الخلافة العلية ١٣٣٣ .
٨٢ — ديوان النابغة الذبيانى — تحقيق د . شكرى فيصل — دار الفكر .
٨٣ — راى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية للأستاذ عباس حسن .
٨٤ — الرد على النحاة لابن مضاء ، تحقيق د . شوقى ضيف ١٩٤٧ .
٨٥ — رسالة الغفران للمعرى ، تحقيق د . بنت الشاطىء ١٩٥٠ .
٨٦ — رسالة الملائكة للمعرى ، تحقيق سليم الجندى ، دمشق ١٩٤٤ .
٨٧ — سر صناعة الاعراب لابن جنى — تحقيق مصطفى السقا وآخرين ١٩٥٤ .

٨٨ — سر الليال فى القلب والابدال لأحمد فارس الشدياق .
٨٩ — سيبويه امام النحاة — على النجدى ناصف ١٩٥٣ .
٩٠ — الشافية لابن الحاجب .
٩١ — شذا العرف فى فن الصرف للحملاوى .
٩٢ — شرح الاقتراح لابن علان ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٦٦٦ نحو تيمور .
٩٣ — شرح الألفية لابن عقيل .
٩٤ — شرح الألفية للأشمونى .
٩٥ — شرح الفية ابن معطى لابن الخباز ، مصورة دار الكتب المصرية ١٨٢٣ نحو .
٩٦ — شرح الجمل لابن عصفور ، مخطوط دار الكتب المصرية ٣٣٢ نحو تيمور .
٩٧ — شرح الجمل لابن الضائع ، مخطوط دار الكتب المصرية ١٩ نحو .
٩٨ — شرح ديوان الحماسة للمعرى ، مخطوط دار الكتب المصرية ٣٠٨ أدب .
٩٩ — شرح شذور الذهب لابن هشام ، بحاشية الأمير .
١٠٠ — شرح كفاية المتحفظ لابن الطيب الفاسى ، مخطوط دار الكتب المصرية ١٤ لغة ش .
١٠١ — شرح المعلقات لأبى جعفر النحاس مخطوطة المتحف البريطانى .
١٠٢ — شرح مفصل الزمخشرى لابن يعيش .

١٠٣ — الشفاء — فى النفس لابن سينا — لندن ١٩٥٩ .
١٠٤ — شمس العلوم لنشوان بن سعيد ، طبعتا ليدن والحلبى .
١٠٥ — الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ، القاهرة ١٩١٠ .
١٠٦ — صبح الأعشى للقلقشندى .
١٠٧ — الصحاح للجوهرى بطبعتيه .
١٠٨ — صحيح مسلم بشرح النووى — القاهرة ١٣٤٧ .
١٠٩ — ضحى الاسلام لأحمد امين ، ط سابعة .
١١٠ — الضرائر وما يجوز للشاعر دون الناثر للالوسى ، السلفية ١٣٤١ .
١١١ — طبقات النحويين واللغويين الزبيدى ، تحقيق أبى الفضل ابراهيم .
١١٢ — العباب الزاخر واللباب الفاخر للصغانى (حرف الغين) تحقيق محمد حسن آل ياسين — العراق ١٩٨٠ .
١١٣ — عبث الوليد للمعرى ، دمشق ١٩٣٦ .
١١٤ — العربية ليوهان فك . ترجمة د . عبد الحليم النجار ، دار الكتاب العربى ١٩٥١ .
١١٥ — علم اللغة للدكتور محمود السعران ، دار المعارف ١٩٦٢ .
١١٦ — علم اللغة العام ، القسم الثانى : الأصوات للدكتور كمال بشر — دار المعارف ١٩٧٠ .
١١٧ — العمدة لابن رشيق ، القاهرة ١٣٤٤ .
١١٨ — العمدة فى الجراحة — يعقوب بن اسحاق المعروف بابن القف — حيدر آباد — الجزء الأول — ط أولى .
١١٩ — العين للخليل بن احمد ، تحقيق د . عبد الله درويش ط بغداد . وتحقيق د . مهدى المخزومى و د . ابراهيم السامرائى ط ثانية .
١٢٠ — الغريب المصنف لأبى عبيد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ١٢١ لغة .
١٢١ — الفارابى اللغوى وتحقيق مقدمة معجمه ديوان الأدب للدكتور احمد مختار عمر ، مجلة معهد المخطوطات نوفمبر ١٩٦١ .
١٢٢ — الفهرست لابن النديم .

١٢٣ — فى اصول النحو لسعيد الأفغانى ، بيروت ١٩٦٣ .
١٢٤ — فى اللهجات العربية للدكتور ابراهيم انيس ، ط ثانية .
١٢٥ — القانون فى الطب لابن سينا — ط روما .
١٢٦ — القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة ، ط اولى ١٩٤٨ .
١٢٧ — قصة الكتابة العربية لابراهيم جمعه — سلسلة اقرأ .
١٢٨ — القلب والابدال لابن السكيت ، بيروت ١٩٠٣ .
١٢٩ — القواعد النحوية مادتها وطريقتها لعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٤٦ .
١٣٠ — القياس فى اللغة لمحمد الخضر حسين — السلفية ١٣٥٣ .
١٣١ — الكافية لابن الحاجب .
١٣٢ — كتاب التنبيه والايضاح لابن برى — الجزء الأول — تحقيق مصطفى حجازى — القاهرة ١٩٨٠ .
١٣٣ — كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى — تحقيق مجموعة من العلماء — مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
١٣٤ — كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى — فرنز ديم — الرياض ١٩٨٠ .
١٣٥ — الكتاب لسيبويه طبعة بولاق والطبعة التى حققها الأستاذ عبد السلام هارون .
١٣٦ — كتاب فى اصول اللغة ، مجمع اللغة العربية فى مصر ١٩٦٩ .
١٣٧ — كتاب ليس لابن خالويه — تحقيق العطار ، دار مصر للطباعة .
١٣٨ — كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية لابن بارون — تحقيق وتقديم وتعليق P K. Kokovtsov .
١٣٩ — كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة .
١٤٠ — كفاية المتحفظ لابن الأجدابى ، طبعات متعددة .
١٤١ — لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة للدكتور عبد العزيز مطر ١٩٦٦ .
١٤٢ — لسان العرب لابن منظور ، طبعتا بولاق وبيروت .

١٤٣ — اللسان العربى ، مجلة المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالمغرب (حتى المجلد ١٧) .

١٤٤ — اللغة والنحو بين القديم والحديث للأستاذ عباس حسن ، القاهرة .

١٤٥ — اللغة والنحو للدكتور حسن عون — ط أولى ١٩٥٢ .

١٤٦ — متخير الالفاظ — ابن فارس — تحقيق هلال ناجى — طبعة الرباط .

١٤٧ — مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون — ط المعارف .

١٤٨ — مجلة مجمع اللغة العربية بمصر .

١٤٩ — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، مجلد ٣٢ جزء ١ عام ١٩٥٧ .

١٥٠ — مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما : ماضيه وحاضره ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٥١ — مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما : المجمعيون ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٥٢ — مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما — د . شوقى ضيف — ١٩٨٤ .

١٥٣ — مجمل اللغة لابن فارس — تحقيق هادى حسن حمودى — الكويت ١٩٨٥ .

١٥٤ — المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جنى ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٢٥٢ قراءات .

١٥٥ — المحيط للصاحب بن عباد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٤٢ لغة ، والقسم الذى حققه الشيخ محمد حسن آل ياسين (الجزء الأول والثانى) .

١٥٦ — مختار القاموس للزاوى .

١٥٧ — المختار من صحاح اللغة لمحمد محيى الدين وآخر — القاهرة .

١٥٨ — المخصص لابن سيده — ط بولاق .

١٥٩ — المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف — ط المعارف .

١٦٠ — المدخل الى دراسة النحو العربى — عبد المجيد عابدين — ط اولى ١٩٥١ .

١٦١ — مدرسة البصرة النحوية — د . عبد الرحمن السيد — دكتوراه بدار العلوم .

١٦٢ — مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراســة اللغة والنحو للدكتور مهدى المخزومى .

١٦٣ — مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى .

١٦٤ — المزهر للسيوطى . تحقيق جاد المولى وآخرين .

١٦٥ — المسائل والأجوبة لابن قتيبة — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٣١ لغة تيمور .

١٦٦ — المساعد — الأب انستاس مارى الكرملى — بغداد ١٩٧٢ .

١٦٧ — المستشرقون لنجيب العقيقى . دار المعارف ١٩٦٤ .

١٦٨ — المصادر الزوزنى . مخطوطة دار الكتب المصرية ٥٨ مجاميع .

١٦٩ — المعاجم العربية للدكتور عبد الله درويش — القاهرة ١٩٥٦ .

١٧٠ — المعاجم العربية للدكتور عبد السميع محمد احمد — القاهرة ١٩٦٩ .

١٧١ — المعاجم اللغوية — دكتور محمد أحمد أبو الفرج — القاهرة ١٩٦٦ .

١٧٢ — معانى القرآن للنحاس — مخطوطة دار الكتب المصرية ٣٨٥ تفسير .

١٧٣ — معانى القرآن للفراء — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٠ تفسير ش .

١٧٤ — معجم الأدباء لياقوت الحموى .

١٧٥ — المعجم الانجليزى بين الماضى والحاضر — د . داود حلمى السيد — الكويت ١٩٧٨ .

١٧٦ — المعجم العربى بين المــاضى والحــاضر — د . عــدنان الخطيب ١٩٦٦ — ١٩٦٧ .

١٧٧ — المعجم العربى للدكتور محمد سالم الجرح (محاضرات غير مطبوعة).

١٧٨ — المعجم العربى للدكتور حسين نصار — دار مصر بالفجالة .

١٧٩ — المعجم الكبير — مجمع اللغة العربية .

١٨٠ — المعجم اللغوى التاريخى لفيشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٧ .

١٨١ — معجم مقاييس اللغة لابن فارس . تحقيق عبد السلام هارون .

١٨٢ — المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — ط أولى .

١٨٣ — المعجم الوسيط — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — ط أولى وثانية .

١٨٤ — المقتضب للمبرد ، مخطوطة دار الكتب المصرية ٩٠٩ : نحو .
١٨٥ — مقدمة الادب للزمخشرى — مخطوطات دار الكتب المصرية .
١٨٦ — مقدمة الصحاح لأحمد عبد الغفور العطار .
١٨٧ — مقدمة فى النحو لخلف الاحمر — دمشق ١٩٦١
١٨٨ — مناهج البحث فى اللغة — د . تمام حسان .
١٨٩ — من اسرار اللغة — د . ابراهيم انيس .
١٩٠ — من تاريخ النحو لسعيد الأفغانى — دار الفكر .

١٩١ — من قضايا اللغة والنحو للدكتور — أحمد مختار عمر — ط أولى — القاهرة ١٩٧٤ .

١٩٢ — المنجد فى اللغة للأب لويس معلوف .
١٩٣ — المنصف لابن جنى — تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين — الحلبى — أولى .

١٩٤ — منطق ارسطو والنحو العربى الدكتور ابراهيم مدكور — مجلة الأزهر رمضان وشوال ١٣٧١

١٩٥ — منهج السالك لأبى حيان .
١٩٦ — المهرجان الألفى لأبى العلاء — المجمع العلمى العربى — دمشق ١٩٤٥
١٩٧ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء للمرزبانى .

١٩٨ — موطئة الفصيح لابن الطيب الفاسى — مخطوطة دار الكتب المصرية ١٧٩ لغة .

١٩٩ — النحو العربى للدكتور مازن المبارك — ط أولى ١٩٦٥ .
٢٠٠ — نشأة النحو لمحمد الطنطاوى .
٢٠١ — نشأة النحو عند السريان وتاريخ نحاتهم للدكتورة زاكية رشدى .

٢٠٢ — النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر — مطبعة دار الكتب ببيروت ١٩٧١ .

٢٠٣ — النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .

٢٠٤ — نظرات فى اللغة عند ابن حزم — سعيد الأفغانى — بيروت ٩٦٦

٢٠٥ — نظرات فى المعجم الوسيط — د . عدنان الخطيب مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٣ — ١٩٦٧ .

٢٠٦ — نظرة فى النحو لطه الراوى .

٢٠٧ — نظرية الحقول الدلالية — مقال الدكتور احمد مختار عمر — كلية الآداب — جامعة الكويت — العدد ١٣ .

٢٠٨ — همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى .

٢٠٩ — وفيات الأعيان لابن خلكان — تحقيق محيى الدين .

٢١٠ — يونس — د . حسين نصار — سلسلة اعلام العرب .

ثانيا : المراجع الأجنبية

1. A Grammar of the Classical Arabic, M. S. Howell Vol. 1, 1883
2. A Short History of Linguistics, R. H. Robias. 1967.
3. A Short History of Syriac Literature, W. Wright, London 1894.
4. Arabic Lexicography, J. A. Haywood, Leiden. 1960.
5. Arabic Linguistic Studies in Egypt, A. M. OMAR, Ph. D. Thesis, Cambridge.
6. Fragments of the Syriac Grammar, W. Wright, 1871.
7. General Linguistics, R. H. Robins, London. 1966.
8. Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking, C. H. Versteegh, 1977.
9. Greek Pioneers in philosophy and grammar, by Forber. The Classical Review, Vol. 47, 1933.
10. History of Indian Literature, M. Winternitz (English translation). Delhi, 1967.
11. Ibn Barun's Arabic Works on Hebrew Grammar and Lexicography, by P. Wechter, 1964.
12. Literary History of Hebrew Grammarians, H. Hirschfled, London, 1926.
13. New Trends in Linguistics, B. Malmberg, Sweden, 1964.
14. On Lnaguage, from Plato to Von Humboldt, ed by P. H. Salus, 1969.
15. On the Indian and Arabian Division of the Zodiac, by Colebrooke, in Miscellaneous Essays, Vol. 2. 1873.
16. On the Origin of the Indian Brahman Alphabet, G. Buhler, Strassburg, 1898.
17. The Beginnings of Arabic Lexicography.
    مقال للمستشرق كرنكو منشور بمجلة : J. R. A. S. 1924.
18. The Bloomfield School, C. C. Fries, in Trends in European and American Linguistics, 1963.

The Encyclopaedia Britannica.

The French School of Linguistics, A. Sommerfelt, Trends in European and American Linguistics.

The History of Indian Literature, a. Weber, 1878.

The Jewish Encyclopaedia.

Manual of lexicography. L. Zgusta, Mouton, 1971.

The Philosophy of Sanskrit Grammar, B. C. Chakravarti, Calcutta, 1930.

Tajwid as a Source in Phonetic Research, K. Semaan.

منشور في :

Wiener Zeitschrift für die Kunde des morgeulandes, 1962.

كتب أخرى للمؤلف

* تاريخ اللغة العربية فى مصر — الهيئة العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧٠ .
* النشاط الثقافى فى ليبيا من الفتح الاسلامى حتى بداية العصر التركى — منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١ .
* البحث اللغوى عند الهنود وأثره على اللغويين العرب — دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢ .
* أسس علم اللغة — ترجمة عن الانجليزية — طبعتان ١٩٧٣ ، ١٩٨٣ — عالم الكتب بالقاهرة .
* من قضايا اللغة والنحو — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ .
* ديوان الأدب للفارابى — تحقيق ودراسة — مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة — خمسة أجزاء ١٩٧٤ — ١٩٧٩ .
* المنجد فى اللغة لكراع — تحقيق بالاشتراك — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .
* دراسة الصوت اللغوى — ثلاث طبعات من ١٩٧٦ — ١٩٨٦ — عالم الكتب بالقاهرة .
* العربية الصحيحة — عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨١ .
* اللغة واللون — دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢ .
* علم الدلالة — دار العروبة بالكويت ١٩٨٢ .
* معجم القراءات القرآنية — ثمانية أجزاء — تأليف بالاشتراك — جامعة الكويت ١٩٨٢ — ١٩٨٥ .
* النحو الأساسى — تأليف بالاشتراك — ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ .
* المعجم العربى الأساسى — تأليف بالاشتراك — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — تحت الطبع .

رقم الايداع ٧٧٣٦ لسنة ١٩٨٧

مطابع سجل العرب

To: www.al-mostafa.com